الجامعة الأردنية

إبراهيم بن المهدي :شاعرا، ١٦٢-٢٢٤ هـ / ٧٧٩-٨٣٩ م

إعداد

ووشيو تشينج

إشراف

عبدالجليل عبدالمهدي

أطروحة ماجستير، الجامعة الأردنية

١٩٩٧

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

٩١١٠
٢٤١٦٠٩
٩٩

مكتبة الجامعة الأردنية
٩ ايار ١٩٩٧
رقم التسلسل ٤٨١٣٩٦
رقم التصنيف

ايداع من الجامعة الاردنية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢١ تموز ١٩٩٧م وأجيزت.

أعضـــــاء اللجنة		التوقـــيع
١ – أ. د. عبدالجليل عبدالمهدي	(مشرفاً رئيساً)	.....
٢ – أ. د. إحسان عبّاس	(عضواً)	.....
٣ – د. عصمة غوشة	(عضواً)	.....
٤ – د. عبدالحميد المعيني	(عضواً)	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

صدق الله العظيم

وبه نستعين ، ، ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى مَنْ علّمني الحياة والحبّ . . .

إلى أبي وأمي الحبيبين . . .

إلى أخي العزيز . . .

أهدي هذه الرسالة . . .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

أتقدّم بجزيل الشّكر وفائق الاحترام إلى أساتذتي الكرام الّذين أفادوني بعلمهم وأعانوني على تلقّي العلم بحبّ وإخلاص.

وأخصّ بالشّكر الجزيل والتّقدير الأستاذ الفاضل الدّكتور **عبدالجليل عبدالمهديّ** على تفضّله بالإشراف على هذه الرّسالة، وحسن توجيهاته لي في إنجازها.

وأتوجّه بالشّكر العظيم والاحترام إلى أساتذتي الأفاضل: الأستاذ الدّكتور **إحسان عبّاس**، والدّكتورة **عصمة غوشة**، والدّكتور **عبد الحميد المعيني** على تفضّلهم بالمشاركة في قراءة هذا البحث ومناقشته.

وباقة من الشّكر أزجيها للأستاذ الفاضل **بكر عبّاس** على ما قدّمه لي من مساعدة وعون في ترجمة ملخّص الرّسالة باللّغة الانجليزية.

وأنثر أكاليل الثّناء وآيات الشّكر على كلّ من ساهم في إخراج وتقديم هذا البحث بصورته النّهائيّة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	
الإهداء	ب
شكر وتقدير	ج
المحتويات	ه
الملخص (باللغة العربية)	ز
مقدمة	١-٢
الفصل الأول : إبراهيم بن المهدي حياته	٣-٣٥
إبراهيم بن المهدي – مولده ونشأته ووفاته –	٣-١٢
مولده واسمه وكنيته	٣-٥
نشأته في بيئة القصور وأثرها فيه	٥-٧
صفاته	٧
ثقافته وآثاره	٨-١١
مؤدبوه وشيوخه	٨-١٠
تلامذته	١١
مؤلفاته	١١
وفاته	١١-١٢
إبراهيم بن المهديّ سياسياً	١٢-٣٥
توليه إمارة دمشق	١٤-١٥
خلافته للمسلمين	١٦-٢٤
المشكلات التي واجهت بغداد إبان خلافته	١٩-٢٤
المشكلات السياسية	٢٠-٢٣
المشكلات الاقتصادية	٢٣-٢٤
نهاية حكم إبراهيم بن المهديّ	٢٤-٢٧
ظهور إبراهيم بن المهدي	٢٧-٣٥
الفصل الثاني: إبراهيم بن المهدي مغنّيًا	٣٦-٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مكانة إبراهيم في مجال الغناء ٣٦-٥٠
غناؤه وجمال صوته ٣٦-٤٠
أحكام إبراهيم على المغنين ٤٠-٤٢
مجالس إبراهيم الغنائية ٤٢-٤٥
غناء إبراهيم لغيره من الشعراء وألحانه فيه ٤٥-٥٠
مدرسة إبراهيم بن المهدي الغنائية ٥٠-٥٤
العلاقة بين مدرسة إبراهيم بن المهدي ومدرسة إسحاق الموصليّ ٥٤-٦٠
الفصل الثالث: الأغراض الشعرية لإبراهيم بن المهدي ٦١-١٠٨
أغراض شعره ٦٣-١٠٨
الغزل ٦٣-٦٩
الوصف ٦٩-٧٦
المدح والشكر ٧٦-٨٣
الاعتذار ٨٣-٨٥
الهجاء ٨٥-٨٨
الرثاء ٨٨-٩٣
الحكمة ٩٣-٩٩
الفخر ٩٩-١٠٠
الشكوى والعتاب ١٠٠-١٠٨
الفصل الرابع: الدراسة الفنية في شعر إبراهيم بن المهدي ١٠٩-١٣٧
شكل القصيدة ١٠٩-١١٢
ظواهر الأسلوب الشعري ١١٢-١٢٧
ألفاظه ١١٣-١١٧
الأثر الإسلامي ١١٨-١٢٢
الصور الشعرية ١٢٧-١٣٥
البحور والقوافي ١٣٥-١٣٧
الخاتمة ١٣٨
المصادر والمراجع ١٣٩-١٤٦
الملخص (باللغة الانجليزية) ١٤٧-١٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخّص

إبراهيم بن المهديّ شاعراً

(١٦٢هـ - ٢٢٤هـ=٧٧٩ م-٨٣٩م)

إعداد

ووشيو تشينغ

إشراف

أ.د. عبدالجليل عبدالمهديّ

تناولت هذه الدّراسة موضوع إبراهيم بن المهديّ في ثلاثة فصول ركّز فيها على جانب الغناء والشّعر، وجاءت ملامح السّياسة في ثنايا هذه الفصول إمّا مفردةً أو ممزوجةً بين الغناء والشّعر. وتهدف هذه الدراسة إلى إزالة الغشاء عن حياة هذا الأديب. وهي تبحث في العلاقة الجدليّة بين إبراهيم بن المهديّ ومنازعيه على الحكم أمثال الرّشيد والمأمون، ومنازعيه على الغناء أمثال إسحاق الموصليّ. وتبحث أيضاً في قريحة إبراهيم الغنائيّة والمنافسات الشّديدة بينه وبين إسحاق الموصليّ، والمدارس الغنائيّة الّتي تشكّلت من هذين العلمين، والّتي انتقلت إلى تلامذتهما.

ونلمح أيضاً شاعريّة إبراهيم بن المهديّ ، فقد تناول الأغراض الشّعريّة المتعارف عليها، فمزجها في شاعريّته المرهفة. وقد تناول معظم الأغراض الشّعريّة تقريباً، وظهرت في هذه الدّراسة ملامح البناء الفنّيّ لشعره وملامح التّأثّر والتّأثير، حتّى أنّه صاغ لنفسه نكهة شعريّة مميّزة. كما لمحنا بروز المعجم القرآنيّ في هذا البناء الفنّيّ، حيث برزت فيه ملامح جاءت عبر كلامنا من الدّراسة الفنّيّة في شعر إبراهيم بن المهديّ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد حاولت من خلال هذه الدّراسة أن أستعين بالمصادر والمراجع المتنوّعة الّتي ضمّنت أشعاراً وأخباراً كثيرة لإبراهيم بن المهديّ، وفي مقدّمة هذه المصادر كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهانيّ الّذي أفرد لشاعرنا ترجمةً طويلةً، هذا فضلاً عن المصادر الأخرى مثل "أشعار أولاد الخلفاء" للصّوليّ. وأذكر من المراجع الحديثة خاصّةً الدّراسة القيّمة لبدري محمّد فهد "الخليفة المغني". وتوصلّنا إلى نتيجة مهمّة، وهي أنّه ظهر لدينا شاعر، ومغنّ مجيد لا يقلّ أهمّيّة عن الشّعراء والمغنّين في موهبتهم وإجادتهم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

الحمد للّـه ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد راودتني منذ سني دراستي الأولى للّغة العربيّة في قسم آسيا - أفريقيا في جامعة الدّراسات الأجنبيّة ببكين فكرةُ دراسة نتاج أديب من الأدباء العرب القدماء أو المحدثين، لِما يعكسه نتاج الأديب من روح العصر الّذي يعيش فيه، وما يظهر في أدبه من نزعات تمثّل العصر. وقد نمت هذه الفكرة قليلاً قليلاً عند التحاقي بقسم اللّغة العربيّة في الجامعة الأردنيّة، وذلك بعدما اتّضحت لديَّ العصور الأدبيّة المتسلسلة، وعرفت أنّ لكلّ عصر أدبيّ أدباءه ومبدعيه. ولمّا شرعت في اختيار موضوع أطروحة الماجستير في القسم الّذي أدرس فيه، وقع اختياري على أديب من أدباء العصر العبّاسيّ لم ينل شهرة عند الدّارسين مع ما له من قدرة فنّيّة. وهذا الأديب هو إبراهيم بن المهديّ، ابن الخليفة محمّد المهديّ، وأخو الخليفة هارون الرّشيد. وممّا شجّعني كثيراً على دراسة نتاج هذا الأديب قلّة احتفال الدّارسين به، وعدم تصدّيهم لدراسة إنتاجه دراسة علميّة مكتملة، وكذلك ارتباط هذا الأديب بجانبين فنّيّين متكاملين هما: الشّعر والغناء. فقد كان إبراهيم بن المهديّ شاعراً، كما كان مغنّياً مرموقاً.

وهكذا وبتشجيع من أستاذي الفاضل الدّكتور **عبدالجليل عبدالمهديّ** شرعت أنقّب في المصادر الأدبيّة والتّاريخيّة ومصنّفات التّراجم، لأجمع ما قيل عن هذا الأديب المغمور، وأحاول جمع شتات أشعاره، فجمعت أخباره السّياسيّة والاجتماعيّة والفنّيّة، فضلاً عن أشعاره الّتي زادت على خمسمائة بيت، وجمعت عدداً من النّصوص النّثريّة له، غير أنّها لم تبرز لنا اتّجاهاً نثريّاً محدّداً ، لهذا أغفلتها في الدّراسة.

وقد انتظمت هذه الدّراسة في ثلاثة فصول، حاول الأوّل منها التّصدّي لأبرز الجوانب الاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة في حياة إبراهيم بن المهديّ، فعرض لمولده ووفاته ونشأته في القصر، وأثر بيئة القصر فيه. وعرض للجانب الثّقافيّ في حياته، وأبرز مؤلّفاته الّتي نقلتها المظان الأدبيّة. كماعرض أبرز الجوانب السّياسيّة في حياته، وتناول الاتّجاه الغنائيّ الّذي استقلّ به إبراهيم عن سائر مغنّي عصره. أمّا الفصل الثّاني فقد تصدّى لدراسة شعر إبراهيم بن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المهديّ، والأغراض الشّعريّة الّتي نظم فيها، فتناول مواضيع الغزل والوصف والمدح والرّثاء والاعتذار والشّكر والفخر والحكمة والهجاء وغيرها. أمّا الفصل الثّالث فسعى إلى دراسة فنّيّة في أشعار إبراهيم بن المهديّ، فدرس أبرز خصائص الأسلوب الشّعريّ عنده والصّور الشّعريّة الّتي برزت في أشعاره.

لقد حاولت في هذه الدّراسة أن أستفيد من الكتب الأدبيّة والتّاريخيّة القديمة الّتي تناولت إبراهيم بن المهديّ، ومن أهمّ هذه المصادر كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهانيّ الّذي عقد لشاعرنا تراجم وافية، وكتاب "أشعار أولاد الخلفاء" للصّوليّ، فقد أورد لنا كثيراً من أشعار إبراهيم بن المهديّ. وسعيت إلى الانتفاع من المراجع الحديثة، مثل كتاب "الخليفة المغنّي" لبدري محمد فهد وغيره من الكتب.

وقد واجهتني في إعداد هذه الدّراسة العديدُ من الصّعوبات، لعلّ أبرزها غرابة اللّغة الّتي أتعامل معها، كوني لست من ناطقي هذه اللّغة الأصليين، إضافة إلى كثرة المصادر الّتي عرضت لإبراهيم بن المهديّ وصعوبة لغتها، غير أنّ تشجيع أستاذي الفاضل، ومعاونة أساتذتي في قسم اللّغة العربيّة ذلّل لي هذه الصّعوبات، ومكّنني من السّير في هذه الدّراسة.

وإن كان ثمّة شكر وإكبار يوجّه، فهو إلى أستاذي الفاضل الدّكتور **عبدالجليل عبدالمهديّ** الّذي ما انفكّ يساعدني، ويشجّعني، ويقرأ لي، ويسدي لي من توجيهات قيّمة، فله منّي الشّكر الجزيل. وأسجّل شكري العظيم لأستاذي الفاضل الدّكتور **إحسان عبّاس** الّذي منحني عناية، ويمدّني بسديد ملاحظاته وثاقب آرائه. كما أوجّه الشّكر العميق لأساتذتي الأفاضل في قسم اللّغة العربيّة في الجامعة الأردنية على ما قدّموه لي من منابع علمهم، فلهم منّي كلّ الشّكر.

وبعد،

فهذا جهد أعجميّة تسعى إلى أن تسهم في خدمة هذه اللّغة، وتحاول أن تكون من متذوّقيها، إذ إنّها لغة القرآن الكريم، والسّنّة النّبويّة المطهّرة. فإن أصبت وأجدت، فذلك بتوفيق من اللّه، وإن أخطأت، فمن نفسي.

ربّ أسألك التّوفيق في القول والعمل، وأن تجعلنا من المخلصين.

وو شيو تشينغ
قسم اللغة العربية / كلية الآداب
الجامعـــة الأردنيـــة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

إبراهيم بن المهديّ

حياته

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرتبط البحث بسيرة أيّ علم من الأعلام بإدراك المؤثّرات الحياتيّة، وما تحويه من جوانب متعدّدة. إنّ هذه المؤثّرات تلقي بظلالها على نحو أو أكثر في هذا العلم، فتسهم في تشكيله وتكوينه، فإدراك المؤثّرات ينطوي على إبراز المحطّات الثّقافيّة والحياتيّة في شخصيّة هذا العلم. ويتجاوز البحث الأمور الشّكليّة العامّة الّتي تلفّ هذا العلم لينتقل إلى تصوّر البنى الدّاخليّة لهذا العلم. واستناداً إلى التّصوّر السّابق رأيتُ أن يقوم الفصل الأوّل في هذه الدراسة لبحث حياة إبراهيم بن المهديّ. وحتّى نرسم صورة واضحة لهذه الشّخصيّة. حاولنا تصنيف ثلاثة جوانب، تُشكّل في أساسها إبراهيم بن المهديّ، وهذه الجوانب الثّلاثة تكامليّة في حقيقتها، وقصدنا من فصلها البحث والدّراسة، وتتمثّل هذه الجوانب بالأمور الآتية :

أوّلاً – إبراهيم بن المهديّ : مولده ونشأته ووفاته.

ثانياً – إبراهيم بن المهديّ سياسياً.

أوّلاً – إبراهيم بن المهديّ: مولده ونشأته ووفاته :

أ – مولده واسمه وكنيته:

أجمعت مصادر التّراجم المتعدّدة على أنّ مولد إبراهيم بن المهديّ كان في غرّة ذي القعدة سنة اثنتين وستين ومائة للهجرة (١٦٢هـ) [1]. ولم نلحظ أيّ خلاف بين المصادر السّابقة في تقرير الشّهر الّذي وُلِدَ فيه إبراهيم والسّنة التي وُلِدَ فيها أيضاً.

ينحدر إبراهيم بن المهديّ من أسرة ذات نسب عريق في التّاريخ العربيّ، فهو ابن محمّد المهديّ بن عبدالله المنصور بن محمّد بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس بن عبد المطّلب، ويُكنى

---

(١) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، عُني بنشره: ج. هيورث. دن، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ص١٨. ابن ماكولا، الإكمال، ج١، ص٥١٨. السّمعانيّ، الأنساب، ت: عبد الرّحمن اليمانيّ، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ج٣، ص٩٧. ابن الجوزيّ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ت: محمّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ج١١، ص٨٩. الصّفديّ، الوافي بالوفيات، دار النّشر فرانز شتاير شتوتغارت، ط٣، ١٩٩١م، ج٦، ص١١١. ابن كثير، البداية والنّهاية، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ج١٠، ص٢٩١. ابن تغريّ برديّ، النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ت: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج٢، ص٢٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأبي إسحاق[١]. وكان أبوه محمّد خليفة للمسلمين، بايعه النّاس بمكّة بعد وفاة أبيه أبي جعفر المنصور[٢]. وقد تُوفّي والده الخليفة وإبراهيم ما يزال طفلاً في السّابعة من عمره، فشبّ ونما بين رعاية أخيه الخليفة هارون الرّشيد وأمّه شَكْلَة[٣]. ولعلّ تربيته في كنف أمّه ونشوءه في أحضانها دون الأب، جعل خصومه ينسبونه إليها، فقد عُرِفَ بابن شَكْلَة[٤]. وكأنّها كانت عاراً له. وسأشير بعد قليل إلى أمّه ونسبها، وربما يكون هذا النّسب قد دفع خصوم إبراهيم إلى إطلاقه عليه. وكان إبراهيم بن المهديّ واحداً من ثمانية أبناء للمهديّ، وهم : موسى، هارون، عليّ، عُبَيْدالله، إسحاق، يعقوب، إبراهيم، منصور[٥]. وكانوا من أمهات مختلفات، وكان هارون وموسى من الخَيْزُران. وكان عليّ وعُبَيْدالله من ريطة بنت أبي العبّاس. ومنصور ويعقوب وإسحاق من البُخْتَرِيَّة، وكان إبراهيم من شَكْلَة[٦]. ولم تكن شَكْلَة أمّ إبراهيم ذات أصل عربيّ صريح، إذ هي مولّدة. كان أبوها من أصحاب المازيار، يقال له: شاه أفرند. فقُتِلَ مع المازيار، وسُبِيَتْ بنته شكلة، فحُمِلَتْ إلى المنصور، وكانت صغيرة السّنّ، فوهبها لمُحْيَاة أمّ ولده، فربّتها وبعثت بها إلى الطّائف. فنشأت هناك، وتشرّبت أصول الفصاحة العربيّة، فلمّا كبرت رُدّت إلى محياةّ. فرآها المهديّ عندها، فأعجبته، فتمّ زواجه بها[٧]. ويذكر الصّوليّ أنّ شَكْلَة من سبي دَنْباوند، قُتِلَ أبوها شاهمردّ، وسُبيت هي والبُخْتَرِيَّة أمّ منصور بن المهديّ[٨].

---

(١) ابن النّديم، الفِهْرِست، دار المعرفة، بيروت ط١، ١٩٩٤م، ص١٤٧. الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد أو مدينة السّلام، دار الكتب العلميّة، بيروت، ج ٦، ص ١٤٢. السّمعانيّ، الأنساب، ج٣،، ص٩٧. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر الكبير، ت: إبراهيم صالح، دار الفكر للطّباعة والتّوزيع والنّشر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م، ج٤، ص١٢٦. ابن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، ت: إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت، مج١، ص٣٩. الصّفدي، الوافي بالوفيات، ج٦، ص١١٠. ابن حجر العسقلانيّ، لسان الميزان، دار الكتب الإسلاميّة، القاهرة، ط١، ج١، ص٩٨. ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة، ج٢، ص٢٩٣.

(٢) ابن قتيبة، المعارف، ت: ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ص٣٧٩.

(٣) ابن ماكولا، الإكمال، ج١، ص٥١٨. السّمعانيّ، الأنساب، ج٣، ص٩٧.

(٤) ابن الجرّاح، الورقة، ت: عبدالوهاب عزام وعبد السّتار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، ص١٩.

(٥) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، دار صادر للطّباعة والنّشر، بيروت، ١٩٦٠م، مج٢، ص٤٠٢.

(٦) ابن قتيبة، المعارف، ص٣٨٠.

(٧) الأصفهانيّ، الأغاني، شرح: عبد عليّ مهنّا وسمير جابر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م، ج١٠، ص١١٩.

(٨) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتذكر كتب التّراجم أنّ شكلة كانت امرأة سوداء[١]. وقد كان لها شأن كبير في ابنها إبراهيم، وسنشير إليه عند حديثنا عن أثر البيئة في حياة إبراهيم.

ب - نشأته في بيئة القصور وأثرها فيه:

عاش إبراهيم بن المهديّ في بيئة القصور، فأبوه خليفة، وجدّه المنصور خليفة أيضاً. ويدفعنا وضعه هذا إلى البحث عن أثر البيئة في تشكيل شخصيّته وتنمية مواهبه.

كان أثر والدته واضحاً في تكوين شخصيّته على نحو كبير، فوالدته الّتي تربّى في أحضانها، أكسبته ثقافة واسعة، فقد عاشت في الطّائف - وهي موئل الفصاحة العربيّة - وقد أكسبها هذا الأمر اطّلاعاً مقبولاً على الشّعر والغناء العربيّ، وكانت الطّائف قريبة من الحجاز موطن الغناء والشعر العربيّ القديم[٢]. وقد ذكر الصّوليّ لشكلة عدداً من المقطوعات. مما يؤكّد ضلوعها بلغة العرب[٣]. وانعكس التّكوين الثّقافيّ الّذي ملكته شكلة في تربية ابنها، فتطبّع إبراهيم بطباع أمّه عند نشوئه في ظلّها. ومن هنا نستطيع أن نلمح الأثر البينيّ الأوّل في حياة إبراهيم بن المهديّ. فأمّه قد حرصت على تغذيته بما نهلته من بيئة الطّائف من فصاحة وبيان وعلم. والأمّ - كما هو معلوم - خير مدرسة لابنها.

ومن الممكن أن نلمح لشكلة أثراً واضحاً في جانب الغناء عند إبراهيم، إذ هي اطّلعت على أصول الغناء العربيّ القديم في الحجاز لإقامتها الطّويلة في الطّائف. ولعلّها بهذا الاطّلاع تكون قد غرست في إبراهيم الغناء والتعلّق به، فأتيح له الاطّلاع على أصوله القديمة عن كثب*. ويشهد على فصاحة شكلة وحسن بيانها حادثة جرت لها مع المأمون، فقد جاءها المأمون إبّان اختفاء ابنها إبراهيم، يسألها عنه، ويهدّدها ويتوعّدها إن لم تدلّ على مكانه، فبعثت بكتاب إلى

---

(١) انظر: ابن ماكولا، الإكمال، ج١، ص٥١٨. السّمعانيّ، الأنساب، ج٣، ص٩٧.

(٢) انظر: ابن خلدون، المقدّمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦١م، ص٧١٥. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ج١، ص٥٣٢-٥٣٦.

(٣) الشّعر الّذي ذكره الصّولي لشكلة كان في أخ لها يقال له: أحمد، تقول فيه:

أحمد تَفْديه شَبابُ فِهْرِ ... مِنْ كُلّ ما رَيْبٍ وأمْرٍ نُكْرِ

قَدْ جاءَ مِثْلَ الشّمْسِ غِبَّ قَصْرِ ... في حُسْنِ بَدْرٍ وَاعتِدالِ صَدْرِ

بُنَيَّ أحْشائي وذُخْرُ ذُخْرِي ... شُدّ إلهي بأبيكَ ظَهْرِي

وَزادَهُ رَبُّ العُلَى مِنْ عُمْرِي ... وذَبَّ عنه خائفاتِ الدّهْرِ

الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء ص١٧.

* عرفت شكلة أمّ إبراهيم بن المهديّ بأنّها كانت موسيقيّة بارعة. انظر: ليلى فياض، موسوعة أعلام الموسيقى العرب والأجانب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المأمون، تقول فيه: " يا أمير المؤمنين، أنا أمّ من أمهاتك، فإنْ كان ابني عصى الله جلّ وعزّ فيك، فلا تعص الله فيّ "[١]، فرقّ لها المأمون، وما عاد يطالبها بإبراهيم. ومن كتاب شكلة للمأمون يظهر أنّها ذات فصاحة مكّنتها من التّأثير على المأمون وتغيير معاملته لها. وبهذا يظهر أنّها قد ملكت عناصر الثّقافة العربيّة في وقتها، وأودعتها ابنها.

أمّا أثر والده المهديّ فقد كان ضئيلاً مقارنة بوالدته، فقد عاصر إبراهيم أباه سبع سنوات فحسب*. فلم يتمكّن من مجالسته مجالسة العاقلين، كما أنّه لم يحظ بحضور المجالس الأدبيّة والثّقافيّة الّتي كانت منعقدةً في قصره. وعلى الرّغم من قِصَر المدة الّتي عاصر فيها إبراهيم أباه، فإنّنا نرى أنّ ما كان يميل إليه أبوه من لهو ولعب وسماع للأغاني، يكون قد أصاب نفس إبراهيم بشيء من التّأثّر غير الواعي. فمجالس اللّهو والغناء الّتي كان يعقدها أبوه ما زالت عالقة في مخيّلته، فأراد أن يحياها في كبره. وقد عُرِفَ عن والد إبراهيم ولعه باللّهو واللّعب وسماع الأغاني. وولع المهديّ هذا هيّأ لإبراهيم الظّرف الملائم كي يتعلّم الطّرب والغناء. وقد ذكر الصّفديّ أنّ المهديّ كان يقول الشّعر وينظمه[٢]. وهذا مما شجّع إبراهيم في السّير على نهج أبيه.

ولعلّ نسب أمّ إبراهيم بن المهديّ كان عامل نقص، وسمة واضحة في التّقليل من شأن ابنه، وذلك عكس أخويه الهادي والرّشيد اللّذين كانا من الخيزران، تلك المرأة ذات المكانة في السّياسة العبّاسيّة وفي تحريك أمور القصر. وهذا التّفاوت في النّسب جعل إبراهيم بن المهديّ يعيش في غربة نفسيّة – وإن كان داخل القصر – وهذا ما أدّى به إلى أن يثور ويتسلّم زمام الخلافة مدّة عامين. ونلاحظ أن حياته كانت مزيجاً من اللّهو والمعاناة، فقد كان مغنّياً وشاعراً وأديباً من جهة، وكان سياسيّاً من جهة أخرى، ولعلّ امتزاج الشّخصيتين في شخص واحد يجعله مضطرباً في التّفكير والسّلوك، وهذا ممّا سنلاحظه في علاقته مع الخلفاء، حيث تظهر شخصيّة إبراهيم المتسامح الّذي لا يبالي، وشخصيّة إبراهيم الحانق الغاضب.

وكما ذكرنا سابقاً، فإنّ شخصيّة إبراهيم السّياسيّ جعلته يتعرّض لأخطار جمّة من قبل أخيه الرّشيد وابنيه الأمين والمأمون. فكان السّجن يحتلّ محطّات عديدة في حياة إبراهيم، حيث تعرّض للسّجن في عهد الأمين[٣]، وفي عهد المأمون سنة (٢١٠)هـ [٤].

---

(١) ابن طيفور، كتاب بغداد، شرحه: محمّد الكوثريّ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢، ١٩٩٤م، ص١٠١.

* إبراهيم بن المهديّ ولد سنة (١٦٢هـ)، وتُوفّي والده سنة (١٦٩هـ)، ابن قتيبة، المعارف، ص٣٨٠.

(٢) الصّفديّ، الوافي بالوفيات، ج٣، ص٣٠١.

(٣) التّنوخيّ، الفرج بعد الشّدّة، ت: عبّود الشّالجيّ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م، ج٢، ص١٠٤.

(٤) انظر: الأحداث ص٢٨-٣٢ من هذا الفصل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع ذلك فقد كان لإخوة إبراهيم بن المهديّ أثر في تكوين شخصيته، فإبراهيم كان أصغرهم، وكان يحضر مجالس أخيه هارون الرّشيد، وكانت هذه المجالس تثري معرفته وثقافته. وقد كان لأخته عُلَيَّة* الأثر ذاته، فقد كان يأخذ عنها الغناء(١).

يظهر ممّا سبق أنّ منابع إبراهيم متعدّدة، وهذا ما وفّرته له البيئة الّتي كان يعيش فيها، ولولاها لما وصل إلى تلك المكانة الثّقافيّة العالية، ولما تمكّن من هذه الثّقافة الموسوعيّة وإن كنّا لا نغفل جانب الاستعداد الطّبيعيّ لديه.

جـ- صفاته :

يمكن أن نتحدّث عن جانبين من صفات إبراهيم، أحدهما يتّصل بالجانب الخَلْقِيّ، والآخر يتّصل بالجانب الخُلُقِيّ. ففي الجانب الأوّل وُصِفَ بأنّه رجل سمين، غليظ الشّفة، حسن العين، والأنف، أثجل البطن، كثير اللّحم والشّحم، وفي نصف وجهه شامة. وكانوا يدعونه لذلك عنقوداً(٢). وتظهر كتب التّراجم إبراهيم بن المهديّ رجلاً طويلاً عظيم الجثّة. لذلك لُقِّبَ بالتّنين(٣). ولعلّ السّواد الّذي وُصِفَ به إبراهيم انتزعه من أمّه. فقد وصفتها المصادر بأنّها شديدة السّواد. وتدلّ مخاطبات هارون الرّشيد شقيق إبراهيم على أنّ إبراهيم كان كثير الشّبه بأبيه المهديّ. ويذكر ابن عساكر أنّ هارون الرّشيد عندما كان يستدعي أخاه إبراهيم، يقول له: يا بقيّة أبي. ويعلّق ابن عساكر على ذلك قائلاً: "وكان يقول له كثيراً يا بقيّة أبي، لشدّة شبه إبراهيم بالمهديّ في لونه وعينيه وأنفه"(٤). أما الجانب الثاني فأُثر عنه أنّه كان ذا تديُّن وعقل وكرم وأدب

---

* عليّة بنت المهدي: أخت هارون الرّشيد، أديبة وشاعرة تحسن صناعة الغناء ، وكان أخوها إبراهيم يأخذ عنها الغناء، وكانت من أكمل النساء عقلاً، وأحسنهنّ ديناً وصيانةً ونزاهةً، لها "ديوان شعر"، وفي شعرها إبداع وصنعة. توفيت سنة ٢١٠هـ. (فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي، ٩٩/٢).

(١) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٥٥.

(٢) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، مج٣، ص٤٥١. أبو الطّيب الوشاء، الموشّى أو الظّرف والظّرفاء، دار صادر، بيروت، ص٧٨. الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٦. الذّهبيّ، سير أعلام النّبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ج١٠، ص٥٦٠. أثجل: عظم البطن واسترخاؤه، وقيل: وهو خروج الخاصرتين ثَجِل متَجَلاً وهو أثجل. (لسان العرب، ٨٢/١١، مادة ثجل).

(٣) ابن ماكولا، الإكمال، ج١، ص٥١٨. السّمعانيّ، الأنساب، ج٣، ص٩٧. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، مج١، ص٣٩. الذّهبيّ، العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ج١، ص٣٠٦. الصّفديّ، الوافي بالوفيات، ج٦، ص١١٠.

(٤) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جمّ، وكان خلقه طيّباً، كما كان وافر الفضل، واسع النّفس، سخيّ الكف[١]. وأجمعت المصادر على أنّ إبراهيم كان رزيناً. ولم يُؤثَر عنه التّعالي على جلسائه وخلطائه، بل على العكس من ذلك، أُثر عنه التّواضع والدّماثة. وقد أُثر عن إبراهيم بن المهديّ اهتمامه بأمر غيره، ونسيانه أمر نفسه. فقد كان أجود النّاس رأياً لغيره، وأضعفهم رأياً لنفسه، وسُئل عن ذلك، فقال: أنظر لغيري بجوارح سليمة من الهوى، وأميل في أمر نفسي إلى ما أشتهي[٢].

د- ثقافته وآثاره:

• مؤدّبوه وشيوخه:

وأفاد إبراهيم بن المهديّ من الجوّ الثّقافيّ الّذي يوفّره الخلفاء لأبنائهم. فقد درج الخلفاء على اتّخاذ مؤدّبين لأولادهم، يعلّمونهم عناصر الثّقافة المعروفة في ذلك الوقت، فكان لأبناء الخليفة مؤدّبون يعلّمونهم القرآن الكريم، واللّغة، والفقه والتّفسير، والشّعر وأيّام العرب، وغيرها من المعارف. وهذا الأمر يسهم في إعطاء المتعلّم ثقافة موسوعيّة شاملة وإلماماً بعناصر الثّقافة المألوفة. وهذا ما عُرف به إبراهيم بن المهديّ، فقد أُثرت عنه فصاحة اللّسان، وحسن البيان، وجودة الشّعر، وروايـة العلم، والمعرفة بالجدل، وجزالة الرّأي، والتّصرّف في اللّغة والفقه، وسائر الآداب الشّريفة، والعلوم النّفيسة، والأدوات الرّفيعة[٣]. كما كان إبراهيم على دراية واسعة بأيّام النّاس وأخبارهم[٤]. وقد أجمعت المصادر على اتّصاف إبراهيم بالفصاحة، والإتقان، وإجادة الشّعر، وغزارة الأدب[٥].

ولم تحفظ المظان الأدبيّة المتعدّدة لنا أسماء مؤدّبي إبراهيم وشيوخه. ويظهر من ثقافته الواسعة أنّهم كانوا كثيرين، كما يظهر أنّ تأثيرهم فيه كان بليغاً. وقد ذكر الأصفهانيّ واحداً منهم،

---

(١) الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٤. ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١١، ص٨٩. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، مج١، ص٣٩.

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٢١.

(٣) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٢١.

(٤) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ت: عبد المجيد التّرحينيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م، ج٧، ص٣٩.

(٥) ابن الجرّاح، الورقة، ص١٩. الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١١٩. الثّعالبيّ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ت: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ص١٥٤. ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١١، ص٨٩. ابن الفوطي، مجمع الآداب في معجم الألقاب، ت: مصطفى جواد، وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، دمشق، ١٩٩٣م، ص٣٢. الذّهبيّ، سير أعلام النّبلاء، ج١٠، ص٥٥٧. ابن العمّاد الحنبليّ، شذرات الذّهب، ت: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٨٨م، مج٣، ص١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اسمه أبو إياد*، ولم يوضّح الأصفهانيّ في أيّ مجال كان يؤدّبه. وهناك إشارة إلى أحد أساتذته، وردت في أحد الأخبار الّتي تصوّر مجلساً غنائيّاً عُقِدَ في بلاط الرّشيد هو إسماعيل بن جامع*، وقد كان إبراهيم يقدّمه ولا يفضّل عليه أحداً[١]. ويظهر أثر ابن جامع في إبراهيم أكثر ما يظهر في جانب الغناء، فقد كان ابن جامع حاذقاً به، ومتقناً له، كما كان مغنّياً بارعاً. وتذكر الروايات أن إبراهيم كان يأخذ الغناء عن أخته عليّة[٢]، وأنها تطارحه الغناء، فكانت متقنةً له، ومحسنةً في الشّعر[٣]. ولعلّ إغفال المصادر المتعدّدة شيوخَ إبراهيم ومؤدّبيه راجع إلى تركيزها على الجانب الغنائيّ في حياته دون سائر الجوانب الأخرى. هذا ما فعله الأصفهانيّ، حيث يذكر حين شرع بالتّرجمة لإبراهيم أنّه سيركّز اهتمامه على جانب الغناء ويغفل ما سواه من الأخبار[٤].

كان للثّقافة الواسعة الّتي يتمتّع بها إبراهيم دور في توجيهه صوب الرّواية، ونقل الأخبار، وهي جانب بارز من جوانب حياته الثّقافيّة. وقد غلبت رواية أخبار الغناء والمغنّين على إبراهيم ابن المهديّ. ولعلّ ذلك راجع إلى ما في طبع إبراهيم من حبّ للغناء وولع به. ويكشف اهتمام إبراهيم برواية أخبار المغنّين ثقافته الغنائيّة الواسعة، وحرصه على متابعة أخبار الغناء والمغنّين.

وقد كانت الأخبار الغنائيّة الّتي يرويها إبراهيم متعدّدة، إذ نراه يروي أخبار مجلس غنائيّ عُقِدَ في أحد قصور الخلفاء، وقد يروي أخبار مجلس غنائيّ عقده أحد المغنّين في بيته، أو يروي حادثة تخبر عن مجالس غناء كان هو قائدها، ويروي أخبار مغنٍّ من المغنّين. فمن روايته لأخبار الغناء والمغنّين روايته خبر أوّل من كان منهم في الحجاز[٥]. وروى إبراهيم بن المهديّ رواية من الرّوايتين اللّتين اعتمد عليهما أبو الفرج الأصفهانيّ في تحديد الأصوات الّتي أمر

٤٨١٣٩٦

* أبو إياد: لم أحصل على اسمه.

* إسماعيل بن جامع: هو إسماعيل بن جامع السهميّ القرشي من أكابر المغنّين الملحّنين، كان من أحفظ النّاس للقرآن، متعبّداً، كثير الصلاة. احترف الغناء فذاعت شهرته، فاتّصل بالخليفة هارون الرشيد، فحظي عنده، وكان من أقران إبراهيم الموصليّ. (ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٠٧/٣).

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٥، ص١٧٣.

(٢) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٥٥.

(٣) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٣١.

(٤) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٢١. الأغاني هو المصدر الوحيد الّذي أفرد ترجمة مطولة لإبراهيم، انظر: ج١٠، ص١١٩-١٨٢.

(٥) المصدر نفسه، ج١٠، ص٢٤٩. وهو ذكر أوّل مَنْ غنّى بالحجاز فقال: "كان ابن سريج أوّل من غنّى الغناء المتقن بالحجاز بعد طويس".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرّشيد باختيارها لتكون مثالاً في الحسن والإتقان، وهي الأصوات الّتي أقام عليها الأصفهانيّ كتابه المعروف[١].

وقام إبراهيم بن المهديّ برواية العديد من الأخبار عمّنْ سبقه من المغنّين، وما يتّصل بحياتهم من أحداث[٢]. ومن الرّوايات الّتي يرويها إبراهيم عن نفسه روايته لحادثة غضب بسببها الأمين عليه، فوضعه في السّجن[٣]. كما روى العديد من الحكايات الّتي جرت له إبّان اختفائه عن المأمون[٤]. وقد روى لأشعب المغنّي* أخباراً كثيرة. وورد اسمه في سلسلة الرّواة في مواطن متعدّدة[٥].

ولم تقتصر الرّواية عنده على جانب الغناء - وإنْ غلبت عليه -، بل تعدّتها إلى رواية الشّعر وأخباره. ومن ذلك، روايته لأحد أخبار كُثَيِّر عزّة وعشقه[٦]. ويشير الأصفهانيّ إلى رواية إبراهيم بن المهديّ بعض الأشعار للزُّبَيْر بن دحمان* [٧].

وكان لإبراهيم رواية للحديث الشّريف، فقد وصفه ابن عساكر بأنّه محدّث، وأورد له حديثاً يرويه عن حمّاد بن الأبحّ*، يقول ابن عساكر عند ترجمته لإبراهيم: "وروى عن حمّاد الأبحّ عن ابن أبي مليكة عن عائشة" قالت: قال رسول الله ﷺ : "من نُوقِشَ الحساب عُذِّبَ"[٨]. ولم نعثر على رواية للحديث الشّريف عند إبراهيم سوى في الموضع السّابق. ممّا يدل على قلّة ضلوعه بهذا النّوع من الرّوايات.

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٠-١١.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٣٠. لم يذكر الأصفهاني سبب غضب الأمين عليه.

(٤) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٤١. الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٥٢-١٥٣.

* أشعب المغنيّ وهو أشعب بن جبير المعروف بالطامع ويقال له ابن أمّ حميد، روى الحديث وكان يجيد الغناء، ويضرب المثل بطمعه. توفي بالمدينة سنة ١٥٤هـ. (ابن طيفور، تاريخ بغداد، ج٧، ص٣٧).

(٥) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٩، ص١٧٧، و١٨٢، و١٨٧ وغيرها.

(٦) المصدر نفسه، ج٩، ص٤٣.

* الزبير بن دحمان: هو أحد المحسنين المتقنين الرواة الضرّاب، المتقدّمين في صناعة الغناء، قدم على هارون الرشيد في الحجاز وكان المغنّون في أيّامه حزبين، أحدهما حزب إبراهيم الموصليّ وابنه إسحاق وآخر في حزب ابن جامع وابن المهديّ، وكان الزبير في حزب إسحاق. (الأصفهاني، الأغاني، ٣٠٨/١٨).

(٧) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٨، ص٣١٠.

* حمّاد بن الأبحّ : هو حماد بن يحيى أبو بكر الأبح، كان يروي الحديث. (البخاري، التاريخ الكبير، مؤسسة الكتب الثقافية، ٢٤/٣).

(٨) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

● **تلامذته:**

روى عن إبراهيم بن المهديّ عدّة رجال، منهم: ولده هبة الله* ، وحُمَيْد بن فروة، وأحمد ابن هيثم[١]. وقد أخذ عنه العديد من الرّجال، ومنهم: مخارق* ، ويوسف بن إبراهيم* [٢]. من رواية إبراهيم ابن المهديّ الأخبار وأخذ الآخرين عنه، يمكن الحكم بسعة ثقافته وشمولها.

● **مؤلفاته:**

ذكرت المصادر الأدبيّة عدداًمن المؤلّفات التي تخص إبراهيم في موضوعات شتّى. فقد ذكر ابن النّديم أنّ لإبراهيم "كتاب أدب إبراهيم"، و"كتاب الطّبيخ"، و"كتاب الطّبّ"، و"كتاب الغناء"[٣]. ولكن لم يصل إلينا كتاب منها.

ولإبراهيم بن المهديّ كتاب "الجامع في الغناء"، وقد نسخ الأصفهانيّ من هذا الكتاب العديد من الألحان الّتي كان إبراهيم بن المهديّ يغنيّ بها [٤]. وقد صنّف يوسف بن إبراهيم أحد تلامذة إبراهيم بن المهديّ كتاباً، سماّه "إبراهيم بن المهديّ"، وصنّف "رسالة في الفرق بين إبراهيم بن المهديّ وإسحاق الموصليّ[٥]. ولم يصل إلينا المصنّفان السّابقان. وقد نسخ الأصفهانيّ عدداً من الأخبار الّتي ذكرها يوسف بن إبراهيم في الكتاب الأوّل[٦].

هـ- وفاته :

لوُحظ اختلاف طفيف بين المصادر التاريخية في تحديد وفاة إبراهيم بن المهدي، فعدد محدود منها يذكر أنّها كانت في سنة ثلاث وعشرين ومائتين للهجرة[٧]، إلاّ أنّ أغلبيّة المصادر

---

* هبة الله بن إبراهيم بن المهديّ: أبو قاسم عالم بالغناء، شاعر، من أمراء آل العبّاس، كان أسود اللون، جالس الخلفاء، توفّي سنة ٢٧٥هـ. (المرزباني، معجم الشعراء، ص٣٩٢).

(١) ابن حجر العسقلانيّ، لسان الميزان، ج١، ص٩٩.

* مخارق: هو أبو المهنّأ بن يحيى الجزار، إمام عصره في فنّ الغناء، كان لحاناً، كان الرشيد يُعجب به حتّى أقعده مرّة على السرير معه وأعطاه ثلاثين ألف درهم، اتصل بعده بالمأمون، وزار معه دمشق. كان مملوكاً لعاتكة بنت شهدة بالكوفة وهي التي علّمته الغناء والضرب على العود وباعته فصار إلى الرشيد، وذكره له إبراهيم الموصلي، فسمعه وأعتقه وأغناه وكّناه بأبي المهنّأ. (الأصفهاني، الأغاني، ١٩٥/٥).

* يوسف بن إبراهيم التيمي: راو من رواة الحديث، روى عن أنس بن مالك عن النبيﷺ قال: "أحبّ أهلي إليّ الحسن والحسين". (البخاري، التاريخ الكبير، ٣٧٧/٨).

(٢) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، ت: إحسان عبّاس، ج٢، دار الغرب الإسلاميّ، ط١، ص٥٥٨.

(٣) ابن النّديم، الفهرست، ص١٤٧.

(٤) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٢، ص٢٩.

(٥) المسعوديّ، مروج الذّهب ومعادن الجوهر، ت: محمّد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ج٤، ص٣١.

(٦) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٩، ص١٦٨.

(٧) ابن ماكولا، الإكمال، ج١، ص٥١٨. السمعاني، الأنساب، ج٣، ص٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تجمع على أنّ الوفاة كانت سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة، وأنّه تُوُفّي في شهر رمضان بمدينة سُرَّ مَنْ رَأى، وصلّى عليه المعتصم بالله أمير المؤمنين(١).

وأغفلت المصادر التّاريخيّة المتعدّدة ظروف وفاة إبراهيم بن المهديّ وأسبابها، سوى مصدر واحد، فقد ذكر أنّه تُوُفّي لِعلّةٍ أصابته، وقد اشتدت عليه، فجعل يشرب الماء فلا يروى، ووجه إلى المعتصم يطلب ثلجاً، فأمر المعتصم أن يصرف له الثّلج ليشفى من سقمه(٢).

ثانيًا- إبراهيم بن المهديّ سياسيًّا:

كان لحياة القصر الّتي عاشها إبراهيم بن المهديّ طموحات سياسيّة في وجدانه، فهو ابن الخليفة، وأخو الخليفة، وهذا يعني أنّ الخلافة ستؤول إليه في يوم من الأيام، أو سيؤول إليه منصب سياسيّ ما في إحدى ولايات الدّولة. وقد أملى عليه هذا حياة سياسيّة شكّلت محطّة بارزة في سيرة حياته. لأنه كان أصغر إخوانه، ممّا جعل علاقاته السّياسيّة معهم تتأثّر حسب هذا التّدرّج العمريّ، فهو بمقاييس الإرث الخلافيّ آخر من يستحقّ الخلافة بعد أبيه. وكأنّ هارون أراد أن يبقي الخلافة في بيته، فأوصى بها من بعده لابنيه الأمين والمأمون، وهما ما يزالان في سنّ صغير* . ولعلّ هذا أوغر صدر إبراهيم على أخيه هارون، وجعل علاقته معه تتّسم بطابع الحذر وقلّة الثقة، كما جعل علاقة إبراهيم مع أبناء أخيه الأمين والمأمون ملتفّة بطابع الحسد وعدم الوفاء، وهذا ما بدا لإبراهيم أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون، وأثناء ثورة بني العبّاس على المأمون عندما عهد بولاية العهد لعليّ بن موسى* كما سنرى لاحقاً.

---

(١) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص١٨. ابن ماكولا، الإكمال، ج١، ص٥١٨. السّمعانيّ، الأنساب، ج٣، ص٩٧. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٤٨. ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١١، ص٩٠. الذّهبيّ، العبر، ج١، ص٣٠٦. الذّهبيّ، سير أعلام النّبلاء، ج١٠، ص٥٦١. الصّفديّ، الوافي بالوفيات، ج٦، ص١١١. ابن كثير، البداية والنّهاية، ج١٠، ص٢٩١. ابن تغريّ برديّ، النّجوم الزّاهرة، ج٢، ص٢٩٣. ابن العمّاد الحنبليّ، شذرات الذّهب، مج٣. ص١٨٠.

(٢) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٨-٤٩.

* كان عمر الأمين خمس سنين عندما بايعه الرّشيد ولياً للعهد، تاريخ اليعقوبيّ، مج٢، ص٤٠٨.

* علي ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، أبو الحسن، الملقب بالرضى: ثامن الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية، كان أسود اللون، أمه حبشية، زوّجه المأمون ابنته، وضرب اسمه على النقود، مات في حياة المأمون بطوس سنة ٢٠٣هـ. (الطبري، تاريخ الطبري، ٢٥١/١٠).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أظهر إبراهيم ميوله في الخلافة، فكان يلبس ملابس تشبه ملابس الخليفة نفسه[١]. وفي هذا إظهارٌ لتلك الرّغبات الدّفينة في نفسه. ودلّ سلوك إبراهيم مع بعض حاشية هارون الرّشيد على رغبته في اعتلاء سلطة الخلافة، حتّى إنّ إسحاق الموصليّ غضب منه في أحد مجالس الغناء لتخطئته في أحد الأصوات، فكأنّه فطن إلى سوء معاملة إبراهيم له، وإلى ما يدور في نفس إبراهيم من التّفكير في الخلافة مستقبلاً، فتمنّى إسحاق ألاّ تصل الخلافة إليه، وأن يموت قبل أن يشهد ذلك اليوم، يقول إسحاق له: "أنت تظنّ أنّ الخلافة تصير إليك، فلا تزال تهدّدني بذلك وتعاديني كما تعادي سائر أولياء أخيك حسداً له، ولولده على الأمر، وأنت تضعف عنه وعنهم، وتستخفّ بأوليائهم تشفّياً، وأرجو ألاّ يخرجها الله تعالى عن يد الرّشيد وولده، وأن يقتلك دونها، إن صارت إليك والعياذ بالله، فحرام عليّ العيش يومئذ، والموت أطيب من الحياة معك"[٢].

تنبّه الأمين والمأمون ابنا هارون الرّشيد إلى طموحات عمّهما إبراهيم، فتوجّسا منه خيفة. ولا تحدثنا المصادر التّاريخيّة عن مناصب سياسيّة أوكلها الأمين والمأمون إلى عمهما إبراهيم، فقد أبعداه عن مسرح الحياة السياسيّة إبّان خلافتهما، ووكلاه بعض الأمور البعيدة عن الإدارة السّياسيّة، فقد عهد إليه بعض أعمال الحجّ الّتي لا تتعلّق بإدارة أمور الدّولة وسياستها، واقتصر وجوده في القصر على التّرويح عن الخلفاء وتسليتهم ومنادمتهم. وقد تراوحت علاقة إبراهيم بالأمين بين الصّفاء والكدر، فتارةً نرى الأمين يودع إبراهيم السّجن[٣]، وتارةً يجعله من خاصّة جلسائه وخلطائه[٤]. وشهدت علاقة إبراهيم مع المأمون جفاءً شديداً، ومحاولة من إبراهيم ابن المهديّ خلع المأمون وتنصيب نفسه مكانه، وسنعرض هذا الجانب من العلاقة لاحقاً. ولعلّ ما جُبِلَ عليه إبراهيم من حبّ للطّرب والإفراط في الغناء، قد سهّل على الأمين والمأمون اتّقاء طموحات عمّهما وشجّعهما على إبعاده عن المسرح السّياسيّ.

وسنعرض في حديثنا عن حياة إبراهيم السّياسيّة محطّتَيْن بارزتَيْن عبّرتا بحقّ عن طموحات إبراهيم وأمانيه في السلطة. وليس بين هاتين المحطّتين فواصل زمانيّة بعيدة، فإحداهما كانت في عهد أخيه الرّشيد، والثّانية في عهد ابن أخيه المأمون، وهاتان المحطّتان هما:

---

(١) مجهول، التّاج في أخلاق الملوك. وقد نُسِبَ هذا الكتاب إلى الجاحظ، ت: أحمد زكيّ باشا، المطبعة الأميريّة، ١٩١٤م، ص٤٨.

(٢) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، ج٢، ص٥٩٨.

(٣) التّنوخيّ، الفرج بعد الشدّة، ج٢، ص١٥٤-١٥٥.

(٤) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ت: المنجي الكعبي، دار الغرب الإسلاميّ، ط١، ١٩٩٣م، ص٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - تولّيه إمارة دمشق:

مثّلت ولاية إبراهيم بن المهديّ دمشق التّجربة السّياسيّة والإداريّة الأولى له، فقد عهد إليه أخوه هارون الرّشيد بهذه الولاية. وتشير الرّوايات التّاريخيّة إلى أنّ إعطاء إبراهيم ولاية دمشق كان محاولة من هارون لاسترضائه، ذلك أنّ الهاديّ كان قد أوصى بزواج إبراهيم من أمّ محمّد ابنة صالح بن المنصور، وكان لإبراهيم سبع سنين، فلمّا أصبح في سن الزواج أراد أن يتقدّم للزّواج منها، فاستأذن أخاه الرّشيد في ذلك، فأخبره الرّشيد أنّ العباسة أخته قد شهدت عليه أنّه حلف يميناً بطلاقها. وقد كان الرّشيد يرغب في الزّواج منها، فحثّه على طلاقها، فامتنع إبراهيم عن ذلك، فتغيّر عليه هارون في الخاصّة، وأراه جفوة شديدة، ومقاطعة لا قبل لإبراهيم بها، حتّى إنّ المال عزّ عليه، فطلّقها إبراهيم بن المهديّ خلاصاً من القطيعة الّتي واجهه الرّشيد بها. وبعد أن تمّ الطّلاق، انتهت جفوة الرّشيد، وتزوّج تلك المرأة[١].

وقد أغفلت المصادر التّاريجيّة تاريخ تولّي إبراهيم بن المهديّ إمارة دمشق، ولم تشر إليها صراحةً، بيد أنّ النّظر إلى الرّواية الّتي نقلت لنا سبب إعطاء هارون الرّشيد إمرة دمشق لأخيه، تدلّ على أنّ إبراهيم كان يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة، فإذا ما علمنا أنّ ولادة إبراهيم بن المهديّ كانت سنة اثنتين وستّين ومائة، فإنّ تاريخ تولّيه دمشق يكون سنة ثمانين ومائة من الهجرة. وهذا ما أرجّحه.

وتشير الرّوايات التّاريخيّة إلى الأمن والاستقرار والهدوء الّذي ساد دمشق إبّان ولاية إبراهيم بن المهديّ، فطوال ولايته على دمشق لم تُسجّل أحداث قطع للطّرق كما كانت عند مَنْ سبقه من الولاة[٢].

وقد استطاع إبراهيم أن يخلّص سكّان دمشق من كثير من المفسدين في دمشق، فكانوا يقطعون الطريق وينهبون الأموال ويستبيحون الحرمات[٣].

وقد كان يتعذّر على الوُلاة السّابقين نَشْرُ العدل والأمن في دمشق بسبب الخلافات القائمة هناك بين المُضَريّة واليمانيّة. لهذا يُعَدّ ما اتّخذه من طريقة جديدة، أرضى بها المضريّة واليمانيّة من حسن سياسة إبراهيم وقدرته على إدارة الأمور، فقد كان الولاة السّابقون يخضعون إمّا

---

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٢٧-٢٩. ابن حجر العسقلانيّ، لسان الميزان، ج١، ص٩٩.

(٢) الذّهبيّ، سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٥٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ج١٠، ص٥٥٨-٥٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للمضريّة أو لليمانيّة، فيغلّبون إحداهما على الأخرى، وتنشأ المناوشات والخلافات بينهما. أمّا إبراهيم بن المهديّ فقد سلك سبيلاً آخر معهما، ولم يفضل إحداهما على الأخرى حيث جعل العلاقة فيما بينهما علاقة حب وتكامل[١]. وعن كيفيّة إدارة الأمور بينهما، يذكر إبراهيم أنّه حين كانت تُعرض حاجةٌ لبعض الحيّين، فإنّه يسأل قبل أن يقضي لهم: هل لأحدٍ من الحيّ الآخر حاجةٌ شبه حاجة السائل؟ فإذا عرفها قضى الحاجتين في وقت واحد[٢]. ونتيجة للسّياسة السّابقة الّتي انتهجها إبراهيم في إدارة العلاقة بين المضريّة واليمانيّة نراه يفخر بحسن إدارته تلك، ويتباهى أنّه أوّل والٍ يسلم من لقب سيئ تلقّبه به إحدى القبيلتين[٣]. ذلك أنّ الولاة السّابقين يخضعون إمّا لمضر أو ليمن. "فكان إنْ مال إلى المضريّة لقّبته اليمانيّة، وإنْ مال إلى اليمانيّة لقّبته المضريّة"[٤]. أمّا إبراهيم فقد سلم من الميل إلى إحداهما، وعاملهما بوجه واحد، فأمن لقبهما. وبذلك استطاع إبراهيم كسب محبة الحيين، فكان عندهما محموداً خلاف من سبقه من الولاة.

واستمرّ إبراهيم بن المهديّ والياً على دمشق سنتين حتّى عزله هارون الرّشيد. وتذكر المصادر التّاريخيّة أنّ سبب عزله أنّ عامل البريد في الرّقّة نقل إلى هارون الرّشيد أنّ إبراهيم كان يشرب الخمر في إحدى جلسات عمله، ممّا أثار استياء هارون الرّشيد، فنحاه عن ولاية دمشق[٥]. بيد أنّ الرّشيد عاد وكلّف إبراهيم بإمرة دمشق بعد سنتين من عزله عنها، واستمرّ في ولايته أربع سنين[٦]. وإعادة تولية الرّشيد لإبراهيم بن المهديّ على دمشق تدلّ على إعجابه بسياسته. ولعلّ إعادة توليته بعد عزله، تدلّ على تردّي أوضاع دمشق وعودة الفساد والفتن والاضطرابات إليها، وعجز مَنْ جاء بعد إبراهيم من الولاة عن ضبط الأمور. ولم تذكر المصادر التّاريخيّة نهاية الولاية الثّانية لإبراهيم على دمشق، غير أنّ تقدير مُجْرَيات الأحداث يدلّ على أنّها انتهت سنة ثمانٍ وثمانين ومائة، فبين نهاية الولاية الأولى وبداية الولاية الثّانية سنتان، والولاية الثّانية استمرّت أربع سنوات، فإذا كانت الولاية الأولى ابتدأت سنة مائة وثمانين، فهذا يدلّ على أنّ نهاية الولاية الثّانية كانت سنة ثمانٍ وثمانين ومائة.

---

(١) انظر: ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٢٩-١٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٠.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٧٢.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- خلافته للمسلمين:

أوصى هارون الرشيد بولاية العهد لولده الأمين، ومن بعده للمأمون، وقد أخذ عليهما العهود والمواثيق، حتى وصلت به الحال إلى تعليق هذه المواثيق على جدار الكعبة [١]. ولم يلتزم الأمين بالعهد، فأوصى بالخلافة من بعده لابنه موسى، وخلع المأمون من ولاية العهد[٢]، فثار المأمون، وقتل أخاه، واستولى على الخلافة [٣]، وجعل علي بن موسى الكاظم ولي العهد والخليفة من بعده، ونقش اسمه على النقود، وأطلق عليه الرّضي من آل الرسول ﷺ، وأمر بتغيير لباس الجند والقادة من السواد إلى الخضرة، فعظم هذا على بني العبّاس، وثاروا وخرجوا على المأمون[٤].

في خضمّ هذه الظّروف، يظهر إبراهيم بن المهديّ وأخوه منصور، ويتدخّلان لحَسْمِ الأمر، فهما من أحقّ بني العبّاس للخلافة بعد المأمون، فينشط إبراهيم لاستغلال الحدث ليَغْنَمَ الخلافة، وهذا ما حدث بالفعل. فقد رفض بنو العبّاس مبايعة عليّ بن موسى بالعهد، ورفضوا الانصياع إلى أوامر المأمون بتغيير اللّباس من السّواد إلى الخضرة، واجتمعوا إلى بعضهم، وتوجّهوا صَوْب إبراهيم بن المهديّ، وأظهروا له رغبتهم في خلع المأمون، وتنصيبه مكانه، فرضي إبراهيم بذلك، فخلع الناس المأمون، وبايعوا لإبراهيم[٥]، فتسلّم إبراهيم بن المهدي السلطة ودانت له الخلافة.

لقد أجمعت المصادر التّاريخيّة المتعدّدة على أنّ إعطاء المأمون ولاية العهد لعليّ بن موسى، وأمره بتغيير اللّباس من السّواد إلى الخضرة، كان الدّافع الرّئيسيّ الّذي حمل العبّاسيين على خلع المأمون والمناداة بتنصيب إبراهيم بن المهديّ مكانه[٦]. لقد ثارت ثائرة بني العبّاس،

---

(١) نجد نص العهدين اللّذين كتبها هارون الرشيد على ولديه في تاريخ اليعقوبي، مج٢، ص٤١٦-٤١٩.

(٢) بايع الأمين ابنه موسى وهو طفل رضيع، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٣٦. تاريخ الخلفاء، ص٢٩٨.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج٢، ص٤٣٧-٤٣٨. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٠٠.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج٢، ص٤٨٤. الطبري، تاريخ الطبري، مج٥، ص١٣٧. الذهبي، تاريخ الإسلام، ت: عمر بن عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١م، حوادث وفيات (٢٠١-٢١٠)هـ، ص٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٧. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٠٧.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص١٠٠، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٥، ص٤٣٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث وفيات (٢٠١-٢١٠)هـ، ص٦.

(٦) الطّبريّ، تاريخ الطّبريّ، مج٥، ص١٣٨. المسعوديّ، مروج الذهب، ج٤، ص٢٨. الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٢. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣١. ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١٠، ص١٠٥. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٥، ص٤٤١. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، مج١، ص٣٩. الذّهبيّ، العبر، ج١، ص٣٠٦. ابن شاكر الكتبيّ، فوات الوفيات، مج٢، ص٢٣٧. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٣، ص٣٠٤-٣٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكيف تكون المبايعة لرجل من غير بني العبّاس؟ وكيف يكون تغيير لباس الأجداد والآباء من السّواد إلى الخضرة؟ لقد فهم العباّسيون أنّ المبايعة لعليّ من موسى تعني خروج الأمر من يد بني العبّاس إلى بني عليّ، كما تعني حرمانهم من امتيازات شتّى لا يتمتّعون بها، إذا ذهبت عنهم الخلافة. لذلك، عزموا على خلع المأمون وأصرّوا على ذلك، وإن كان للمأمون بيعة في أعناقهم.

وقد اختلفت المصادر التّاريخيّة في تحديد تاريخ مبايعة إبراهيم بن المهديّ، فبعضها يذكر أنّها سنة إحدى ومائتين للهجرة (٢٠١هـ) [١]، وبعضها يذكر أنّها سنة اثنتين ومائتين للهجرة (٢٠٢هـ) [٢]. والذّي نرجّحه في هذا المجال أنّ المبايعة لإبراهيم بن المهديّ تمّت على مرحلتيْن، الأولى كانت للعباّسيين خاصّة. والثّانية كانت لعامّة النّاس. وابتدأت أولاهما في أواخر سنة إحدى ومائتين، وكانت الثّانية في بداية سنة اثنتين ومائتين، وليس وجود التّاريخين مرتبطاً بالمرحلتين السّابقتين، وإنّما يرجع إلى طبيعة الموقف الّذي حدثت فيه، والزّمن الّذي جرت فيه كذلك، كما ترجع إلى الظّروف التّي لفّته. فالعبّاسيون اختلفوا فيما بينهم على بديل المأمون، وعندما وجدوه - وهو إبراهيم - اختلف النّاس عليه أيضاً، غير أنّ العبّاسيين كانوا يريدون الإسراع في حسم الأمر لإنهاء ما بينهم من الخلافات، وعدم إعطاء المأمون فرصة الانقضاض عليهم، وهم دون خليفة، فكان أن أظهروا المبايعة له سنة إحدى ومائتين للهجرة، فبايعه العبّاسيون فوراً. وفي أثناء هذا الوقت، حاولوا إقناع النّاس باختيارهم وطلبوا منهم المبايعة لإبراهيم، فكانت مبايعة النّاس له سنة اثنتين ومائتين للهجرة. ويؤيّد عدد من المصادر ما ذهبنا إليه في تحديد تاريخ المبايعة لإبراهيم بن المهديّ، فابن كثير يذكر أنّ أهل بغداد أظهروا بيعتهم في سنة مائتين وواحد، وأنّ المبايعة في هذه السّنة كانت للعبّاسيين[٣]. ويذكر كل من الصفدي وابن خلّكان صراحةً المرحلتيْن السّابقتين، فيذهبان إلى أنّ العباّسيين في بغداد بايعوا أوّلاً في سنة (٢٠١هـ)، ثم بايعه أهل بغداد

---

(١) ابن خيّاط، تاريخ خليفة بن خيّاط، ت: أكرم ضياء العُمريّ، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٧٧م. ص٤٧٠. الطبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٣٨. الجهشياريّ، كتاب الوزراء والكتّاب، تقديم: حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢٠٣. ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١٠، ص١٠٠. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، مج١، ص٣٩.

(٢) الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، ج٤، ص١٤٣. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٥، ص٤٤١. ابن الجوزي، المنتظم، ج١١، ص٨٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٥٦٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٨. ابن تغريّ برديّ، النجوم الزاهرة، ج١، ص٢٩٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص٢٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سنة (٢٠٢هـ) [١]. وقد تفرّد المسعوديّ بنقل تاريخ مبايعة إبراهيم بن المهديّ قائلاً: "إنّ ذلك في سنة ثلاث ومائتين"[٢]. وقد ذهب الصّوليّ في تحديد تاريخ خلافة إبراهيم مذهباً بعيداً خالف فيه المؤرّخين، فذكر أنّ المبايعة لإبراهيم بن المهديّ كانت بعد مقتل الأمين[٣]. وهذا رأي ترفضه مجريات الأحداث، ذلك أنّ مبايعة بني العبّاس لإبراهيم وخروجهم على المأمون، إنّما كانت لإعطاء المأمون ولاية العهد لعليّ بن موسى، والمأمون قد أعطى العهد لعليّ بن موسى سنة (٢٠١هـ)، بينما كان مقتل الأمين سنة ثمانٍ وتسعين ومائة (١٩٨هـ)، ففي المدّة ما بين مقتل الأمين وإعطاء ولاية العهد لعليّ بن موسى كان العبّاسيون يدينون بالولاء للمأمون، فغضبهم عليه كان بعد سنة احدى ومائتين وليس قبلها.

وقد اتّفقت المصادر على أنّ المبايعة لإبراهيم تمّت ببغداد في داره المنسوبة إليه في ناحية سوق العطش[٤]. ومن المرجّح أنّ عامّة النّاس هم الذّين بايعوه في داره المذكورة سابقاً. بينما بايعه بنو العبّاس في المسجد، وهذا ما تَنُصّ عليه العديد من المصادر، فبعضها يذكر أنّه عقب صلاة الجمعة، صعد إبراهيم المنبر، وبايعه بنو العبّاس والخاصّة من النّاس[٥]. وتولّى أخذ البيعة لإبراهيم بن المهديّ المطّلب بن عبدالله بن مالك*. وقد أوكل العبّاسيون ولاية العهد من بعد إبراهيم لابن أخيه إسحاق بن موسى الهاديّ[٦].

وبعد أن بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهديّ، لقّبوه بلقب اختلفت المصادر التّاريخيّة فيه، فبعض المصادر تذكر أنّه لُقّبَ بالمبارك[٧]. وبعضها الآخر يذكر أنّه لُقّبَ بالمرضيّ[٨]. ونقل

---

(١) انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦، ص١١١. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٥، ص٣٩-٤٠.

(٢) المسعوديّ، مروج الذهب، ج٤، ص٢٨.

(٣) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص١٨.

(٤) الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٣. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣١. ابن الجوزيّ، المنتظم ج١٠، ص١٠٦. الذهبيّ، سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٥٦٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٨.

(٥) الطّبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٤٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٨.

* المطّلب بن عبدالله بن مالك الخزاعي: وال، كان في مكة، ولى إمرة مصر للمأمون سنة ١٩٨هـ، فقدم إليها والثورات قائمة، وأهلها فريقان، فريق من حزب الأمين وآخر من حزب المأمون، فقاسى الشدائد، وعزل بعد مدة من ولايته، وأمر المأمون بالقبض عليه فحُبس مدّة. (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٥٧/٢).

(٦) الطّبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٣٨. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٥، ص٤٣٢.

(٧) الطّبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٤٠، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٥، ص٤٤١. الذّهبيّ، العبر، ج١، ص٣٦٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعضها لقباً لإبراهيم، وهو المبارك المنير[١]. وجمعت عددٌ من المصادر اللّقبين معاً، فقال: لُقِّبَ بالمبارك والمرضيّ[٢].

وقد دانت لإبراهيم بن المهديّ الخلافة وبسط سيطرته على الكوفة، وأرض السّواد، وعسكر بالمدائن، واستخدم عدداً من القادة في نواحي بغداد، فاستعمل على الجانب الشرقيّ العبّاس بن موسى الهاديّ، وعلى الجانب الغربيّ منها إسحاق بن موسى الهادي. وقال إبراهيم عند ذلك:

أَلَمْ تَعْلَمُوا يَا آلَ فِهْرٍ بِأَنَّنِي ... شَرَيْتُ بِنَفْسِي دُونَكُمْ فِي الْمَهَالِكِ[٣]

وقد أيّد كبار قادة الدّولة من غير بني العبّاس إبراهيم بن المهديّ وانتصروا له، وعملوا تحت إمرته، ومن هؤلاء القادة: الفضل بن الرّبيع*، وعيسى بن محمّد بن أبي خالد، وسعيد بن السّاجور، أبو البطّ[٤].

ولم تكن عمليه تولّي إبراهيم الخلافة يسيرة، فقد خاض قوّاده عدداً من الوقعات مع قوّاد المأمون، انتهت إلى رجحان كفّة إبراهيم[٥].

المشكلات التي واجهت بغداد إبّان خلافة إبراهيم:

لئن استطاع إبراهيم بن المهديّ أن يكسب تأييد بني العبّاس، فإنّ أمور الخلافة لم تستقم له على نحو سليم. فأهل بغداد مآ انفكّوا يخرجون من اقتتال داخلي أوجده الخلاف بين الأمين

---

(٨) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، مج٢، ص٤٥٠.

(١) ابن تغريّ برديّ، النجوم الزاهرة، ج١، ص٢٩٣. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث وفيات (٢٠١-٢١٠)هـ، ص٧.

(٢) الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٣. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣١.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، مج٥، ص١٤٠.

* الفضل بن الربيع بن يونس، وزير أديب حازم، ولي الوزارة للرشيد، وكان من كبار خصوم البرامكة، وهو من أحفاد أبي فروة (كيسان) مولى عثمان بن عفان. تُوفّى سنة ٢٠٨هـ. (ابن خلدون، تاريخه، ٤١٢/١).

(٤) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، مج٢، ص٤٥١.

(٥) انظر: الطّبريّ، تاريخ الطبري، مج٥، ص١٤١-١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمأمون، فالأمن مسلوب في تلك الأيام، وأوضاع الناس الاقتصاديّة متضعضعة [١]. فأمام إبراهيم بن المهديّ إذن مشكلات مستعصية تتعلق أولاها بتثبيت نفوذه وبقائه على كرسي الخلافة، فالمأمون لن يغفر له وللعبّاسيين ما فعلوا. وثانيتها تتعلّق بالوضع الاقتصاديّ المتدهور في خلافته. وثالثتها تتعلّق بضمان استمرار تأييد القادة الّذين أوصلوه إلى سدّة الحكم أمام انهيار اقتصاده. وسنعرض صوراً من المشكلات السابقة، هي:

أ) المشكلات السّياسيّة:

كان مبعث هذه المشكلات تولّي إبراهيم بن المهديّ السّلطة، فقد أحاطت به منذ الأيّام الأولى لتولّيه الخلافة، واستمرّت هذه المشكلات حتّى انتهاء حكمه. وقد تعدّدت مصادر هذه المشكلات، فمنها ما كان لاستعادة السّلطة منه وردّها إلى المأمون، ومنها ما ظهر في صورة ثورات وخروجٍ على إبراهيم، ومحاولة أخذ السّلطة منه. فمن النّوع الأوّل كان على إبراهيم أن يواجه الحسن بن سهل* والي المأمون على العراق، فما أن بايع العبّاسيون إبراهيم بن المهديّ حتّى توجّه الحسن بن سهل بجيشه لمواجهة إبراهيم بن المهديّ. وقد كانت مثل هذه المواجهة في حسبان إبراهيم، فتمكن من هزيمته[٢]. وكان الحسن بن سهل قد تقدّم نحو إبراهيم محاولةً منه لاستعادة الخلافة، وردّها إلى المأمون، غير أنّه فشل في هذا المسعى. ولم تكن هزيمة الحسن بن سهل نهاية طموحه في ردّ الخلافة إلى المأمون، فقد بقي يتربّص إبراهيم بن المهديّ. ويرسل له الجيش تِلْوَ الآخر، ومن عنده انطلق الجيش الّذي أنهى حكم إبراهيم كما سنرى لاحقاً.

وجرت حروب كثيرة بين أصحاب إبراهيم وأصحاب المأمون، واقتتلوا اقتتالاً شديداً، وعلى أصحاب إبراهيم السّواد، وعلى أصحاب المأمون الخضرة[٣]. وقد تمكّن قادة إبراهيم بن المهديّ من حَسْم الاقتتال والسّيطرة على الكوفة وما جاورها[٤]. بيد أن بعثات الحسن بن سهل العسكرية

---

(١) ابن وادران، تاريخ العباسيين، ص٢٩٦.

* الحسن بن سهل: هو الوزير الكامل، حمو المأمون، وأخو الوزير ذي الرئاستين الفضل بن سهل، أسلم زمن البرامكة، وقد وضعه المأمون وزيراً له، زوّج المأمون بابنته بوران سنة ٢١٠هـ، وكان سهل يدعى بالأمير، تُوفّي سنة ٢٣٦هـ. (سير أعلام النبلاء، ١١/١٧١-١٧٢).

(٢) الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٢. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣١. الذهبيّ، سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٥٥٩. الذهبيّ، العبر، ج١، ص٣٠٦. ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، مج٢، ص٢٣٧. ابن العمّاد الحنبليّ، شذرات الذهب، مج٦، ص١٠٨-١٠٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهايه، ج١٠، ص٢٤٩.

(٤) الطّبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضدّ إبراهيم استمرّت حتى قُبَيْل نهاية حكم إبراهيم، ولم تُفصّل المصادر التّاريخيّة المتعدّدة في المواجهات التّي حدثت بين أصحاب إبراهيم وأصحاب المأمون. ولعلّ كثرة هذه المواجهات وتناوبها كانت الدّافع إلى ذلك.

أمّا النّوع الثّاني من المشكلات السّياسيّة التّي واجهت إبراهيم، فقد تمثّلت بثورات شخصيّة حاول قوّادها الاستيلاء على السّلطة من إبراهيم بن المهديّ، ليس لردّها للمأمون، بل لمغانم شخصيّة. وقد تعدّدت هذه الثّورات، واختلفت أماكنها، كما اختلفت سبلها، فبعضها اتّخذ جانب المواجهة العسكرية، وبعضها الآخر اتّخذ طابع المواجهة الدّينيّة متّخذاً من مبادئ الإسلام سبيلاً للوصول إلى هدفه. ومن ثورات القسم الأوّل التّي اتّخذت الطّابع العسكريّ، نذكر ثورة أبي السّرايا* بالكوفة، ففي سنة اثنتين ومائتين وثب أخو أبي السّرايا بالكوفة، ورفع الأعلام البيضاء، واجتمعت إليه جماعة من النّاس. ولقي أحد قادة إبراهيم وهو غسّان بن أبي الفرج* جيش أبي السّرايا، وتمكّن من قتله، وبعث برأسه إلى إبراهيم بن المهديّ[1]. وفي العام نفسه، خرج على إبراهيم خارجيّ يُقال له: مهديّ بن علوان الحروري*، فوجّه إليه إبراهيم جيشاً يقوده أبو إسحاق المعتصم بن الرّشيد في جماعة من الأمراء، فهزمه أبو إسحاق، وردّ كيده[2].

ومن الثّورات التّي واجهت إبراهيم، واتّخذت طابعاً دينياً ثورة سهل بن سلامة، فقد اتّخذ الدّعوة إلى مبادئ الإسلام سبيلاً يواجه به إبراهيم بن المهديّ، ويحاول من خلاله أن يجمع حوله أهل بغداد، فقد كان سهل بن سلامة مقيماً ببغداد، ويدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ، ويأمر بالمعروف، وينْهى عن المُنْكِر حتّى اجتمع إليه عامّة أهل بغداد، والتفّوا حوله. وقد جاوز سهل بن سلامة شِعاراته التّي كان يرفعها حتّى إنّه خرج على الخليفة، وأنكر عليه أفعاله[3]. ولم

---

* أبو السرايا: هو السّري بن منصور الشّيباني، ثائر، قاطع طريق، تولى قيادة الجند لابن طباطبا العلوي (محمد بن إبراهيم) الّذي كان قد خرج على بني العبّاس، واستولى على الكوفة، وعمل على ضبط بغداد إلى أن قتله المأمون سنة ٢٠٠هـ. (ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٤/١٠).

* غسان بن أبي الفرج: هو من رجال المأمون، تولى إمارة خراسان زمن الحسن بن سهل، ثم السّند، تُوفّى في بغداد سنة ٢١٦هـ، (ابن طيفور، كتاب بغداد، ص٣٤).

(١) الطبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٤٢. ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١٠، ص١٠٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٣٨.

* مهدي بن علوان الحروري: لم نعثر على تعريف له.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٥، ص٤٤١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٨.

(٣) الطّبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٤٣. ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١٠، ص١٠٧-١٠٨. ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٢٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحتمل إبراهيم بن المهدي هذه الدعوة لخروجها عن المقصد الديني، ففضى عليها. ومن الممكن أن ننظر إلى ثورة ابن سلامة على أنّها امتداد لثورة الرُّوَيْبَضَة. والرُّوَيْبضة هم جماعة من صلاّح بغداد، تُجّاراً وفقهاء وأصحاب مهن وحرف، نقموا بسبب الأحوال التّي آل إليها مجتمع بغداد، فحاولوا التّصدّي للفُسّاق واللّصوص، والعيارين.

وأياً كان الأمر، فقد نظر إبراهيم بن المهديّ إلى الثّورات سواءٌ أ كانت عسكريّة أم دينيّة على أنّها محاولة من أصحابها للانقضاض عليه، وانتزاع السّلطة من يدَيْه. ولعلّ هذا يفسّر مواجهته لها بشدّة.

لقد كانت الثّورات التّي واجهت إبراهيم بن المهديّ أمراً متوقّعاً بالنّظر إلى الظّروف الّتي قامت فيها خلافته، فلئن بسط إبراهيم نفوذه السّياسيّ والعسكريّ على بغداد، فإنّ هذا النّفوذ قد كان ضعيفاً في المدن المجاورة لبغداد، مثل الكوفة التّي خرجت منها ثورة أبي السّرايا، وثورة مهديّ بن عُلوان. لقد كانت هيبة الخلافة ما تزال منتزعةً من صدور أهل الأماكن البعيدة عن بغداد، وهذا ما ساعد على اندلاع تلك الثّورات. وتدلّ سرعة قضاء إبراهيم بن المهديّ على هذه الثّورات على صغر حجمها، وعدم اتّساعها وعدم وجود أعدادٍ كبيرة من المؤيّدين لها، فالقضاء عليها استغرق أيّامًا معدودة.

وقد واجهت إبراهيم بن المهديّ اعتراضات فردية على تولّيه الخلافة، وقام بهذه الاعتراضات عدد من الشّعراء، منهم: الشّاعر دِعْبِل الخُزاعيّ* الذّي هجا إبراهيم بأبيات يُنْكِرُ عليه فيها تولّيه الخلافة، يقول فيها:

نَفَرَ ابْنُ شَكْلَةَ بالْعِراقِ وَأَهْلِهِ ... فَهَفَا إِلَيْهِ كُلُّ أَطْلَسَ مائِقِ
إِنْ كانَ إبراهيمُ مُضْطَلِعاً بها ... فَلْتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدِهِ لِمُخارِقِ
ولَتَصْلُحَنَّ مِنْ بَعْدِ ذاك لزُلْزُل ... ولتصلُحَنْ مِنْ بَعْدِهِ لِلْمارِقِ
أَنّى يكونُ وليسَ ذاك بكائِنٍ ... يرِثُ الخِلافَةَ فاسِقٌ عَنْ فاسِقِ[1]

---

* دعبل الخزاعي: هو دعبل بن علي بن رزين، شعره جيّد، صنف كتاباً في "طبقات الشعراء"، هجا الخلفاء، كان بذيء اللسان مولعاً بالهجو، توفّى سنة ٢٤٦هـ. (ابن طيفور، كتاب بغداد، ١٨٢/٨).

(١) دعبل الخزاعي: ديوانه، ت: محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م، ص١٨٢. نفر: فرّق، ٢٢٤/٥. (نفر). هفا: هفا إليه أسرع ووقف إليه، ٣١٢/١٥ (هفا). مائق: هو حاقد، ٣٣٥/١٠ (مأق). مضطلعاً: محتملاً وقويًا بها، ٢٨٢/٨ (ضلع). زُلْزُل: هو ضارب بالعود كان أشهر مَنْ وقع على هذه الآلات وأوّل مَنْ استحدث بعض الأنغام. (الأصفهاني، الأغاني، ٢٣٨/٦). المارق: هو الخارج من الشيء كالخارج من الدين وغيره، ٣٤١/١٠ (مرق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ هذه الاعتراضات الفرديّة ناتجةٌ عن سوء علاقة بين أصحابها وبين إبراهيم، فالعلاقة بين إبراهيم وبين دِعْبِل مثلا كانت سيئة للغاية، فقد سُئِلَ دِعْبِل مرّة عن بيت شعر في هجاء المأمون: هل هو له أم لا؟ فقال: "لا والله، ولكنّ مَنْ حشا الله قبره ناراً إبراهيم بن المهديّ، أشاط بدمي بسبب هجائي إياّه"[١].

ب) المشكلات الاقتصاديّة:

عصفت المشكلات الاقتصاديّة بخلافة إبراهيم بن المهديّ منذ أن بُويع بالخلافة، فبعد أن فرغ من البيعة، وعد الجند بأعطياتٍ وهباتٍ يمنحهم إياّها لقاء مبايعتهم له. ولمّا حان وقت وفاء الوعد، لم يتمكّن إبراهيم من ذلك، فماطل الجند، ثمّ أعطاهم مائتي درهم لكلّ واحد منهم، وكتب لهم بتعويضٍ من أرض السّواد، فشَغِبوا عليه وخرجوا لا يمرّون بشيء إلاّ انتهبوه وأخذوا حاصل الفَلاّح والسُّلْطان[٢]. وتعكس مماطلة إبراهيم بن المهديّ نضوب خزائنه من المال، ويعكس شغب الجند وخروجهم على أموال العامّة والخاصّة سوء أحوالهم الاقتصاديةّ، كما يعكس انتفاء الهدوء والأمن والاستقرار في بغداد إبان خلافة إبراهيم بن المهديّ. فلسوء الأحوال الاقتصاديّة وتردّيها، ظهرت الفتن وظهر الفُسّاق والمهتالون ببغداد، وتفاقم الحال حتّى ثارت الرُّوَيْبَضَة – كما أشرنا قبل قليل – وكانت ثورتهم لوضع حدٍّ لسوء الأحوال التّي آلتْ إليها بغداد[٣]. وقد استجابت الدّولة للرُّوَيْبَضَة الذّين سمّوا أنفسهم بالمطوّعة، وعدّتهم الدّولة مُعيناً لها لوضع حدٍّ لتدهور الأوضاع في بغداد.

ولكي يخفّف إبراهيم بن المهديّ من الضّائقة الاقتصاديّة التّي ألمّت به، اُضْطُرَّ إلى الاقتراض من بعض مياسير التُجّار ليتيسّر بها أمور خلافته. ولم يتمكّن إبراهيم من وفاء أصحاب الأموال المقترضة حقوقَهم. ومن الّذين اقترض إبراهيم منهم: عبدالملك الزّيات، فقد أخذ منه عشرة آلافِ درهم[٤]. ولم يسدّد إبراهيمُ ما أخذ، فطالبه أحفاد عبدالملك بعد انتهاء حكمه بسداد ما أخذ وإلاّ فضحوا أمره عند المأمون[٥].

---

(١) ابن الجرآح، الورقة، ص٢٢.

(٢) ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١٠، ص١٠٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٨.

(٣) المسعوديّ، مروج الذهب، ج٤، ص٢٩.

(٤) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٦-٢٧. الأصفهانيّ، الأغاني، ج٢٣، ص٥٣. ابن الأثير الحنبليّ، جوهر الكنز، ت: محمّد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، ص٥٦٤.

(٥) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولسوء أحوال إبراهيم الاقتصاديّة كان يحتبس العطاء على الأعراب وغيرهم من النّاس. وقد لجأ إليه أجناد السّواد الذين احتبس عنهم العطاء، فبدأ إبراهيم يسوّفهم بالمال. ولا يرون لذلك حقيقةً إلى أن اجتمعوا يوماً وضَجُّوا، فخرج إليهم رسول إبراهيم، فصرّح لهم أن لا مال عندهم[١]. وقد سخر الأجناد من خليفتهم، وطلبوا منه الغناء بدلاً من المال، وفي هذا حَطٌّ من قيمة الخليفة ومنزلته. فقد قالوا: "أَخْرِجُوا إلينا خليفتنا، ليغني لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات، فتكون عطاءً لهم"[٢]. وقال دِعْبِل الخزاعيّ يسخر من إبراهيم مهدّئاً روع الأجناد:

يـــاَ مَعْشَـــرَ الْأَجْنَـــادِ لاَ تَقْنَطُـــوا ... وَارْضَـــوْا بِمَـــا كَـــانَ وَلاَ تَسْـــخَطُوا
فَسَـــوْفَ تُعْـــطَوْنَ حُنَيْنِيـــَّةً ... يَلْتَذُّهـــَا الأَمْـــرَدُ وَالأَشْـــمَطُ
وَالْمَعْبَدِيـــَّاتُ لِقُـــوَّادِكُـــمْ ... لا تَدْخُـــلُ الْكِيـــسَ وَلاَ تَرْبَـــطُ
وَهَكَـــذَا يَـــرْزُقُ قُـــوَّادَهُ ... خَلِيـــفَةٌ مُصْحَفُـــهُ الْبَرْبَـــطُ[٣]

ولعلَّ الضّائقة الماليّة التّي وقع بها إبراهيم بن المهديّ ترجع إلى توقّف وجوه النّشاط الاقتصاديّ إبّان خلافته. فقد كان عهده عهد فتن وثورات واقتتال وشغب. لم تهدأ فيه الدّولة لتتّجه صوب الاقتصاد وإنعاشه وتنمية مصادره. بل كان هاجس الدّولة التّفكير في كيفية بقاء الخلافة مع الخليفة، وهذا يستلزم من الدّولة التّركيز على الجانب العسكريّ دون سواه من الجوانب الأخرى. كما أنّ إرساليات الولايات الأخرى لإبراهيم كانت معدومة. فبعض تلك الولايات لم يوافه بأيّ من الأرزاق والإيرادات.

نهاية حكم إبراهيم بن المهديّ:

لم يتمكّن إبراهيم بن المهديّ من مواجهة المشكلات السّابقة التّي اعترضت خلافته، فلئن تمكّن من دحر الحسن بن سهل وجيشه، فإنّ الحسن بقي مرابطاً له. ولئن حاول إنعاش اقتصاده باقتراض الأموال من الموسرين، فإنّ اقتصاده بقي ضعيفاً لا يَقْوَى على دعم الجند وتأمين احتياجاتهم. لقد كان قادة إبراهيم بن المهديّ يشعرون باستحالة استمرار خلافته، وهم الّذين أيّدوه

---

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣١-١٣٢.

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٢٠، ص١٦٤.

(٣) دعبل الخزاعي، ديوانه، ص٩٧. الحنينيّة: الأغاني المنسوبة إلى المغني حنين بن إسحاق. المعبديات: الأغاني المنسوبة إلى المغني معبد. الأمرد: الشّاب طرّ شاربه ولم ينبت لحيته. الأشمط: الذي خالط بياض رأسه سواد. البربط: الآلة الموسيقية تشبه العود.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالأمس. ولعلَّ هذا الشّعور جاءٍ من اطّلاعهم الحقيقيّ على بواطن الأمور. وهذا ما دفعهم إلى التنصّل من إبراهيم، وبداية التّفكير في التّخلّص منه، والتّودّد إلى قادة المأمون، فهوالخليفة الغالب كما أصبح يتأكّد لهم، وهذا ما حدث بالفعل. فقد بدأ كبار قادته وجنده يتخلوّن عنه أمثال المطّلب ابن عبدالله بن مالك - وهو الّذي كان بالأمس يتولّى البيعة لإبراهيم وأخذها عنه، وعيسى بن محمد بن أبي خالد، فكانا يكاتبان حميداً الطوسيّ* - أحد قادة المأمون- ويتّفقان معه على تسليم إبراهيم بن المهدي[١]. فاستجاب لهم حميد الطّوسيّ وقدم عليهم، وخرج إليه المطّلب وقوّاد أهل بغداد، فلقوه، وكانوا قد شرطوا عليه أن يعطي كلّ جنديّ خمسين درهماً، فأجابهم إلى ذلك، ووعدهم بالعطاء على أن يدعوا للمأمون بالخلافة، ويخلعوا إبراهيم بن المهديّ، فوافقوه على ذلك، فلمّا كان يوم الجمعة، بعث المطّلب بن عبدالله إلى محمّد بن أبي رجاء الفقيه، فصلّى بالنّاس الجمعة، ودعا للمأمون، فحضر حميد الطّوسي في اليوم التّالي إلى الياسرية، فقابل جند بغداد، وأعطاهم ما وعدهم من النّقود، وضمن تأييدهم له[٢].

وقد وصلت أنباء قدوم جيش حميد الطّوسي إلى إبراهيم بن المهديّ، وقوّاد إبراهيم إذ ذاك تخلّوا عنه. ولم يكن أمامه سوى المواجهة، فأخرج جميع من عنده من الجند حتّى يقاتلوا جيش حميد الطوسي، فالتقوّا على جسر نهر ديالى، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزمهم حميد الطّوسيّ، وعادوا إلى قائدهم مدحورين[٣].

لم يعد أمام إبراهيم سوى الاستسلام، فقوّادُه خذلوه، وبعد هزيمتهم اختفى الفضل بن الربيع - أحد القادة المقرّبين إليه - ثمّ تحوّل قائده عليّ بن ريطة إلى جانب حميد الطوسي أيضاً، وبدأ الهاشميون والقوّاد يلحقون بحميد واحداً تلو الآخر[٤]. لقد أيقن قادة إبراهيم أنّ الأمر قد أفلت من

---

* حميد الطوسيّ: من كبار قادة المأمون، كان جباراً، فيه قوة وبطش، وكان المأمون يندبه للمهمات، توفي سنة ٢١٠هـ. (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢|١٩٠).

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٥، ص٤٤٨-٤٤٩. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث وفيات سنة (٢٠١-٢١٠)، ص١٤.

(٢) الطبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٤٧. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٥، ص٤٤٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص٢٤٩-٢٥٠.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، مج٥، ص١٤٨. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣١. الذهبيّ، العبر، ج١، ص٣٠٦. الصفديّ، الوافي بالوفيات، ج٦، ص١١١. ابن شاكر الكتبيّ، فوات الوفيات، مج٢، ص٢٣٧. ابن العمّاد الحنبليّ، شذرات الذهب، مج٦، ص١٠٨-١٠٩.

(٤) الطّبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٤٨. علي بن ريطة: هو علي بن المهدي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يديه، وأنّ الخلافة قد ولّت عنه. فكأنّ هؤلاء القادة أرادوا تسجيل مواقف لهم عند المأمون، فشرعوا بتقديم ما يثبت أنّهم موالون له.

لقد علم إبراهيم بما بيّته له قادته من الغدر والخِداع، فبدأ يداريهم ويشعرهم بعدم معرفته لِماَ بيّتوه له[١]. فلمّا كان عيد الأضحى، خرج إبراهيم في زي الخلافة إلى المصلّى، فصلّى بالنّاس صلاة الأضحى، ثمّ انصرف من الصّلاة، وذهب إلى قصره بالرُّصافة، وأطعم النّاس على عادة خلفاء بني العبّاس، ومضى إلى داره. فلمّا كان اللّيل انتهز إبراهيم ظلمته، فاستتر وفرّ من قادته وتوارى عن الأنظار، وبذلك انقضى أمره[٢].

وقد رافقه أحد كتاب إبراهيم بن المهديّ في هروبه وامرأة من أهله. وعندما استمرّوا في الطّريق، طلب إبراهيم من رفيقه أن يرجع إلى أمّه -أم إبراهيم-، ويطلب منها أن تعطيه ما عندها من جواهر وأموال. ولمّا رجع هذا الصديق، كان إبراهيم قد اختفى، ولم يرافقه[٣].

وقد اتّفقت المصادر التّاريخيّة على سنة ثلاث ومائتين للهجرة تاريخاً لاختفاء إبراهيم بن المهديّ وتواريه عن الأنظار[٤]. والظّاهرُ من الخبر الذّي يذكر أنّ إبراهيم صلّى بالنّاس صلاة الأضحى أنّ اختفاءه كان في النّصف الأوّل من ذي الحجّة، وإذا أردنا أن نحدّد تاريخ الاختفاء بصورة أدقّ استناداً إلى الخبر السّابق، فإنّ الاختفاء كان في ليلة الحادي عشر من ذي الحجّة. ويخالف هذا التّحديد بعض الرّوايات التّي تذكر أنّ الاختفاء كان ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجّة[٥]. ويذكر ابن كثير أنّ بدء اختفاء إبراهيم بن المهديّ كان في أواخر ذي الحجّة وليس في نصفه الأوّل[٦].

ممّا سبق يظهر أنّ مدّة ولاية إبراهيم بن المهديّ منذ بُويِعَ له بالخلافة إلى يوم اختفائه سنة واحد عشر شهراً، وهذا باتّفاق أغلب المصادر[٧].

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٣، ص٣٠٦.

(٢) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٤، ص١٣٢. ابن الأثير، الكامل في تاريخ، مج٥، ص٤٥٠.

(٣) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، مج٢، ص٥٤٧ - ٥٤٨.

(٤) الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٥، ص٤٥٠. الذّهبيّ، العبر، ج١، ص٣٠٦. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٣، ص٣٠٥. السيوطيّ، تاريخ الخلفاء، ص٣٠٧.

(٥) ابن خلّكان، وفيات الأعيان، مج١، ص٣٩.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٩٠.

(٧) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٢٩٧. الطّبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٤٨. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٥، ص٤٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تذكر المصادر التاريخيّة أخباراً لإبراهيم بن المهديّ وقت اختفائه سوى بعض الأخبار التّي يرويها إبراهيم نفسه. فقد ذكر أنّه اختفى بعض الوقت عند مزيُن أكرمه غاية الإكرام[١]. والظّاهر أنّ إبراهيم بن المهديّ لم يخرج من بغداد وقت اختفائه، فابن الجوزيّ يذكر أنّه كان يختفي عند أخته عُلَيَّة دون علم المأمون، وأنّ عُلَيَّة كانت تُكْرِمُهُ غاية الإكرام، فقد وكّلت به جارية هيّأتها له لتتولّى خدمتهُ، وقد قال إبراهيم في هذه الجارية شعراً عبّر فيه عن امتنانه لها:

يـــا غَـــزالاً لـــي إلَيْـــه ... شـــافِعٌ مِـــنْ مُقْلَتَيْـــهِ
وَالَّـــذِي أَجَّلْـــتُ خَـــدَّ ... يْـــهِ فَقَبَّلْـــتُ يَدَيْـــهِ[٢]

كما تذكر المصادر شعراً له قاله في أثناء اختفائه، منها:

وَلِلّـــهِ نَفْسِـــي إنَّ فِـــيَّ لَعِـــبْرَةً ... وَفِـي الدَّهْـرِ نَقْـضٌ لِلْعُـرَى بَعْـدَ إبْـرامِ
غَـدَوْتُ عَلَـى الدُّنْيـا مَلِيكـاً مُسَـلَّطاً ... وَرُحْـتُ وَمـا أَحْـوِي بِهـا قَيْـسَ إبْهـامِ
وَهَـلْ لَيْلَـةٌ فِـي الدَّهْـرِ إلاَّ أَرَى بِـها ... قَـدْ اثْبَـتَ أقدامـاً وَزَلَّ بِأقْـدامِ[٣]

وقد اختلفت المصادر التّاريخيّة في تحديد مدّة اختفاء إبراهيم، فابن كثير وابن الجوزيّ وابن عساكر يذكرون أنّها كانت ستّ سنوات وأربعة أشهر[٤]. وذكر ابن العمّاد الحنبليّ والذّهبيّ أنّ إبراهيم بن المهديّ بقي مختفياً سبع سنين[٥]. وهو اختلاف كما نلاحظ ليس بذي فرقٍ كبير، غير أنّ السّيوطيّ يختلف مع مَنْ سبقه، ويجعل الفرق بينه وبين من سبقه سنةً كاملةً، فيذكر أنّ إبراهيم بقي مُختفياً ثماني سنوات[٦].

ظهور إبراهيم بن المهديّ:

أهدر المأمون دم عمّه إبراهيم بن المهديّ، ووعد مَنْ يظفر به بالمكافآت المجزية. وإن كانت المصادر التّاريخية قد اختلفت في تحديد سنوات اختفاء إبراهيم، فإنّها اختلفت في الحديث عن كيفية ظهوره مجدّداً على السّاحة السياسية بعد أن دانت للمأمون الأمور. فمنها ما يجعل

---

(١) الصّفديّ، الوافي بالوفيات، ج٦، ص١١٣.

(٢) ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١١، ص٩٨-٩٠.

(٣) التنوخي، الفرج بعد الشدّة، ج٥، ص٨٢.

(٤) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣٢. ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١١، ص٨٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٩٠.

(٥) الذّهبيّ، العبر، ج١، ص٣٠٦. ابن العمّاد الحنبليّ، شذرات الذّهب، مج٦، ص١٠٩.

(٦) السّيوطيّ، تاريخ الخلفاء، ص٣٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إبراهيم مُعْلِناً توبته، طالباً العفو والصّفح من المأمون، فابن طيفور يذكر أنّه لمّا طال اختفاء إبراهيم بن المهديّ، خاف أن يَظْهَرَ عليه المأمون، فكتب إليه طالباً العفو والصّفح، قائلاً له: "وليّ الثّأر مُحَكَّمٌ في القِصاص، والعفو أقرب للتّقوى، ومن تناوله الاغترار بما مدّ له من أسباب الرّجاء أمكن عادية الدّهر على نفسه، وقد جعلك اللّه فوق كلّ ذي ذنب، كما جعل كلّ ذي ذنب دونك، فإنْ أخذت فبحقّك، وإنْ عفوت فبفضلك"، فردّ عليه المأمون مُبْدِياً استعداده للعفو عنه قائلاً له: "القدرة تُذْهِبُ الحفيظة، والنّدم توبة، وبينهما عفو الله، وهو أكثر ما نسألهُ"[١]. ويؤيّد ابن الجوزيّ وابن عساكر رواية ينقلها ابن طيفور. وتذكر هذه الرّواية نصّ الكتاب الذّي أرسله إبراهيم مع اختلاف يسير في بعض الكلمات، كما تذكر أنّ المأمون ردّ على إبراهيم مبدياً رغبته في العفو[٢]. ومن المصادر ما يجعل إبراهيم مختفياً ثم يظفر به عمّال المأمون، ويأتونه به، فاليعقوبي يذكر أنّ المأمون ظفر بإبراهيم ليلاً، وحبسه عند أحمد بن أبي خالد*، ويذكر اليعقوبيّ نصّ الكتاب الذّي ذكره ابن طيفور، لكنّ اليعقوبيّ يذكر أنّ إبراهيم كتبه من حَبْسِه، وليس من خارج الحبس[٣]. ويوافق الطّبريّ اليعقوبيّ في جعل إبراهيم مختفياً، وإلقاء القبض عليه من جنود المأمون، دون أن يشير إلى أنّ إبراهيم قد كتب كتاباً إلى المأمون[٤]. ويذكر ابن قتيبة والمسعوديّ والأصفهانيّ والتّنوخيّ والذّهبيّ أنّ المأمون قد ظَفِرَ بإبراهيم بن المهديّ[٥]، مما يدلّ على تبنّيهم الرّأي القائل بأنّ إبراهيم قُبِضَ عليه، ولم يسلّم نفسه.

أمام اختلاف المؤرّخين في كيفيّة ظهور إبراهيم بن المهديّ، نجد أنّه من الصّعب تَبَنّي رأي أحد الفريقين وترك الآخر، ذلك أنّ للفريقين ما يثبت صحّة ما ذهبا إليه. فالمؤرّخون الّذين يذهبون إلى أنّ إبراهيم بن المهديّ سلّم نفسه، قد نجد لهم مسوّغاً فيما ذهبوا إليه. ويتمثّل هذا المسوّغ في مناداة المأمون بين النّاس سنة ثمانٍ ومائتين أنّه قد عفا عن عمّه إبراهيم، وهو لمّا يظهر بعد[٦]. فلعلّ مناداة المأمون هذه شجّعت إبراهيم بن المهديّ، ودفعته إلى الكتابة إلى يوبّخ

---

(١) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١٠١.

(٢) ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١٠، ص٢١٣. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣٣.

* أحمد بن أبي خالد الأحول الكاتب: أبو العباس، كان وزيراً للمأمون بعد الفضل بن سهل، كان جواداً، وكان أبوه كاتباً لوزير المهديّ، مات سنة ٢١٠هـ، (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٥٥/١٠-٢٥٦).

(٣) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، مج٢، ص٤٥٨.

(٤) الطّبريّ، تاريخ الطّبريّ، مج٥، ص١٦٨.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص٣٩٠. المسعوديّ، مروج الذهب، ج٤، ص٣١. الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٤٤. التّنوخيّ، الفرج بعد الشّدّة، ج٣، ص٣٣٩. الذّهبيّ، سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٥٦٠.

(٦) الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إبراهيم بن المهديّ على رؤوس النّاس[١]. وتصوّر بعض الرّوايات المأمون، وقد قابل إبراهيم بلهجة شديدة ساخرة، فقال له حين رآه: "أنت الخليفة الأسود؟" [٢]. واتّفقت الرّوايات على أن إبراهيم في لقائه الأوّل مع المأمون ظهر في صورة الإنسان النّادم على ما فعل الطّالب للعفو. وقد كان كلام المأمون مع عمّه قاسياً أوّل الأمر. فلمّا مثل بين يدي المأمون وسلّم عليه، ردّ عليه المأمون قائلاً: "لا سلّم الله عليك، ولا حيّاك، ولا رعاك"[٣].

وقد دار بين المأمون وإبراهيم كلامٌ اختلفت الرّوايات في نقله، فبعضها يذكر أنّ إبراهيم خاطب المأمون طالباً العفو قائلاً له: "إنّ وليّ الثّأر محكّم في القصاص والعفو أقرب للتّقوى، وقد جعلك الله فوق كلّ عفو وكما جعل ذنبي فوق كلّ ذنب، فإنْ تأخذ فبحقّك، وإنْ تعف فبفضلك"[٤]. ويذكر ابن طيفور أنّ إبراهيم بن المهديّ حين دخل على المأمون قال له: "إنْ رأيتَ أن تسمع عذري، وإن كان لا عذر لي، ولكنّ الإقرار حجّة لي في العفو عنّي، وقد جردت الإقرار بالذنب"[٥]. ويذكر ابن طيفور قولاً آخر خاطب به إبراهيم بن المهديّ المأمون عندما دخل عليه بعد الظّفر به، فقال له: "ذنبي أعظم من أن يحيط به عذر، وعفو أمير المؤمنين أجَلّ من أن يتعاظمه ذنب"[٦]. فأجابه المأمون قائلاً: "حَسْبُكَ فإنّا إنْ قتلناك فلله، وإن عفونا عنك فللّه" فأنشد إبراهيم بن المهدي:

إنْ أَكُنْ مُذْنِباً فَحظّيَ أَخْطَأْ ... تُ فَدَعْ عَنْكَ كَثْرَةَ التَّأْنِيبِ

قُلْ كَما قالَ يُوسُفُ لِبَنِي يَعْـ ... ـقُوبَ لَمّا أَتَوهُ لا تَثْرِيبِ[٧]

وقد أورد ابن كثير صورة بدت مغايرة تماماً لغيره من المؤرّخين، فأظهر المأمون مترفقاً مع عمّه، فيقول عن المأمون ساعة لقائه بعمّه إنّه "أنبه ما كان منه فترقّق له"[٨]. ويذكر ابن كثير أن المأمون أجاب إبراهيم بنيّته في العفو عنه. فكبّر إبراهيم، وسجد شكراً للّه[٩].

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٤٤.

(٢) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٤٠٤.

(٣) التّنوخيّ، المستجاد، ص٨١.

(٤) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٢، ص٢٤. التّنوخيّ، المستجاد، ص٨١. الفرج بعد الشدّة، ج٣، ص٣٤٣. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٤، ص١٢٦. ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١٠، ص١١١-١١٢.

(٥) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١٠٢.

(٦) المصدر نفسه، ص١٠٢.

(٧) المصدر نفسه، ص١٠٢. ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١١، ص٢١٣.

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٦٤.

(٩) المصدر نفسه، ج١٠، ص٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والظّاهر من الرّوايات التّاريخيّة المتعدّدة أنّ العفو عن إبراهيم لم يكن في اللّقاء الأوّل حين دخل على المأمون بزيّ النّساء. والظّاهر أنّ المأمون قد سجنه، وأنّ العفو قد حدث بعد سجنه. وتؤكّد سجن إبراهيم روايتان يروي إحداهما إبراهيم بن المهديّ نفسه، فيذكر أنّ سجنه كان عند أحمد بن أبي خالد، ويظهر من هذه الرّواية أنّ إبراهيم بن المهديّ قد فقد الأمل تماماً في عفو المأمون حتّى إنه كتب الوصية وجلس ينتظر الموت، فجاء إليه أحمد بن أبي خالد، وأخبره بعفو أمير المؤمنين عنه، فقال: "أمير المؤمنين يقرؤك السّلام، ويقول لك: "أنا أَحْمَدُ اللـه جَلَّت عظَمَتُهُ الذّي وفّقني لصلة رحمك، والصّفح عنك، وقد أمّنك، وردّ عليك نعمتك، وجميع ضياعك وأملاكك، فانصرف إلى دارك"[١].

أمّا الرّواية الثّانية التّي تشير إلى سجن إبراهيم بن المهديّ، وأنّ العفو عنه إنما تمّ بعد سجنه، فتروي أنّ المأمون قد حبس إبراهيم عند رجل يثق به، طالباً منه أن يعرف كلّ شئ يقوله إبراهيم ويفعله، فرجع إليه الرجل ذات يوم فقال له: "رأيت إبراهيم اليوم يبكي، وقد وضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يتغنّى:

فَلَـــوْ أَنَّ خـــدّاً مِـنْ وَكـــوفِ مُدامِـــع يُـــرى مَعْشَبـــاً لاخْضَـــرَّ خَـدّي فَأَعْشَبَا[٢]

فاستدعاه المأمون، وأخبره بالعفو عنه.

وقد اختلفت المصادر التّاريخيّة في تحديد مدّة حبسه، وابن عساكر يحدّدها بستة أشهر[٣]. ويذكر ابن الجوزيّ أنّ إبراهيم بن المهديّ مكث في الحبس شهراً واحداً أعقبه عفو المأمون عنه[٤].

والظّاهر أنّ إبراهيم قد عانى كثيراً في سجنه، وهذا يعكس حنق المأمون على إبراهيم وتأثّره بما بدا منه من تطاول ومحاولة استيلاء على السّلطة. ويظهر إبراهيم بن المهديّ في سجنه فاقداً الأمل بعفو المأمون، متمنّياً الموت على الحياة، يقول في رواية يرويها إبراهيم نفسُهُ عن حاله في السّجن: "فأيِست من نفسي، ووطنتها على القتل، وتعزّيت عن الحياة حتّى صرت أتمنّى القتل للرّاحة من العذاب، وما أؤمّله في الآخرة من حصول الثّواب"[٥].

---

(١) التّنوخيّ، الفرج بعد الشّدّة، ج٣، ص٣٤٠-٣٤١.

(٢) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٥.

(٤) ابن الجوزيّ، المنتظم، ج١٠، ص٢١٣.

(٥) التّنوخيّ، الفرج بعد الشّدّة، ج٣، ص٣٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أورد التنوخيّ اللقاء الأوّل بين المأمون وإبراهيم بن المهديّ، وكان حافلاً بالأشعار التّي يعتذر فيها إبراهيم للمأمون، ويطلب عفوه. ومن هذه الرّوايات: رواية يرويها إبراهيم بن المهديّ نفسه، فبعد أن مثل إبراهيم أمام المأمون لمح منه بعض شمائل الرّحمة وأنشده:

ذَنْبي إلَيْكَ عَظيمٌ ... وَأَنْتَ أَعْظَمُ منْهُ
فَخُذْ بِحَقِّكَ أو لا ... فَاصفَحْ بِحِلْمِكَ عَنْهُ
إنْ لَمْ أَكُنْ في فَعَالي ... مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

ثم أنشده أبياتاً أخرى، قال فيها:

أَتَيْتُ ذَنْبًا عَظيمًا ... وأَنْتَ لِلْعَفْوِ أَهْلُ
فَإنْ عَفَوْتَ فَمَنٌّ ... وَإنْ جَزيتَ فَعَدْلُ

ثم خاطبه قائلاً بعد أن أيقن بعفوه عنه:

إنَّ الَّذي خَلَقَ الْمَكَارِمَ حَازَهَا ... فِي صُلْبِ آدَمَ للإمَامِ السَّابع
مُلِئَتْ قلوبُ النّاس مِنْكَ مَهَابَةً ... وتَظُلُّ تَكْلَؤُهم بِقَلْبٍ خَاشع[1]

ومن المستَبْعَدِ قبول هذه الرّوايات وأمثالها، إذ نستطيع أن نتصوّر إبراهيم بن المهديّ ينشد الأبيات السّابقة جملة واحدة أمام المأمون، فهو في موقف لا يسمح لقريحته أن تَجُودَ به. ونرجّح أنّ إبراهيم قال هذه الأبيات في لقاءات متعدّدة مع المأمون وليس في لقاء واحد، فالمأمون كان يطلبه من سجنه، ويسأله عن سبب خروجه عليه، فلعلّه كان يقولها في مثل هذه اللقاءات.

أجمعت الرّوايات المتعدّدة على قدرة إبراهيم البيانيّة وتأثيره لنَيْلِ عفو المأمون. وقد أظهرت هذه الرّوايات ما أبداه إبراهيم بن المهديّ من بلاغة وحسن تأثير كان لهما أثر في تسريع العفو عنه. ومن هذه الرّوايات ما يذكره التّنوخيّ أنّ المأمون أخبر إبراهيم بما أشارت عليه حاشيته بوجوب قتله، فردّ عليه إبراهيم قائلاً: "يا أمير المؤمنين، أبيت أن تأخذ حقّك إلاّ من حيث عوّدك الله تعالى، وهو العفو عن قدرة". فأثار هذا القول المأمون، وقال: "مات واللّهِ الحِقْدُ عند هذا العذر"[2]. ويورد ابن عساكر رواية تُظْهِرُ تأثير إبراهيم البليغ في المأمون، فبعد أن سمع المأمون كلام إبراهيم: "وترغرغت عيناه بالدموع، ثم قال: يا ثمامة فوثبت قائماً فقال: إنّ من الكلام كلاماً كالدّر حلّوا عن عمّي، وغيّروا من حالته في أسرع وقت"[3].

---

(١) التّنوخيّ، المستجاد من فعلات الأجواد، ص٨١-٨٣.

(٢) التّنوخيّ، الفرج بعد الشدّة، ج٣، ص٣٣٣.

(٣) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتذكر بعض الرّوايات أن المأمون قد استشار حاشيته في الحكم على إبراهيم بن المهديّ، فأشاروا بقتله، وقال بعضهم للمأمون: "من ذاق حَلاَوَةَ الخلافة لا تَصِحُّ منه توبة"، وقال بعضهم الآخر: "ما رأينا خليفتَيْن حَيَّين"(١). وقد شاور المأمون كلاًّ من أحمد بن أبي خالد الأحول الوزير ويحيى بن أكثم*، فأشارا عليه بالعفو عن إبراهيم، فقال أحمد بن أبي خالد للمأمون: "يا أمير المؤمنين، إنْ قتلته فلك نظراء، وإنْ عفوت عنه فما لك نظير"(٢). وأمّا يحيى بن أكثم فقد قال للمأمون "لقد سمعنا بمن جنى كجنايته كثيرًا، وإنّه إذا قدر عليه قتل، ولم نسمع أنّه إذا قدر عليه عفا عنه، فاجعل عفوك عنه خيراً أو مكرمةً تُذْكَرُ إلى آخر الدّهر"(٣)، فأنشد المأمون:

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأَعْفُوَنَّ تَكَرُّماً ... ولَئِنْ سَطَوْتُ لأُوهِنَنَّ عظامِي(٤)

مكّنت فصاحة إبراهيم وحسن تصرّفه من كَسْبِ عفوالمأمون، فقد أشار كلٌّ من أبي إسحاق المعتصم والعبّاس بن المأمون على المأمون بقتل إبراهيم، وكان تصويب إبراهيم لهما ألطف في طلب الرّضا ودفع المكروه، وقال للمأمون بعد أن سأله فيما أشارا به: "إمّا أن لا يكونا قد نصحاك، أوأشارا عليك بالصّواب في عظم الخلافة وما جرت به عادة السّياسة، فقد فعلا ذلك. ولكن يا أمير المؤمنين تأبى أن تجتلب النّصر إلاّ من حيث عوّدكه الله وهو العفو"(٥).

وقد نظم أحد شعراء المأمون، وهو محمّد بن الزّيات قصيدة يحرّض المأمون فيها على قتل إبراهيم بن المهديّ، ومن هذه القصيدة:

تَذَكَّرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قِيامَهُ ... وَأَيْمانَهُ فِي الْهَزْلِ مِنْهُ بِالْجِدِّ
وَوَاللّهِ ما مِنْ تَوْبَةٍ نَزَعَتْ بِهِ ... لَدَيْكَ وَلا مَيْلٍ إِلَيْكَ وَلا وُدِّ
وَأَيُّ امْرِئٍ يُسْمِي بِها قَطُّ نَفْسَهُ ... فَفارِقَها حَتَّى تَغَيَّبَ فِي اللَّحْدِ
وَجَرَّرَ إِبْراهِيمُ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ ... وَأَبْدَى سِلاحاً فَوْقَ ذي مَنَعَةٍ نَهْدِ(٦)

---

(١) ابن العمّاد الحنبليّ، شذرات الذهب، مج٣، ص١٠٩.

* يحيى بن أكثم التميمي الأسدي، قاض عالي الشهرة، ولد بمرو، ولاه المأمون قضاء البصرة سنة ٢٠٢هـ، ثم قضاء بغداد، وتوفي سنة ٢٤٢هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٤٧/٦).

(٢) ابن خلّكان، وفيات الأعيان، مج١، ص٤١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٢، ص٢٢٤.

(٣) ابن العماد الحنبليّ، شذرات الذهب، مج٣، ص١٠٩.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٢، ص٢٢٤.

(٥) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١٠٦.

(٦) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرّغم من اختلاف الرّوايات في نقل ما جرى في لقاء إبراهيم بن المهديّ بالمأمون، فإنّها اتّفقت جميعاً على أنّ المأمون عفا عنه، وأمر بردّ أمواله وضياعه وإعطائه ما يلزمه من الأموال ليسيّر أموره، وأنّ المأمون قد جعله من خاصّة ندمائه، فقال إبراهيم أشعاراً مدح فيها المأمون[١]. ولم تذكر المصادر التّاريخيّة لإبراهيم بن المهديّ أيّ نشاط سياسيّ بعد أن عفا عنه المأمون وأمّنه.

من عرضنا السابق للجانب السّياسيّ في حياة إبراهيم بن المهديّ تظهر تساؤلات عديدة تحتاج إلى إجابات محدّدة. أوّل هذه التّساؤلات يتعلّق بخلافة إبراهيم بن المهديّ وسرعة تقوضها، ويرتبط بهذا التّساؤل سؤال آخر يتعلّق بإهمال المؤرّخين لخلافته وعدم عدّهم إيّاه من الخلفاء عند حديثهم عن خلفاء بني العبّاس. وهناك تساؤل يتعلّق بالأسباب التّي دفعت المأمون إلى العفو عن إبراهيم، وهل كان لعامل القرابة بين المأمون وإبراهيم دورٌ في ذلك، أم أنّ هناك ظروفاً محدّدة أملت على المأمون ذلك؟. وفيما يخصّ التّساؤل الأوّل يظهر أنّ الظّروف السّياسيّة والاقتصادية والاجتماعيّة التي أحاطت بخلافة إبراهيم بن المهديّ قد سارعت في إنهاء خلافته مبكّراً وعدم استمرارها وقتاً طويلاً. فأمور النّاس لم تهدأ عندما تسلّم إبراهيم الخلافة. إذ قام العديد من القوّاد بالثّورة عليه ومناهضته والدّعوة إلى المأمون[٢]. ولئن تصدّى إبراهيم بن المهديّ إلى هذه الثّورات، وتمكّن منها، إلاّ أنّها أسهمت في إضعاف صفّه واستهانة أمره، إضافة إلى ثورات القادة على إبراهيم، فلم يكن إبراهيم حاصلاً على تأييد أهل بغداد كلّهم[٣]. وبهذا يظهر أنّه لم يكن هناك رضى تامّ عن إبراهيم بن المهديّ وخلافته، ويظهر أنّ قرار أهل بغداد بتنصيب إبراهيم وتنحية المأمون، إنّما كان قراراً سريعاً جاء ليعبّر عن رفضهم الداخليّ لصنيع المأمون، فبنو العبّاس لا يرفضون المأمون لشخصه، إنّما يرفضون ما ذهب إليه، ممّا اعتبروه مخالفاً لسنن العبّاسيين السّابقين، وبدايةً لإخراج الأمور من أيديهم. وممّا يؤكّد عدم حصول إبراهيم على تأييد العبّاسيين جميعهم، أنّ خلعه قد جاء بمباركة أهل بغداد وتأييدهم، ولم يقفوا معه موقفاً يدلّ على تأييد صادق له وانتماء حقيقيّ إليه، بل نافقه القوّاد إليه مظهرين له الولاء، وهم يقيمون من خلفه علاقات سرّية مع قوّاد المأمون[٤].

---

(١) انظر: دراسة الغرض المدحي لإبراهيم من هذا البحث، ص٧٨-٨٥.

(٢) انظر: الطبري، تاريخ الطبري، مج٥، ص١٤١-١٤٣. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٢-١٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٨-٢٥٠.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، مج٥، ص١٤٠.

(٤) ابن وادران، تاريخ العباسيين، ص٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر موقف أهل بغداد في أنّ رفضهم للمأمون إنّما كان لتحيّزه للعلَويين والشّيعة، وأنّ هذا الأمر قد دفعهم إلى اختيار إبراهيم. وبعد موت عليّ بن موسى - الذّي وكّل إليه المأمون ولاية العهد - كان جانبهم قد لان وخفّ. وممّا يؤكد ذلك أنّ المأمون لمّا مات عليّ بن موسى أرسل المأمون إلى أهل بغداد يخبرهم بموته، وأنّ عليهم الطّاعة والخضوع لحكمه[1]. وكان إعطاء عليّ بن موسى ولاية العهد عقبة في طريق منح ولاء أهل بغداد للمأمون، وبزواله تكون قد زالت هذه العقبة، ولا مجال بعدها للخروج عن الطّاعة.

وقد صاحب عدم الاستقرار السّياسيّ في عهد إبراهيم بن المهديّ سوءٌ في الأحوال الاقتصاديّة، فقد واجه إبراهيم أوضاعاً اقتصادية عسيرة دفعته إلى الاقتراض من بعض مياسير التّجار ليسيّر أمور الدّولة. وأدّى سوء الأحوال الاقتصاديّة إلى تأخير أعطيات الجيش وأرزاقه. وقد أسهم هذا الوضع في تَململِ الجيش وخروج صوته وعدم الولاء لإبراهيم ولسلطته، وأدّى كذلك إلى إضعاف قدرة الجيش[2]. وجملة القول فإنّ إبراهيم كان يَسُوسُ دولة منهارة اقتصادياً وعسكرياً, ولعلّ هذا يعكس ضعفاً إداريًّا وسياسيًّا في شخصيّة إبراهيم، فجنوده رفضوا الانصياع له عندما تقدّمت جيوش المأمون نحو بغداد، وأهل بغداد رفضوا الدّفاع عنه عندما تسلّل جنود المأمون بينهم. كما أنّ فرار إبراهيم وعدم إيواء أهل بغداد له، يعكس تخلّياً تامًّا عنه وعن سلطته.

ولعلّ ما أثِرَ عن إبراهيم بن المهديّ من حبّ للغناء وتعلّق به، قد أسهم في التّقليل من شأنه في أعين النّاس، حتّى إنّ جماعة منهم لَمّا رفض إبراهيم أن يمنحهم أعطياتهم، طلبوا منه أن يغنّي لهم بدلاً من أعطياته. والاستخفاف به واضح لا يحتاج إلى مزيد بيان. تلك جملة من الأسباب التّي يمكن أن تتبادر إلى الذّهن عند التّفكير بأسباب سرعة تقويض حكمه.

وفيما يتعلّق بإهمال المؤرّخين لخلافته، فإنّنا نلحظ إعراضاً تامًّا من المورّخين عن إبراهيم ابن المهديّ، فلم يذكره المورّخون ضمن خلفاء بني العبّاس عند حديثهم عن الدّولة العبّاسيّة، حتى إنّهم يعرضون عنه عند سردهم للتّسلسل التّاريخيّ لخلفاء بني العبّاس، فنجد عند المؤرّخين أنّ المأمون يأتي بعد الأمين مباشرة دون أن يضعوا لإبراهيم مكاناً في سلّم التّرتيب الخلافيّ, وقد تنبّه لهذا الإغفال ابن تغري بردي، فقال إنّ "خلافته لم يثبتها المؤرّخون، ولا عدّه أحد من

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٩-٢٥٠. توفّى علي بن موسى سنة ٢٠٣هـ.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٦٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلفاء"[١]. ولعلَّ مرجع هذا الإغفال أنّ المصادر التاريخيّة كانت تنظر إلى صنيع أهل بغداد وإعطائهم الخلافة لإبراهيم على أنّه احتجاج واعتراض وثورة على قرار المأمون. وتعلن المصادر التّاريخيّة صراحةً أنّ الخليفة هو المأمون، وأنّ مبايعة النّاس له ما زالت في أعناقهم. ومن هنا اعتبرت المصادر التّاريخيّة قرار النّاس حركة من الحركات الاحتجاجيّة الكثيرة التّي رافقت قرار المأمون.

أمّا عن موقف المأمون إبّان تولّي إبراهيم بن المهدي الخلافة، فقد كان المأمون يجهل تماماً حقيقة ما يجري في بغداد من أحداث، وكان واليه الفضل بن سهل يكتمه أخبار مبايعة أهل بغداد لإبراهيم[٢]. ولعلَّ هذا يفسّر تأخّر توجّه المأمون إلى بغداد واستمرار إبراهيم في الحكم ما يقارب عامين.

وفيما يتعلّق بالأسباب التّي دفعت المأمون إلى العفو عن إبراهيم وعدم قتله، فإنّنا نلحظ أنّ المأمون تمكّن من إخضاع النّاس له، وتمكّن من إخماد الثّورات والفتن التّي كانت قائمة زمن إبراهيم. واستطاع أن يتخلّص من القوّاد الذّين وقفوا مع إبراهيم إبّان استيلائه على الخلافة. من ذلك نلحظ أنّ الاستقرار السّياسيّ قد ساد في خلافة المأمون، ولم يعد هناك مَنْ ينازعه على السّلطة ولا مَنْ يخاصمه عليها، فهذا الاستقرار السّياسيّ شجّع المأمون على العفو عن عمّه بعد أن تأكّد أنّ حبال عمّه السّياسيّة قد قُطِعَتْ تماماً بعد سيطرته على مجريات الأمور.

ويظهر أن مناخ العفو قد ساد في خلافة المأمون، وهذا يعكس رغبة حقيقيّة عند المأمون في توجيه الأمور نحو الهدوء والاستقرار. ويقول المأمون عن ذلك: "لقد حُبِّبَ إليَّ العفو حتّى خفت أن لا أؤجر عليه، أمّا أنّه لو علم النّاس ما لنا في العفو من اللّذّة لتقربوا إلينا بالذّنوب"[٣]. فظهور إبراهيم في مثل هذا الجوّ أسهم في عفو المأمون عنه، وهذا ما يؤكّده إبراهيم بن المهدي نفسه حيث يقول: "واللهِ ما عفا عنّي لرحم ولا لمحبّة، ولكن قامت له سوق في العفو كره أن يفسدها بي"[٤]. وتذكر بعض الرّوايات أنّ عفو المأمون عن إبراهيم كان استجابةً لرغبة من رغبات ثلاث، كان قد مَنَحَها المأمون لزوجه بوران، فكان من رغباتها أن يعفو عن إبراهيم، فاستجاب لذلك[٥].

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٢، ص١٧٤.

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٣، ص٣٠٦-٣٠٧.

(٣) التنوخي، الفرج بعد الشدّة، ج٣، ص٣٤٤.

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج١، ص١٠٠.

(٥) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١١٤-١١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

إبراهيم بن المهديّ
مغنيًا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ارتبط اسم إبراهيم بن المهديّ بالغناء ارتباطاً وثيقاً[١]. فأينما ورد ذكره أبرز الذّاكر جانب الغناء في حياته، وعدّه مرحلة من مراحل تطوّر الغناء في تاريخ الغناء العربيّ[٢]. فقد طغى جانب الغناء عند إبراهيم على بقيّة جوانب حياته الأخرى، وأعطاه إبراهيم كلّ اهتمامه على الرغم مما كان لعائلته من مكانة سياسيّة مرموقة. فقد كان من أشدّ النّاس إعظاماً له وأحرصهم عليه وأشدّهم منافسة فيه[٣]. واستطاع إبراهيم بن المهديّ أن يكوّن لنفسه اتّجاهاً غنائيًّا مستقلاً تميّز به عمّن سواه من المغنّين. واستقطب لهذا الاتّجاه العديد من الأنصار والمؤيّدين. وسنقف عند حديثنا عن إبراهيم بن المهديّ مغنّياً على عدّة جوانب تتّصل بغنائه ومكانته الغنائيّة، ثمّ نحاول إبراز خصائص اتّجاهه الغنائيّ.

أ - مكانة إبراهيم في مجال الغناء:

١ - غناؤه وجمال صوته:

لم يعهد البيت الخلافيّ العبّاسيّ قبل إبراهيم بن المهديّ وجود مغنّ فيه، فقد كان إبراهيم أوّل أولاد الخلفاء إتقاناً للغناء[٤]. ولا تسعفنا المصادر التّاريخيّة المتعدّدة بذكر أوّل عهد إبراهيم بالغناء وبداية تعلّقه به، فأبو الفرج الأصفهانيّ حاول رصد بداية إبراهيم بن المهديّ الغنائيّة، فبعد أن تحدّث عن إتقانه الغناء وشهرته فيه، يقول: "وكان في أوّل أمره لا يفعل ذلك إلاّ من وراء ستر وعلى حال تصوُّن عنه وترفُّع، إلاّ أن يدعوه الرّشيد في خلوة، والأمين بعده. ولمّا أمّنه المأمون تهتّك بالغناء"[٥]. ويحاول الأصفهانيّ تعليل إعلان إبراهيم عن نفسه أنّه مغنٍّ، فيقول: إنّه فعل ذلك خوفاً من المأمون، "وإظهاراً له أنّه قد خلع ربقة الخلافة من عنقه، وهتك ستره فيها حتّى صار لا يصلح لها"[٦].غير أنّنا لا نستطيع أن نركن إلى تعليل الأصفهانيّ السّابق، فتعليله يغفل موهبة إبراهيم، كما يغفل استعداده الغنائيّ وتوفّره عليه، وتعلّقه به. فإبراهيم كان معروفاً بالغناء عندما تولى الخلافة، ومع ذلك نصّبه بنو العبّاس.

---

(١) الثّعالبيّ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص١٥٤.

(٢) خليل مردم بك، جمهرة المغنّين، مجمع العلم العربيّ، دمشق، ١٩٦٤م، ص١٧٦-١٧٧.

(٣) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١١٩.

(٤) المصدر نفسه، ج١٠، ص٨٥.

(٥) المصدر نفسه، ج١٠، ص٨٥.

(٦) المصدر نفسه، ج١٠، ص٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا تحدّثنا المصادر التّاريخيّة المتعدّدة عن شيوخ إبراهيم وأساتذته في الغناء، غير أنّها تذكر بعض مَنْ كان يأخذ إبراهيم عنهم من المغّنين السّابقين عليه، ومنهم: إسماعيل بن جامع، فكان أستاذه في الغناء، وقدّمه إبراهيم على غيره من المغّنين كثيراً. وكان إبراهيم يأخذ الغناء أيضاً من أخته عُلَيّة، فقد كانت معروفة بالغناء متقنةً له[١]. ولعلّ إغفال المصادر التّاريخيّة عن ذكر شيوخ إبراهيم في الغناء راجع إلى ظهوره مستقلاً باتّجاه غنائيّ يخالف فيه القدماء. ومن هنا فالمصادر الغنائيّة تعدّه شيخاً ومؤصّلاً لاتّجاه غنائيّ يُؤْخَذُ الغناء عنه. غير أنّ ما تحصّل لإبراهيم من معرفة عميقة بالغناء، وما يملكه من قدرة في تمييزه، وما يمتلكه من معرفة أصوله، يدفعنا إلى الجزم بأنّ إبراهيم بن المهديّ قد اطّلع على أصول الغناء العربيّ القديم، وملك أسراره. وهذا ما يؤكّده العديد من المصادر. فالأصفهانيّ يذكر أنّ إبراهيم كان من أعلم النّاس بالنّغم والوتر والإيقاعات وأطبعهم في الغناء وأحسنهم صوتاً[٢]. ويذكر الصّوليّ أنّه كان مقدّماً في الحذق وعالِماً بالغناء[٣]، ويؤيّده في ذلك ابن ماكولا، فإبراهيم عنده من أحسن النّاس غناءً وأعلمهم به[٤].

وقد كان إبراهيم مضرب المثل في الغناء[٥]. ويذكره الكتّاب في مقدّمات كتبهم للتّمثيل على الإتقان، فالثّعالبيّ يذكر في مقدّمة كتابه "التوفيق للتّلفيق" ما لإبراهيم بن المهديّ من المكانة الغنائيّة وذلك عندما ينسب الغناء له، ويوصله إلى المكانة العالية، فيقول في معرض رفع شأن شيخ له أراد أن يهديه كتبه: "فإنّي لم أوفّر خدمة الشّيخ السّيد أطال الله بقاءه، وأدام علاه، بموّلفاته إلى هذه الغاية، وأنا عبدُ فَضلِه، ومملوكُ ودّه، وغريق برّه، ورهين شكره، إلاّ لأنّي حين أخدمه بكتبي كمن يهدي الخضاب إلى الشّباب، وكما يهدي كوز ماء أجاج إلى بحر عجاج. وكيف تُؤَلَّفُ الكتب للجاحظ ويُهْدِيَ الفقه إلى الشّافعي، والشّعر إلى البحتريّ، والغناء إلى إبراهيم"[٦]. ويورد الثّعالبيّ فصلا لأحد الكتّاب في محاسن الأفراد، ويذكر منهم إبراهيم بن المهديّ، وحسنه في الغناء، يقول: "و كان لك خصم يجمع شعر البحتريّ، وغناء إبراهيم بن

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١٠، ص٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ج١٠، ص٨٥.

(٣) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص١٧.

(٤) ابن ماكولا، الإكمال، ج١، ص٥١٨.

(٥) الثّعالبيّ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص١٥٤.

(٦) الثّعالبيّ، التّوفيق للتّلفيق، ت: إبراهيم صالح، مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، ١٩٨٣م، ص٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المهديّ، ومذاكرة الأصمعيّ..."[١]. ويذهب الثّعالبيّ في الحديث عن صوت إبراهيم أبعد من ذلك، فيقول واصفاً جمال صوت إبراهيم: "وكان إذا ضرب وغنّى لأحدهم في الصّحارى والمصائد، والمتنزّهات، وقفت له الطّير، وعكفت عليه الوحوش، حتّى تكاد تؤخذ بالأيدي"[٢].

وقد امتدح الكثيرون صوت إبراهيم بن المهديّ ووصفوه بالجمال التّامّ، وأنّه بلغ الغاية في حسن الصّوت ورقّته. وقد بالغ بعضهم في ذلك حتّى إنّ منصور بن المهديّ شقيق إبراهيم يصف جمال صوت أخيه فيقول: "إذا تَنَحنَحَ طَرِبَ مَنْ يسمعه، فإذا غنّى أصغت الوحوش، حتّى تضع رؤوسها في حجره، فإذا سكت هربت، وكان إذا غنّى لم يبق أحد إلاّ ذُهِلَ "[٣]. ويتحدّث محمّد بن موسى المنجِم* عن حال عاملي القصر حين يشرع إبراهيم في الغناء، ويقول: "كنت أرى إبراهيم ابن المهديّ إذا غنّى في مجالس الخلفاء لم يبق من الغلمان الصّغار والكبار أحدٌ إلاّ ترك ما في يده وقرّب إليه يسمعه، ولا يزال مصغياً إليه عمّا كان فيه، إلى أن يسكت، فيرجع كلّ واحد إلى شغله، ولا يلتفت إلى غناء غيره"[٤]. ويذكر الأصفهانيّ أنّ النّاس كانوا يقولون إنّه لم يُرَ في جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهديّ وأخته عُلَيّة[٥]. وقد شهد إسحاق الموصليّ منافس إبراهيم في السّاحة الغنائيّة بحسن صوت إبراهيم وجماله، فقد أرسل إسحاق إلى إبراهيم بصفات أحد الأصوات، فغنّاه إبراهيم، فقال إسحاق: "فضلني فيه بحسن صوته"[٦].

وقد تحدّث الرّواة كثيراً عن قوّة صوت إبراهيم، وقدرته على إيقاع الأصوات الصّعبة، فقد غنّى إبراهيم أحد الأصوات على أربع طبقات*، ومن ذلك ما ينقله الأصفهانيّ في رواية عن إسحاق بن عمر يقول: "كنتُ أضرب على إبراهيم بن المهديّ صوتاً ذكره، فغنّاه على أربع طبقات، على الطّبقة التّي كان العود عليها، وعلى ضعفها، وعلى إسجاحها*، وعلى إسجاح

---

(١) الثعالبي، ثمار القلوب، ص١٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٤.

(٣) الذّهبيّ، سير أعلام النّبلاء، ج١٠، ص٥٦٠-٥٦١.

* محمد بن موسى المنجم: لم أعثر على تعريف له.

(٤) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٢٣١.

(٥) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٢٠.

(٦) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٣٢.

* الطبقات: هي مراتب حدة الصوت أو ثقله، مرتبة مع ترداد النغمة ونوع الآلة، وهي الأدوار في غير مواضعها. (حسين علي محفوظ، معجم الموسيقى العربية، ص٨٧).

* الإسجاح: هو النغمة الثقيلة، وكل نغمة ثقيلة على هذا البعد. (معجم الموسيقى، ص٨٠).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإسجاح*، وهذا شيء ما حُكِيَ لنا عن أحد غير إبراهيم، وقد تَعاطاه بعض الحذّاق بهذا الشأن، فوجده صعباً متعذّراً لا يُبَلّغُ إلا بصوت قويّ، وأشدّ ما في إسجاح الإسجاح"(١).

وقد شهد لإبراهيم بالمكانة الغنائية العالية منافسه الأوّل إسحاق الموصليّ كما تقدّم، ورأى أنّ ما لإبراهيم من المكانة العالية راجع إلى إتقانه للغناء، وهذا اعتراف واضح بمكانته الغنائيّة. يقول إسحاق عنه: "ما ولد العبّاس بن عبد المطّلب بعد عبدالله بن العبّاس رجلاً أفضل من إبراهيم بن المهديّ. قِيل له مع ما تبذل له من الغناء؟ فقال: وهل تمّ فضله إلاّ بذاك؟"(٢).

ومن مظاهر قدرة إبراهيم الغنائية علمه الواسع بأدوات الطّرب والإيقاع في عصره، فقد وصفها، ووصف عملها بدقة. ومن ذلك حديثه عن الطّبل والإيقاع به، يقول عنه: "هو من الآلات التّي لا يجوز أن تُبَلّغَ نهايتها. فقيل له: وكيف خُصَّ الطّبل بذلك؟ فقال: لأنّ عمل اليدَيْن فيه عمل واحد، ولا بدّ من أن يلحق اليسارَ فيه نَقْضٌ على اليمين، ودعا بالطّبل فأوقع إيقاعاً لم نكن نظنّ أنّ مثله يكون"(٣). ولم يكن إبراهيم بن المهديّ يميل إلى استخدام النّاي، فقد طلب منه المأمون يوماً أن يزمّر بها، فقال للمأمون: "يا أمير المؤمنين، ما وضعت على فمي ناياً قطّ ولا أضعه، ولكن يدعو أمير المؤمنين بفلانة حتّى تنفخ النّاي وأمرّ يدي عليه، وأحضرت فوضعت النّاي على فيها وأمسكه إبراهيم، فكلّما مرّ الهواء أمرّ أصابعه، فأجمع سائر مَنْ حضر على أنّه لم يسمع مثله قطّ"(٤). ولا يخفى ما لإبراهيم بن المهديّ من القدرة الكبيرة في التّعامل مع آلات الطّرب واستخدامها، وهذا يمثّل جانباً مهمّاً من مكانته الغنائيّة.

ومن مظاهر قدرة إبراهيم الغنائيّة معرفته العميقة بأصوات المغنّين، وبما اشْتُهِرُوا به من أصوات. فقد كان يطلب من المغنّين الذّين يحضرون مجلسه الغنائيّ أن يغنّوا أصواتاً يذكرها لهم. ومن ذلك طلبه من جواريه غناء هذه الأشعار:

كَيْفَ احْتِيَالِي وَأَنْتَ لاَ تَصِلُ ... عِيلُ اصْطِبَارِي وَقَلَّتِ الْحِيَلُ

إِنْ كَانَ جِسْمِي هَوَاكَ يَنْحُلُهُ ... فَإِنَّ قَلْبِي عَلَيْكَ يَتَّكِلُ

---

* إسجاح الإسجاح: هو النغمة أشدّ من الإسجاح. (معجم الموسيقى، ص٨٠).

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ج١٠، ص١١٩.

(٣) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٧١-١٧٢.

(٤) ابن طقطقى، الفخري في الآداب السلطانية، مطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٤٠م، ص١٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد ذكر أنّ هذا الغناء لأبي حشيشة* . وطلب من المغنّين الحاضرين غناء أبيات كان يذكرها ويذكر صاحب اللّحن فيها[١]. وقد كان إبراهيم بن المهديّ يحرص على ذكر الشّيخ الذّي يأخذ منه الأصوات الغنائية وينسبها إليه، وهذا يدلّ على أمانة كبيرة وحرص أكيد منه على نسبة كلّ صوت إلى مَنْ أخذه عنه، يقول إبراهيم بعد أن غنّى أحد الأصوات: "هكذا أخذناهما من محمّد ابن الحارث* "[٢].

وقد كان إبراهيم بن المهديّ كثير الاعتداد بنفسه للمكانة الغنائيّة التّي كانت له، فقد سُئِلَ عن أحسن النّاس غناءً، فأجاب قائلاً: أنا[٣]. وكان يظهر ترفّعه عن الغناء، وأنّه يغنّي دون إعداد مسبق، ودون أن يعطي الغناء الاهتمام الكبير في حياته يقول: "لولا أنّي أرفع نفسي عن هذه الصّناعة لأظهرت فيها ما يعلم النّاس معه أنّهم لم يروا قبلي مثلي"[٤]. ولعلّ مثل هذا القول يصدر عن إبراهيم حين انهزامه في مناظرة يجريها مع أحد خصومه، ولا يمثّل حقيقة إبراهيم وواقعه الغنائيّ.

٢ - أحكام إبراهيم على المغنّين:

أسهمت المعرفة الغنائيّة الكبيرة عند إبراهيم في إكسابه ملكة نقديّة مكّنته من إطلاق أحكام على المغنّين، فلم يتوان إبراهيم في إصدار حكم يستحسن فيه صوت مغنٍّ ما، أو يستقبحه، أو يصوّبه، أو يضيف عليه ما يجعله قريباً من الحسن. ولا شكّ في أنّ هذه القدرة لا تتأتّى إلاّ لمَنْ ملك ناصية الغناء، وعرف أصوله وألحانه. وقد تعدّدت أحكام إبراهيم، ومن أحكامه ما أصدره على لحن ابن مُحْرِز* في شعر كان يغنّيه، فلم يَرُقْ ذلك اللّحن لإبراهيم، فقال عنه: "فيه دور

---

* أبو حشيشة: هو محمد بن أمية بن أبي أمية، ويُكنى أبا جعفر، كان متّصلاً بإبراهيم بن المهديّ، كان مغنياً بالطنبور حسن الصوت، توفي سنة ٢٥٠هـ في مدينة سر من رأى. (الأصفهاني، الأغاني، ٨٧/٢٣).

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١٠، ص٨٩-٩٠.

* محمد بن الحارث: ابن بُسخُنْر، يُكنى بأبي جعفر، من موالي المنصور، أصله من الريّ، كان حسن الصوت، يجيد العزف على الطنبور. (الأصفهاني، الأغاني، ٥/١٢).

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج١٠، ص٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ج١٠، ص٢٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ج١٥، ص١٢١.

* ابن محرز: هو مسلم بن محرز، أبو الخطاب، أحد المتقدّمين في صناعة الغناء والألحان، فارسي الأصل، مزج غناء الفرس والروم، وأخذ منهما أغانيه الّتي صنعها في أشعار العرب، كان يقال له: صناج العرب. (الأصفهاني، الأغاني، ٩/١).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كبير أيّ صنعة كبيرة"[١]. ومن أحكام إبراهيم حكمه على مغنٍّ سمعه يغنّي في أحد المجالس، فقال مبدياً إعجابه بغنائه: "لغنائه في القلب موقع القطر من الجدب"[٢].

وكان إبراهيم بن المهديّ يصوّب المغنِّين فيما يصدر من أحكام، ويطلب منهم إعادة الصوت حتّى يتقنوه، ثمّ يطلق حكماً آخر بعد سماعه مرّة ثانية. ومن ذلك أنّ مخارق- أحد تلاميذه في الغناء - غنّى أمامه أحد الأصوات في حضرة المأمون، فقال له إبراهيم: "أسأت فأعد فأعاده، فقال: قاربت ولم تصب. فقال له المأمون: إن كان أساء فأحسن أنت، فغنّاه إبراهيم، ثمّ قال لمخارق: أعده، فأعاده فقال: أحسنت، فقال المأمون: كم بين الأمرين؟ فقال: كثير"[٣]. ثمّ أطلق إبراهيم على مخارق حكماً قال له فيه: "إنّما مثلك كمثل الثّوب الفاخر، إذا غفل عنه أهله، وقع عليه الغُبار، فأمال لونه"[٤].

وقد كان المغنّون يهتمّون بما يبديه إبراهيم من أحكام وآراء في أصواتهم. ومن ذلك ما نجده عند مخارق الذّي غنّى أمامه أحد الأصوات، فاستحسنه إبراهيم كثيراً، فكانت فرحة مخارق بهذا الحكم أن سجد سروراً لحكمه ذاك[٥]. ومن ذلك ما نجده من فرحة أبي حشيشة المغنّي، حيث استحسنه إبراهيم بن المهديّ، فقال أبو حشيشة: "فخرجت أطير فرحاً بانصرافي سالِماً"[٦].

وقد كانت الهيبة تَعْتري بعض المغّنين عند سماعهم بوجود إبراهيم بن المهدي في مجلس غنائيّ أو قربه منهم، وهذا يعكس مكانته الغنائيّة، وما يتمتّع به من مقدرة على تقييم المغنِّين، وإبداء الآراء فيهم.

ومن المغنِّين الّذين كانوا يتهيّبونه أبو حشيشة، فقد كان يتهرّب من إبراهيم ويخاف لقاءه، ويذكر أبو حشيشة ذلك، فيقول إنّ إبراهيم اشتهى يوماً أن يسمع صوته، فيقول: "فهبته هيبة شديدة، وقلت: إنْ رضيني لم يزد ذلك في قدري، وإنْ لم يرضني بقيت وصمة آخر الدّهر، وكان يطلبني من محمّد بن الحارث بن بسخنر، فكنت أفِرُّ منه"[٧].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١، ص١٠-١١.

(٢) الثّعالبيّ، لطائف اللّطف، ت: عمر الأسعد، دار المسيرة، بيروت، ص١٠٥.

(٣) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٢٧.

(٥) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٣٩.

(٦) المصدر نفسه، ج٢٣، ص٩١.

(٧) المصدر نفسه، ص٨٨-٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان لإبراهيم بن المهديّ أحكام فيمَنْ سبقه من المغنّين، فقد كان ابن سُرَيْج* مقدّماً على معبد* عند إبراهيم بن المهديّ، وكان يقول: إنّه إذا أحسن معبد يقال: إنّه أصبح مثل ابن سريج[١]. وعلى الرّغم من تقديم إبراهيم بن المهديّ لابن سريج، فإنّه كان يقدّر معبداً، ويعطيه مكانته التّي يستحقّها، فقد غنّى أحد المغنّين أمامه صوتاً، ادّعى أنّ معبداً لا يصله، فضحك إبراهيم، وقال: "واللهِ يا بنيَّ ما قمت بنصف ما كان يقوم به معبد"[٢].

ولم تكن أحكام إبراهيم بن المهديّ أحكاماً ارتجاليّة مطلقة، بل كان يحرص على تعليل أحكامه وبيان علة الحكم الّذي يطلقه. فقد أصدر إبراهيم حكماً بعدم استحسان أحد المغنّين، فقال معللاً هذا الحكم: "لأن الشّيخ كان مشوّه الخلق، طَنَّ الغناء، قليل الحلاوة، إلاّ أنّه كان لا يفارق عمود الصّوت أبداً حتّى يفرغ منه"[٣].

وممّا سبق نلحظ أنّ إبراهيم علاوة على ما يملكه من صوت رخيم كان ناقداً غنائيًّا لا يتورّع في إطلاق الأحكام مهما كانت درجتها.

٣ - مجالس إبراهيم الغنائيّة:

كانت لإبراهيم بن المهديّ مكانة غنائية كبيرة فقد كان يتزعّم مجالس غنائيّة يعقدها هو أو يُدْعَى إلى حضورها. وقد كان يعقد مجالس غنائيّة مع أفراد أسرته أيضاً، وخاصّةً أخته عُلَيّة، فقد كانت مشهورة بالغناء، فضلاً عن أخيه يعقوب الذّي كان حاذقاً بالزّمر، فكان ثلاثتهم يعقدون مجلساً غنائيًّا يغنّي فيه إبراهيم وأخته عُلَيّة وأخوهما يعقوب يزمر عليهما[٤]. وقد عُرِفَ عن إبراهيم وعُلَيّة أنّهما كانا يعقدان المجالس الغنائية وحدهما، فيتطارحان أمور الغناء، وتغنّيه عُلَيّة، ويغنّيها[٥].

---

* ابن سريج: هو عبيدالله بن سريج، من مشاهير الغناء في صدر الإسلام والعصر الأموي، صاحب مدرسة في الغناء، وهو أوّل من ضرب على العود بالغناء العربي، توفي سنة ٩٨هـ. (الأصفهاني، الأغاني، ١٩٤/٤).

* معبد: هو معبد بن وهب، أبو عباد المدني، نابغة الغناء العربي في العصر الأموي، أديب، فصيح، عاش طويلاً، توفي سنة ١٢٦هـ. (الأصفهاني، الأغاني، ٢٦٤/٧).

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٩، ص٣٨٣-٣٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ٣٤٦.

(٤) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، مج٢، ص٢٣٧.

(٥) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص٢٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان إبراهيم يعقد مجالس الطّرب والغناء في بيته، فيجتمع المغنّون ويغنّون بعضهم ويطربون، ويعطي كلٌّ منهم ما عنده من ألحان وأصوات. فقد جمع إبراهيم المغنّين ذات يوم في منزله، وكان معهم تلميذه مخارق حيث ذهب الخمر بعقله، فسألوه أن يغنّي صوتاً، فغنّى من شعر عمر بن أبي ربيعة، ولشدّة سكره غلبه النّوم فلم يكمل غناءه، فكان أضحوكة المغنّين(١).

ولم تخلُ المجالس الغنائيّة التي كان إبراهيم يعقدها من تنافس واحتداد بين المغنّين، فقد كانوا يختلفون في نسبة الأصوات وكيفيّة أدائها. ومن ذلك ما حدث في مجلس غنائيّ عقده إبراهيم، ودعا إليه كلَّ مطرب محسن من المغنّين، فكان إبراهيم يترنّم بصوت إحدى المغنّيات وهو متّكئ، ولمّا انتهى منه، ترنّم به مخارق فأحسن فيه وزاد على إبراهيم، فأعاده إبراهيم، وزاد في صوته، فتفوّق فيه على غناء مخارق، فلمّا فرغ منه، أعاده مخارق، وغنّى فيه بصوته كلّه، فتحمّس الحضور وانتصروا لمخارق، واستوى إبراهيم جالساً وكان متّكِئاً، فغنّاه بصوتِه كلّهِ ووفّاه نغمه وشذوره، وكان حريصاً على أدائه على أكمل وجه، فبعض مَنْ في المجلس أبصر كتفَيْه تهتزّان وبدنه كلّه يتحرّك حتّى انتهى منه، فعلم مخارق باحتداد إبراهيم وغضبه، وتقدّم إليه "فقبّل يده وقال: جعلني الله فِدَاك، أين أنا منك"(٢).

وقد كان إبراهيم يدعو مَنْ عُرِفَ عنهم طول الباع في الغناء وأموره ليفصل بينه وبين بعض المغنّين ممن ينازعون إبراهيم الغناء. ومن ذلك دعوته إلى ابن بُسْخُنّر* ليحكم بينه وبين جاريته شارية* في أداء صوت من الأصوات. وقد كان إبراهيم في مثل هذه المجالس يعرض موضوع الخلاف على مَنْ يدعو، وينتظر حكمه، فقد قال لابن بُسْخُنّرَ عن خلافه مع جاريته: "إنّي قلت شعراً وغنّيت فيه، وطرحته على شارية، فأخذتْه وزعمتْ أنّها أحذق به منّي، وأنا أقول أنّي أحذق به منها. وقد تراضينا بك حكما بيننا لموضِعِك من هذه الصّناعة، فاسْمَعْه منّي ومنها واحْكُمْ ولا تُعَجِّلْ حتّى تسمعَه ثلاث مرّات"(٣).

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١٨، ص٣٦٣-٣٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٣٤-١٣٥.

* ابن بسخنر: هو محمد بن الحارث بن بُسْخُنّر، له تعريف سابقا.

* شارية: هي مولّدة من مولّدات البصرة، شاعرة، مغنية، وكانت من أحسن النّاس غناءً، كانت جارية لإبراهيم ابن المهدي، وكان إبراهيم ينسب غناءه إليها، ويأخذ عنها الغناء. (الأصفهاني، الأغاني، ٥/٦١-٢٠).

(٣) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان إبراهيم بن المهديّ يدعو من اشْتُهِرَ بالغناء وحذق فيه إلى بغداد، فيعقد له المجالس الغنائيّة من أجل أخذ الأصوات منه. ومن ذلك دعوته لأبي سعيد مولى فائدة* الذّي لقيه إبراهيم في مكّة المكرّمة[١].

إضافةً للمجالس التّي كان إبراهيم يعقدها، فقد كان نديماً للخلفاء يُدْعَى إلى حضور مجالس الطّرب والغناء التّي كانوا يعقدونها، فقد غنّى إبراهيم في مجالس أخيه الرّشيد ومجالس أبناء الرّشيد الخلفاء الثلاثة: الأمين والمأمون والمعتصم، ومجالس كبراء بني هاشم. وقد أصبح إبراهيم نديماً للمأمون بعد العفو عنه، وكان آثر النّاس عند المأمون ينادمه ويسامره ويغنّيه[٢]. وكان الخلفاء في المجالس التّي يعقدونها يُعْجَبون به إعجاباً شديداً، ويطربون لصوته طرباً شديداً، ويعطونه لقاء إتقانه الغناء الهباتِ العظيمة. وكان الخلفاء لا يتورّعون في إظهار طربهم وتفضيلهم لإبراهيم عمّنْ سِواه في المجلس. فقد طرب الأمين يوماً، وقال بعد سماعه صوت إبراهيم: "أحسنت واللهِ يا عمُّ أحيَيْتَ لي طرباً"[٣]. وكان الرّشيد يحبّ سماع صوته، ويمنحه لقاء إتقانه المال الكثير، فقد أمر له مرّةً بألف ألف درهمٍ[٤]. ومن شدّة إعجاب الرّشيد بصوت أخيه إبراهيم، فقد كان يدعوه للغناء في قصره، فقد زاره جعفر بن يحيى يوماً، فعقد الرّشيد مجلساً غنائيًّا، ودعا بإبراهيم قائلاً له: "أنا أحبّ أن تشرّف جعفر بأن تغنّيه صوتاً"[٥]. وقد دعاه الرّشيد يوماً عندما حضر سليمان بن أبي جعفر، فأراد الرّشيد أن يكرم هذا الرّجل، فقال لإبراهيم: "عمّك سيد ولد المنصور بعد أبيه، وهو يحبّ أن يسمعك"[٦]. وكان الخلفاء يعقدون مجالس غنائيّة ويطلبون من إبراهيم بن المهديّ أن يدلي برأيه في المغنين الّذين كانوا يغنّون في تلك المجالس. فقد طلب منه هارون الرّشيد يوماً أن يعطي حكمه بدنانير البرمكيّة* بعد أن غنت أحد الأصوات

---

* أبو سعيد مولى فائدة: ويعرف بأبي سِنّه مولى بني أمية، شاعر ومغنٍ مجيد، عاصر الرشيد، ولقي إبراهيم ابن المهديّ، وله قصائد جليلة في رثاء بني أمية. (الأصفهاني، الأغاني، ٣٢٤/٤).

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٤، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٧، ص٤٠.

(٣) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٣٦-١٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٢٣.

(٦) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣١.

* دنانير البرمكية: مغنّية، كانت جارية ليحيى بن خالد البرمكي، وكان الرشيد يخصّصها عنده للغناء، ماتت سنة ٢١٠هـ. (الأصفهانيّ، الأغاني، ١٣٨/١٠).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمام الرّشيد، فلم يُعْجَبْ بها الرّشيد، ثمّ التفت إلى إبراهيم، وسأله عن رأيه بها، فقال إبراهيم: "رأيتها تختله برفق وتَقْهرُه بحذق"(١).

وقد كان إبراهيم يداوم على حضور مجالس الغناء حتّى في أشدّ ظروفه وأحواله، فقد حضر عندما كان متوارياً عن أنظار المأمون الكثير من المجالس، وعقد عدداً منها(٢).

٤ - غناء إبراهيم لغيره من الشّعراء وألحانه فيه:

كان الغناء والشّعر في العصور القديمة متلازمَيْن، فالشّعر ينظمه النّاظم، فيأتي مغنّ فيلحّنه، ويعطيه لحناً خاصاً. ولم يكن المغنّون كلهم يغنّون بأشعارهم، فبعضهم كان ينظم ويغنّي، وبعضهم يأخذ من شعر غيره ويغنّيه. وقد جمع إبراهيم بن المهديّ الأمرَيْن معاً، فقد كان يغنّي من شعره(٣)، كما كان يغنّي لغيره من الشّعراء(٤). وإذا نظرنا إلى ما غنّاه إبراهيم من شعره، وما غنّاه لغيره من الشّعراء نجد نزعة واضحة عند إبراهيم لغناء شعره مع وجود الكثير من الأشعار التّي كان يغنّيها لغيره(٥). وقد غنّى إبراهيم بن المهديّ لعدد من الشّعراء منذ العصر الجاهليّ حتّى العصر العبّاسيّ، فقد غنّى لمجنون بني عامر هذه الأبيات:

يـا صـاحِبَيَّ أَلِمّـا بـي بِمَنْزِلَـةٍ ... قَـدْ مَـرَّ حِـينٌ عَلَيْـها أَيُّمـا حِـينِ
إنّـي أَرَى رَجَعـاتِ الْحُـبِّ تَقْتُلُنِـي ... وَكانَ فِـي بَدْئِهـا ما كانَ يَكْفِينِي(٦)

وغنّى إبراهيم بن المهديّ للنّابغة الذّبيانيّ أشعاراً عديدة، منها هذان البيتان:

مُلُـوكٌ وَإِخْـوانٌ إذا مـا لَقِيتُهُـمْ ... أُحَكِّـمُ فِـي أَمْـوَالِهِـمْ وَأُقَـرَّبُ
وَلَكِنَّنِـي كُنْـتُ امْـرَأً لِـي جانِـبٌ ... مِـنَ الأَرْضِ فِيـهِ مُسْتَـرادٌ وَمَطْلَـبُ(٧)

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٨، ص٧٥.

(٢) انظر: التّنوخيّ، المستجاد من فعلات الأجواد، ص٥٥-٦٣.

(٣) ابن الجرّاح، الورقة، ص٢١.

(٤) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١، ص٢٩٦.

(٥) اعتمدنا في إصدار هذا الحكم على كتاب الأغاني وحده، وهو المصدر الوحيد الذّي ركّز على جانب الغناء عند إبراهيم، وتستطيع أن تجد أمثلة لهذه النّزعة في ج١٠، ص١٤٣، وج٧، ص٣٢٢.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، ج٢، ص٢٨. ديوان مجنون ليلى، شرح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة القاهرة، ص١٣٩.

(٧) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١١، ص٤٢. ديوان النابغة الذبياني، شرح محمد بن إبراهيم الحضرمي، ت: علي الهروط، المكتبة الوطنية، ١٩٩٢م، ص٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغنّى لعمرو بن كلثوم التّغلبيّ معلّقته المشهورة:

أَلا هُبِّـــي بِصَحْنِـــكَ فَاصْبَحِينَـــا ... وَلا تُبْـــقِي خُمُـــورَ الأَنْدَرِينَـــا[1]

وغنّى للأحوص غير مرّة فغنّى له هذين البيتين:

رام قَلبِـــي السَّـــلُوَّ عَـــنْ أَسْمَـــاء ... وتَعَـــزَّى وَمَـــا بِـــهِ مِـــنْ عَـــزاءِ

سُخْنَـــةٌ فِـــي الشِّتَـــاءِ بَارِدَةُ الصَّيْـــ ... ـفِ سِـــرَاجٌ فِـــي اللَّيْلَـــةِ الظَّلْمَـــاءِ[2]

وغنّى الغزل لكُثَيِّر عَزّة أبياتاً منها:

حَيِّـكَ عَـزَّةُ بَعْـدَ الْهُجْـرِ فَانْصَـرَفَتْ ... فَحَـيٍّ، وَيْحَـكَ، مَـنْ حَيَّـاكَ يَـا جَمَـلُ

لَـوْ كُنْـتَ حَيَّيْتَهَـا مَـا زِلْـتَ ذا مِقَـةٍ ... عِنْـدِي وَلا مَسَّـكَ الإِدْلاجُ وَالْعَمَلُ[3]

وغنّى لعمر بن أبي ربيعة في مناسبات كثيرة، ومن شعر عمر بن أبي ربيعة الذّي غنّاه إبراهيم:

بِاللَّـهِ يَـا ظَبْـيَ بَنِـي الْحَـارِثِ ... هَـلْ مَـنْ وَفَـى بِـالْعَهْدِ كَالنَّـاكِثِ

لا تَخْدَعَنِّـي بِالْمُنَـى بَاطِـلاً ... وَأَنْـتَ بِـي تَلْعَـبُ كَالْعَـابِثِ[4]

وغنّى لمروان بن أبي حفصة هذه الأبيات:

هَـلْ تَطْمِسُـونَ مِـنَ السَّمَـاءِ نُجُومَهَـا ... بِـأَكُفِّكُمْ أَوْ تَسْتُـرُونَ هِلالَهَـا

أَمْ تَجْحَـدُونَ مَقَالَـةً عَـنْ رَبِّكُـمْ ... جِبْرِيـلُ بَلَّغَهَـا النَّبِـيَّ فَقَالَهَـا[5]

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١١، ص٥٢. معلّقة عمرو بن كلثوم، شرح أبي الحسن بن كيسان، ت: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ص٢٢.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج١٠، ص١٥٢. شعر الأحوص الأنصاري، ت: عادل سليمان جمال، تقديم له: شوقي ضيف، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢، ١٩٩٠م، ص٨٧.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج٩، ص٤٣. ديوان كثير عزّة، شرح قدري مايو، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٥م. حيّيتك: الخطاب للجمل. المقة: المحبة والوجد. الإدلاج: السير.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج١، ص٢٩٦. ديوان عمر بن أبي ربيعة، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص١٢٧. الناكث: هو الذي يغيّر العهد ويخونه. الحارث: الرزق والمال.

(٥) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص٨٧. شعر مروان بن أبي حفصة، ت: حسين عطوان، دار المعارف بمصر، ص٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغنّى كذلك قصيدة لبكر بن خارجة*، منها:

قَلْبِـي إِلَـى مـا ضـرَّنِي داعِـي ... يُكْـثِرُ أَحـزانِي وَأَوْجاعِـي

لـقَلَّ مـا أَبْقَـى عَلَـى مـا أرى ... يُوشِـكُ أَنْ يَنْعـانِيَ النّاعِـي

كَيْـفَ احْتِراسِـي مِـنْ عَـدُوِّي إِذا ... كـانَ عَـدُوِّي بَيْـنَ أَضْلاعِي؟ (١)

وغنّى إبراهيم بن المهديّ لبعض مَنْ عاصره من الشّعراء العبّاسيين، ومنهم: أبو نواس، وقد غنّى له إبراهيم أمام الأمين هذه الأبيات:

يـا كَثِـيرَ النَّـوْحِ فِـي الدِمَـنِ، ... لا عَلَيْهـا بَـلْ عَلَـى السَّـكَنِ

سُنَّـةُ الْعُشّـاقِ واحِـدَةٌ، ... فَـإِذا أَحْبَبْـتَ فَاسْتَكِـنِ (٢)

وغنّى لأبي العتاهية أبياتاً منها:

نـادَتْ بوَشْـكِ رَحِيلِـكَ الأَيّـامُ، ... أَفَلَسْـتَ تَسْـمَعُ أَمْ بِـكَ اسْـتِصْمامُ!

وَمَضَـى أَمـامَكَ مَـنْ رَأَيْـتَ، وَأَنْـتَ لِلْـ ... ـبـاقِينَ، حَتَّـى يَلْحَقُـوكَ، إِمـامُ

مـا لِـي أَراكَ كَأَنَّ عَيْنَـكَ لاَ تَـرَى ... عِيَـراً تَمُـرّ، كَأَنَّهُـنَّ سِهـامُ (٣)

وقد كان إبراهيم يستنشد الشّعراء ويطلب منهم أفضل أشعارهم ليغنّيها، ومن ذلك طلبه من خالد الكاتب* أن ينشد أحد أشعاره أمامه(٤). وكان عدد من الشّعراء ينقطعون إليه ويعطونه من أشعارهم لغنائها، ومنهم: محمّد بن أمية* الّذي كان ينادم إبراهيم وينقطع إليه(٥).

---

* بكر بن خارجة: هو مولى لبني أسد، سكن الكوفة، عمل في الوراقة، كان معاقراً للخمر، وكان طيب الشعر، مليماً مطبوعاً طبعاً ماجناً. (الأصفهاني، الأغاني، ٢٣/ ١٩٧).

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٢٣، ص٢٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٧١. شرح ديوان أبي نواس، شرح إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، ط١، ١٩٨٣م، ج٢، ص٤٧٢. الدمن: جمع الدمنة، هي عشب الديار وبقايا السكان. السكن: القوم المساكنون. السنّة، العرف والتقليد. استكين: اخضع.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج١٨، ص٣٥٨. ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م، ص٣٩٥.

* خالد الكاتب: هو خالد بن يزيد، يُكنى أبا الهيثم، من أهل بغداد، كان أحد كتاب الحبش، تُوفي سنة ٢٦٢هـ. (الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/٢٩١).

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٢٠، ص٢٩٦-٢٩٧.

* محمد بن أميّة: كاتب، شاعر ظريف، وكان حسن الخطّ والبيان. وكان يكتب للمهدي على بيت المال، وكان يأنس المهدي به لأدبه وفضله ومكانه من ولائه. (الأصفهاني، الأغاني، ١٢/١٧١).

(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج١٢، ص١٧١-١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ممّا سبق نلحظ أنّ إبراهيم لم يكتفِ بغناء شعره، بل تعدّى ذلك إلى غيره من الشّعراء، فأخذ من أشعارهم، وغنّاها. وتَكْمُنُ أهمّيّة غناء إبراهيم لغيره من الشّعراء في أنّه كان يضع ألحان الأشعار التّي يأخذها من غيره، ويغنّيها بلحن مخصوص يتميّز به عن غيره من المغنّين الّذين يغنّون للشّاعر ذاته. وهذا ملمح من ملامح التّميّز عند إبراهيم، فهي ألحانٌ خاصّة به، والألحان* الّتي كان يغنّي بها إبراهيم وصنعها لنفسه متعدّدة، نذكر منها لحن الخفيف الثّقيل*، وقد غنّى به أبياتاً لأبي العتاهية[١]. وغنّى بالخفيف الثّقيل أبياتاً للحسين بن الضّحاك[٢].

ومن الألحان التّي أكثر إبراهيم بن المهديّ من استخدامها لحن الرّمل*، فقد كان له خفيف الرّمل بالبنصر*، وغنّى بهذا اللّحن أبياتاً نظمها أمام الرّشيد، وكان غناؤها وتَلْحينها ساعة نظمها، وهذه الأبيات هي:

ثَلاَثُ عُيُونٍ مِنَ النَّرْجِسِ ... عَلَى قَائِمٍ أَخْضَرٍ أَمْلَسِ

يُذَكِّرُنَنِي طِيبَ رَيَّا الْحَبِيبِ ... فَيَمْتَعْنَنِي لَذَّةَ الْمَجْلِسِ[٣]

وقد غنّى بهذا اللّحن أبياتاً لغيره من الشّعراء، منهم أبو العتاهية، فقد غنّى له به:

قَالَ لِي أَحْمَدُ وَلَمْ يَدْرِ مَا بِي ... أَتُحِبُّ الْغَدَاةَ عُتْبَةَ حَقًّا[٤]

---

* الألحان: كان الغناء قديماً على ثلاثة أوجه: النّصب، والسّناد، والهزج. والمعتدّ به عند المغنّين الثّاني والثّالث. والسّناد هو الثّقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات، وهو على ستّ طرائق: الثّقيل الأوّل وخفيفة، والثّقيل الثّاني وخفيفه، والرّمل وخفيفه. أمّا الهزج فهو الخفيف. (ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨-٢٩).

* لحن الخفيف الثّقيل: هو أن يضرب الموسيقي ثلاث فقرات متوالية. (معجم الموسيقى، ص٧٥).

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٢، ص٢٨-٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص١٦٧.

* الرمل: هو نقرة ثقيلة، ثم خفيفتان. (معجم الموسيقى، ص٧٨).

* خفيف الرمل بالبنصر: هو نقرة ثقيلة، ثم خفيفتان متواصلتان، ويتم ذلك بالأصبع البنصر. (معجم الموسيقى، ص٧٥).

(٣) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٣٥. ديوان أبي العتاهية، ص٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغنّى بخفيف الرّمل أبياتاً للدّارميّ[١]*، وغنّى من شعره رملاً بالوُسْطَى[٢]. وغنّى إبراهيم بن المهديّ بلحن الثّقيل بأنواعه المتعدّدة، فغنّى لقيس بن ذريح* بلحن الثّقيل الأوّل* بالوسطىّ[٣]، وغنّى بالثّقيل الأوّل بالبنصرّ[٤]، وغنّى من شعره بلحن الثّقيل الثّاني* في الأصبع الوسطىّ[٥].

وغنّى إبراهيم على طريقة الهزج* أبياتاً كثيرة، منها: أشعار له غنّاها حين اختفائه[٦]. ومن الأبيات التّي اشترك إبراهيم في غنائها مع غيره من المغنّين، وكان له فيها ألحان مخصوصة اختلف فيها مع الآخرين، نذكر أبياتاً للحارث بن خالد المخزومي*، فقد غنّى معبد هذه الأبيات بطريقة الثّقيل الأوّل بالبنصر، وغنّاها الغريض* بطريقة الثّقيل الأوّل بالبنصر أيضاً. وغنّاها إسحاق الموصليّ بطريقة الثّقيل الثّاني، أمّا إبراهيم فقد غنّاها بطريقة الخفيف الثّقيل بالسّبابة[٧]. واشترك إبراهيم مع مخارق وإبراهيم الموصليّ بغناء أبيات خالفهما في طريقة أدائها، فقد كان لحن مخارق فيها ثقيلاً أوّلاً، وكان لحن إبراهيم الموصليّ من الثّاني الثّقيل، أمّا إبراهيم فأدّى هذه

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٢٤.

* الدّارمي: هو سعيد الدّارمي التميمي، شاعر غزل، من المغنّين الظرفاء، من أهل مكة، كان ينظم الأبيات ويضع لحنها، ويغنيها، مات نحو ١٥٥هـ. (الأصفهاني، الأغاني، ٤٦/٣).

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٧، ص٣٢٢ و ج١٧، ص٨٥.

* قيس بن ذريح: هو قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة الكناني، شاعر، اشتهر بحب "لبنى" بنت الحباب الكعبية، من شعراء العصر الأموي، شعره عالي الطبقة، له ديوان شعر، توفى سنة ٦٨هـ. (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٨٢/١).

* لحن الثّقيل الأول: هو النقر ثلاثة ثلاثة، ثم ثقيلتان، ثم نقرة واحدة. (معجم الموسيقى، ص٧٢).

(٣) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٣. الأصفهانيّ، الأغاني، ج٩، ص٢٢٣ و ج١١، ص٢٠٦.

(٤) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٣، ص٣٣٣ و ج١١، ص٤٢.

* لحن الثّقيل الثاني: هو النقر ثقيلتان، ثم نقرة خفيفة. (معجم الموسيقى، ص٧٢).

(٥) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٢. الأصفهانيّ، الأغاني، ج١، ص٢٠٠ و ج٩، ص٤٣.

* الهزج: هو اللحن الذي تتوالى نقراته نقرة نقرة. (معجم الموسيقى، ص١٠٦).

(٦) انظر: الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٦٨.

* الحارث بن خالد المخزومي: هو الحارث بن خالد بن العامر بن هشام المخزومي من قريش، شاعر غزل، نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة، كان يهوى عائشة بنت طلحة، توفي سنة ٨٠هـ. (الأصفانيّ، الأغاني، ١١٦/١).

* الغريض: هو عبدالملك، كنيته أبو يزيد، لقب بالغريض لجماله، وهو من أشهر المغنين في صدر الإسلام، توفي سنة ٩٥هـ. (الأصفهاني، الأغاني، ٢٤٧/١).

(٧) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٣، ص٣٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأبيات بطريقة اللّحن الماخوريّ* (١). وخالف إبراهيم غيره من المغنّين في طريقة غناء أبيات لكثير من الشّعراء(٢).

وقد كان إبراهيم بن المهديّ يصحب بعض الألحان الّتي يصنعها بحركات تعبيريّة وجدانيّة تبرز تفاعل إبراهيم مع اللّحن وتكشف تأثره بالمعاني الّتي يغنّيها، ومن ذلك أنّه غنّى بيتين له نظمهما متحسّراً على ما فاته من العمر، يقول فيها:

ذَهَبْتُ مِنَ الدُّنْيا وَقَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي ... هَوَى الشَّيْبُ بِي عَنْها وَوَلَّى بِها عَنِّي

فَإِنْ أَبْكِ نَفْسِي أَبْكِ نَفْساً نَفِيسَةً ... وَإِنْ أَحْتَسِبْها أَحْتَسِبْها عَلى ضَنِّ

وقد غنّاهما بطريقة الثّقيل الثّاني نوحياً على عمد، وجعل يغنّي ويبكي(٣).

من عرضنا السّابق للألحان الّتي كان يغنّي بها إبراهيم نلمح ميل إبراهيم لأداء الألحان الخفيفة، فالثّقيل الأوّل وجدناه مستخدَماً عنده بكثرة، وكذلك خفيف الرّمل كان له استخدام وافر عنده، ومال أيضاً إلى الهزج. ولمحنا ابتعاده عن أداء الثّقيل من الألحان، وميله إلى الألحان الخفيفة سمة اتّسمت بها مدرسته الغنائيّة كما سنرى بعد قليل.

ب - مدرسة إبراهيم بن المهديّ الغنائيّة:

تزعّم إبراهيم بن المهدي مدرسة غنائيّة استقلّت بأصول ثابتة خالفت بها غيرها من المدارس. وقد ظهرت هذه المدرسة مخالفة لاتجاه آخر برز معها، وتزعّمه إسحاق الموصليّ. وقد قامت هاتان المدرستان على أصول مختلفة، ممّا أوجد تنافساً بين أنصارهما وخلافاً كبيراً في طرق الغناء وألحانه(٤). وسنعرض أبرز ملامح مدرسة إبراهيم بن المهديّ الّتي خالف بها إسحاق الموصليّ متّخذين الموازنة مع إسحاق الموصليّ حيثما اقتضت الحاجة إلى ذلك، ثمّ نعرض لصور من المنافسة والخلاف بين قطبَيْ المدرستَيْن الغنائيّتين السّابقتين.

---

* اللحن الماخوري: نوع من الألحان منسوب إلى الشيخ إيليس، وسُمي بالماخوري، لأنّ إبراهيم الموصلي كان يكثر الغناء في طريقته في المواخير، وهو خفيف الثّقيل الثاني بالوسطى. (معجم الموسيقى، ص٩٥).

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٨، ص٣٧٠.

(٢) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٥٢-٥٣. انظر: الأصفهاني، الأغاني، ج١٨، ص٣٥٨-٣٥٩، وج٢٣، ص٢٠٠، وج١١، ص٢٠٠-٢٠١، وج١٩، ص٧٩، وج٣، ص١٤٤.

(٣) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٢. الصّفديّ، الوافي بالوفيات، ج٦، ص١١٢.

(٤) ليلى فياض، موسوعة أعلام الموسيقى، ص٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقّرت كتب الغناء العربيّ القديم بوجود اتّجاه غنائيّ لإبراهيم بن المهديّ مستقلٌ عن أي اتجاه آخر.وذكرت هذه الكتب العديد من الأنصار والمؤيّدين لهذا الاتّجاه[١].

وقد قام اتجاه إبراهيم الغنائيّ على مخالفة أصول الغناء العربيّ القديم، وتصرّف به تصرّفاً تامّاً، فقد عُرِفَ عن أصحاب هذا الاتّجاه أنّهم يغنّون الغناء القديم كما يشتهون لا كما غنّاه من يُنْسَبُ إليه. وقد مال اتجاه إبراهيم الغنائي إلى التّخفيف في الألحان والابتعاد عمّا ثقل وثقلت أدواره* [٢]، فقد نُقِلَ عنه أنّه قال: "أنا ملك وابن ملك، أغنّي كما أشتهي، وعلى ما ألتذّ"[٣].

وقد عُرِفَ عن اتّجاهه الغنائيّ الحذف في نغم الأغاني التّي تحتاج إلى عمل كثير، فكان التّخفيف الّذي يناسب المغنّي سمة أساسية اتّسمت بها مدرسته[٤].

ممّا سبق نلحظ أنّ مدرسة إبراهيم بن المهديّ الغنائيّة تتسامح في أداء الغناء القديم، والخروج عن أصوله كيفما أراد المغنّي، فكانت هذه المدرسة تميل إلى الليونة والخفّة والسّهولة، فالتّصرّف بأصول الغناء القديم وأدائه مباح عند مدرسة إبراهيم بن المهديّ.

لقد وضع هذا التوجُّه مدرسة إبراهيم في خلاف أصوليّ مع مدرسة إسحاق الموصليّ، فلئن اتّجه إبراهيم نحو التّخفيف واللّيونة في أداء القديم، وأجاز تغييره، فإنّ مدرسة إسحاق الموصليّ تشدّدت في ذلك. فمدرسة إسحاق الموصليّ تنكر تغيير القديم، وتعظم الإقدام عليه، وتتشدّد كثيراً في أيّ تغيير في طرق أدائه. فقد سلك رواد هذه المدرسة سبيل القدماء وقلّدوهم في طرق أدائهم[٥]. واستناداً إلى ما سبق، من الممكن أن تُعدّ مدرسة إبراهيم بن المهدي خروجاً على القديم، فهو بذلك زعيم مدرسة غنائيّة جديدة، تقف إزاء اتّجاه يحرص على أداء الألحان كما هي مؤدّاة من مصادرها القديمة دون أيّ تغيير.

ووفقاً للتّوجُّه السّابق في مدرسة إبراهيم، فإنّه لم يحتذ بالنّماذج الغنائيّة الموروثة كما كان يفعل إسحاق. وهذا يظهر سمة أخرى من سمات مدرسة إبراهيم، وهي بعدها عن التّكلُّف والتّعقيد الّذي يثقل على المغنّين ويجشمهم جهوداً صوتيّة لا قبل لهم بها.

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص٨٦، و ج١٣، ص١٣٤.

* الدور: في اللغة الموسيقية هو الّذي يبحث في قواعد الموسيقى ومقاماتها. (معجم الموسيقى، ص٤٦).

(٢) انظر: الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ج١٠، ص٨٦.

(٤) المصدر نفسه، ج١٠، ص٨٦.

(٥) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان اتجاه إبراهيم يميل إلى تحريك الغناء واللعب به، وقد أثار هذا التّوجُّه إسحاق الموصليّ، فقد غنّى إبراهيم يوماً أبياتاً حرّك فيها في اللّحن، فبلغ إسحاق ذلك، فأثار غضبه، واتّهم إبراهيم بالعجز عن أداء الغناء بأصوله. وقد كان إبراهيم يزعم أنّ حلاوة الغناء تحريكه[١].

ولم يكتفِ إبراهيم بالخروج على الغناء القديم والتّخفيف فيه، بل مزج ألحانه الجديدة الّتي خرج بها على الغناء القديم بألحان فارسيّة، فأخرج منها طابعاً خاصّاً ولوناً جديداً، لذلك عُدَّتْ مدرسة إبراهيم بن المهديّ امتداداً للمدرسة الفارسيّة البيزنطيّة الّتي تأسّست في العصر الأمويّ على يد ابن مِسْجَح* [٢].

ولئن أُثِرَ عن مدرسته التّخفيف والتّسامح بأداء القديم، فإنّها لم تترك غناءها مبتذلاً، فقد كانت تتحقّق بالغناء تحقّقاً شديداً[٣].

ولعلّ ما أُثِرَ عن مدرسة إبراهيم من التّخفيف والتّسهيل، راجع إلى نظرة هذه المدرسة إلى الغناء وكيفيّة إتقانه، فهذه المدرسة تؤمن بالطّبع في نفس المغّني قبل أيّ شيء آخر. فإذا كان المغّني مطبوعاً على الغناء جاز له أن يغنّي كيفما أراد. وتظهر هذه السّمة في مدرسة إبراهيم من خلال إيمانه التّامّ بالطّبع في الغناء. فإبراهيم يؤمن أنّ هناك ثلاثة أشياء، إنْ لم يكن لصاحبها الطّبع لم يمكنه معرفته، ومنها: المعرفة بالغناء وأداء الألحان وغناء الأصوات على مثال واحد[٤]. وبهذا نرى أنّ الطّبع والموهبة في هذه المدرسة مقدّمان على العلم وإنْ كان العلم لازماً للطّبع والموهبة.

وقد صاحب الخلاف بين مدرسة إسحاق ومدرسة إبراهيم في التّعامل مع الغناء القديم خلاف في طرق أداء الألحان ومسمّياتها. فقد خالف إبراهيم بن المهديّ إسحاق الموصليّ بتسمية الثّقيلَيْن وخفيفيهما. فقد سمّى إبراهيم الثّقيل الأوّل وخفيفه - الّذي عليه إسحاق وأنصاره - الثّقيل الثّاني وخفيفه، وسمّى الثّقيل الثّاني وخفيفه الثّقيل الأوّل وخفيفه. فهو كما نلاحظ على العكس

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٥٩-٢٦٠.

* ابن مسجح: هو سعيد بن مسجح مولى بني مخزوم، ملحن، من كبار المغنين، كان أسود، أخذ ألحام الروم في الشام، وانتقل إلى فارس، فنقل غناءه إلى غناء العرب، وله مذهب في التلحين تبعه فيه الناس. (الأصفهاني، الأغاني، ٩٦/١).

(٢) فؤاد سزكين، تاريخ التّراث العربيّ، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، السعودية، ١٩٩١م، مج١، ص٢٦٠. ليلى فياض، موسوعة أعلام الموسيقى، ص٥. محمود أحمد الحفني، إسحاق الموصليّ الموسيقار النديم، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م، ص١٠٦.

(٣) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص٨٥.

(٤) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تماماً في النّظر إلى الألحان[١]. كما اختلفا كثيراً في تجزئة الأبيات وقسمتها وتنازعا كثيراً في أمور الغناء. وسنشير لاحقاً إلى العديد من هذه المنازعات في بحثنا عن العلاقة بين المدرستين.

ولا تسعفنا مصادر الغناء العربيّ بكثير من ميزات مدرسة إبراهيم بن المهدي، فغاية ما تذكره هذه المصادر أنّ إبراهيم كان يخالف أصول الغناء القديم دون أن توضّح لنا كيفيّة هذه المخالفة، ودون أن تبرز ملامح اتّجاهه. ولعل هذا يدلّ على عدم شيوع مدرسته واضمحلالها. وقد تنبّه أبو الفرج الأصفهانيّ إلى ذلك، فذكر أنّ إبراهيم بن المهديّ وضع لمدرسته مقاييس لتُعْرَفَ بها أحوال الألحان، وطرائق الغناء، وأمسك كلٌّ واحد منها بمكاييل قويّة، إلاّ أنّ قول إبراهيم بن المهديّ اضمحل وبطل وتُرِكَ[٢]. وأشار الأصفهانيّ إلى شيوع مدرسة إسحاق الموصليّ، وانحصار مدرسة إبراهيم. وذكر في مقدّمة كتابه الأغاني- الّذي يُعَدُّ أوسع مصدر غنائيّ قديم - أنّ كلّ ما ذكره من نسب الأغاني إلى أجناسها قد كان على مذهب إسحاق الموصليّ، فمذهبه كما يقول أبو الفرج: هو المأخوذ به اليوم دون مذهب مَنْ خالفه مثل إبراهيم ابن المهديّ[٣].

ما سبق يدفعنا إلى البحث عن أسباب اضمحلال مذهب إبراهيم الغنائيّ وترك النّاس إيّاه. فلماذا بطل مذهب إبراهيم؟ لعلّ النّظر في أسس مدرسة إبراهيم يوقفنا على الإجابة الحاسمة للسّؤال السّابق، فمخالفة إبراهيم لأصول الغناء القديم، وخروجه عنها، وعدم تمسُّكه بها، ومحاولته تغيير ما أُثِرَ عن القدماء، أبعدت المهتمّين بأمور الغناء عنه، كما أوجدت قطيعة بينه وبين النّاس. ومن الممكن أن يكون للمقام الّذي كان يتمتّع به إبراهيم دور في عدم انتشار مذهبه الغنائيّ مع أنّه كان أشدّ النّاس تعظيماً لهذا الفنّ وأحرصهم عليه. وقد ظهرت من إبراهيم أقوال تبرز ترفعه عن الغناء، فهو يقول: "لولا أنّي أرفع نفسي عن هذه الصناعة لأظهرتُ فيها ما يَعلَمُ النّاسُ معه أنّهم لم يرَوْا قبلي مثلي"[٤].

وقد أُثِرَ عنه أنّه كان يصنع الألحان وينسبها إلى جواريه[٥]، ولعلّه كان لذلك دور في ضياع مذهبه وعدم تحدُّده في كتب القدماء.

وهذا الاضمحلال في مذهب إبراهيم لا يرجع إلى قصور في أداء الغناء، أو عجز عنه أو عدم إحاطة به، وإنّما ما ذكرناه هو السّبب. وعلى الرّغم من ضياع مذهب إبراهيم فقد وُجِدَ له

---

(١) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٣. الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٢٠.

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٥.

(٤) المصدر نفسه، ج١٥، ص١٢١.

(٥) ابن منظور، مختار الأغاني، ط١، ج١، ص٢٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنصار وتلاميذ تبعوه واقتفوا به. ومن هؤلاء التّلاميذ: مخارق، وشارية، فقد عُرِفَ عنهما التزامهما التّامّ اتّجاه أستاذهما في الغناء [١]. ومن هؤلاء التّلاميذ: محمّد بن الحارث الذّي كان من المتعصّبين لإبراهيم بن المهديّ والمدافعين عنه. وقد أخذ محمّد بن الحارث الغناء عن إبراهيم وجرى على منهجه[٢]. وكان عبدالله بن دَحْمان ينتصر لإبراهيم ويقف قبالة أخيه الزُّبَيْر الّذي كان منحازاً إلى إسحاق الموصليّ[٣].

العلاقة بين مدرسة إبراهيم بن المهديّ ومدرسة إسحاق الموصليّ:

لقد كان لقيام مدرسة إبراهيم بن المهديّ ومدرسة إسحاق الموصليّ على أسس مختلفة أثرٌ في توجيه العلاقة بينهما نحو التّنافس والاحتدام بين قطبي هاتين المدرستين. وكانت بلاطات الخلفاء ومجالس الغناء المعقودة في غير هذه البلاطات تشهد مثل هذا التّنافس حين يجتمع إبراهيم ابن المهديّ وإسحاق الموصليّ فيها.

ولئن كان الاختلاف في الأسس سبباً في وجود هذا التّنافس، فقد كان للعوامل الماديّة دور في احتدام التّنافس بين قطبَيّ المدرستَين، إضافةً إلى العوامل المعنويّة المتحصّلة تفوّق أحدهما على الآخر. وقد احتدم التّنافس بين إبراهيم وإسحاق، وجرت بينهما منازعات ومشاحنات ومناظرات عديدة، تتّصل بأمور الغناء وأصوله. وقد أشار أبو الفرج الأصفهانيّ إلى وجود التّنافس والتّصادم بين إبراهيم وإسحاق، وذهب إلى أنّ إبراهيم بن المهديّ هو الّذي أوجد أسباب التّنافس والتّعصّب وقوّاها[٤]. ويذكر أنّ المنازعة والمجادلة والتّلاحي كانت سمة واضحة في علاقة المدرستين، فإبراهيم كما يقول الأصفهانيّ "كان يُماظُّ إسحاق ويُجادله ولا يقوم له ولا يَفِيَ به"[٥]. ممّا سبق نلحظ أن التّنافس بين المدرستين كان واضحاً وصريحاً، ولم تخلُ السّاحة الغنائيّة في ذلك الوقت منه.

وللتّنافس القائم بين هاتين المدرستين لا نكاد نجد مجلساً يجتمع فيه إبراهيم بن المهديّ وإسحاق الموصليّ إلاّ اختلفا فيه وتنازعا، واحتدّ أحدهما على الآخر، وحاول أن يظهر أمام الآخرين أنّه الأفضل والأصحّ. ومن المنازعات الكثيرة التّي جرت بين إبراهيم وإسحاق اختلافهما حول معبد وابن سُرَيْج، وأيّهما يفضل الآخر، فقد كان رأي إبراهيم بن المهديّ أنّ ابن سُرَيْج مقدَّم

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٤، ص٩٠.

(٤) المصدر نفسه، ج١٨، ص٣٨٠.

(٥) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٢٠. يماظّ: ينازع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على معبد، وأنّه إذا أحسن معبد يقال: أصبح اليوم سُرَيْجِيًّا، خلافاً لإسحاق الموصليّ الّذي كان ينتصر لمعبد ويقدّمه على ابن سُرَيْج[١].

وقد قامت بين إبراهيم وإسحاق مناظرات عديدة في التّجزئة والقسمة في الغناء، ويذكر الأصفهانيّ أنهما ماتا، وبينهما منازعة في قسمة هذا الصّوت وتجزئته وهو:

حَيِّيَا أُمَّ يَعْمَرَا قَبْلَ شَحْطٍ مِنَ النَّوَى

فلم يُفْصَلْ بينهما في قسمة هذا الصّوت إلى أن افترقا[٢].

وللمنافسة التي كانت قائمةً بينهما كان كلّ واحد منهما يصدر أحكاماً على الآخر بعدم الإتقان والإحسان، فلم يكن إبراهيم يتورّع عن تخطئة إسحاق ونَفْيِ الجودة عنه، ولم يتورّع إسحاق أيضاً عن اتّهام إبراهيم بعدم معرفة الغناء[٣].

وقد كانت الرّغبة في كسب رضى الخلفاء وإظهار التفوّق أمامهم سبباً في احتدام التّنافس بينهما. ويذكر الأصفهانيّ أنّ إسحاق وإبراهيم إذا خلوا فهما أخَوان، وإذا التقيا عند خليفة تكاشحا أقبح تكاشح[٤]. فقد كانا يلجآن إلى سرقة الألحان من بعضهما. فقد طلب المأمون من عمّه إبراهيم ابن المهديّ يوماً أن يصنع له أبياتاً ويغنّيها بلحن رصين، وطلب منه أن يبكّر بالحضور في الغد ليسمعها منه، وكان إسحاق الموصليّ حاضراً في ذلك المجلس، فقال: "واللهِ لأكيدَنَّ لإبراهيم ولأَسْرِقَنَّه منه"[٥]. ففعل إسحاق ما أقسم عليه، وقد تسلّل إلى بيت إبراهيم وسرق لحنه وغنّاه في الغد في مجلس المأمون قبل أن يأتي إبراهيم، فبهُت إبراهيم عندما أخبره المأمون أنّ إسحاق قد غنّاه، ولم يزل على حاله تلك حتّى اعترف إسحاق بسرقة هذا اللّحن من إبراهيم[٦]. وللتنافس القائم بين هاتين المدرستين نجد أن إبراهيم يسرق ألحاناً لإبراهيم الموصليّ، ويدّعيها لنفسه في مجلس غنائيّ عقده الرّشيد[٧]. والرّغبة في كسب رضى الخلفاء كانت غاية عند إبراهيم وإسحاق حتّى في علاقتهما مع بقيّة المغنّين، فياقوت الحمويّ يذكر أنّ إسحاق كان من أشدّ النّاس بخلاً

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٩، ص٣٨٣-٣٨٤.

(٢) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٥. الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٢١.

(٣) المَرْزُبانيّ، الموشّح، ت: عليّ محمّد البجاويّ، نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ص٣٣٣. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، ج٢، ص٥٩٧-٥٩٩.

(٤) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٥، ص٣٦٥.

(٥) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٤٠٩-٤١١.

(٦) المصدر نفسه، ص٤٠٩-٤١١.

(٧) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٥، ص١٨٨-١٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على جواريه وغلمانه، فلا يعطيهم الأصوات المميّزة، خوفاً من أن يسبقوه إلى بلاطات الخلفاء[١]. وكذلك الحال بالنّسبة لإبراهيم، فقد كان يحرص على الاحتفاظ بالأصوات المميّزة التّي يصنعها، خوفاً من تسرّبها إلى غيره من المغنّين حتّى لا يسبقوه إلى الخلفاء. فقد منع صوتاً استحسنه المأمون عن تلميذه مخارق، ورفض أن يعطيه إيّاه صحيحاً[٢]. وقد كان إبراهيم يدرك أهميّة كسب رضى الخلفاء، فقد أُثِرَ عنه أنّه يقول: "واللهِ ما استبقاني المأمون محبّةً لي، ولا صلةً لرحمي، ولكنّه سمع من هذا الجِرم شيئاً فقده من سواه، واستبقاني لذلك"[٣].

وقد كان كل من إبراهيم وإسحاق يحرص على دحر الآخر وهزيمته أمام الخلفاء، فقد اجتمعا يوماً في مجلس المعتصم، فأعطى إسحاق إبراهيم عوداً تعمّد تشويش أوتاره، وطلب من إبراهيم أن يغنّي، فعجز إبراهيم عن ذلك، فتعجّب المعتصم، وانكسر إبراهيم[٤]. ولعلم الخلفاء بما بين إبراهيم وإسحاق من التّنافس، فقد كانوا يسألون أحدهما عن الآخر، ليعرفوا مقداره في الغناء ممّنْ يعرف أصوله، ومن ذلك أنّ المأمون سأل إسحاق الموصليّ عن إبراهيم بن المهديّ ومخارق – وهما من مدرسة واحدة – فقال إسحاق: يا أمير المؤمنين إذا تغنّى إبراهيم بعلمه فضل مخارقاً، وإذا تغّنى مخارق بطبعه وصوته فضل إبراهيم[٥]. وقد كان الخلفاء يعملون على الجمع بين إبراهيم بن المهديّ وإسحاق الموصليّ في بلاطاتهم والطّلب من أحدهما غناء صوت ما، ويسألون الآخر عن رأيه في هذا الغناء ويحكمون على أحدهما. كلّ ذلك لعلم الخلفاء لِمَا بينهما من تنافس في الغناء. ومن ذلك أنّ المأمون طلب يوماً من إسحاق أن يغنّي لحناً من شعر للأخطل ذكره له، فغنّاه إسحاق واستحسنه المأمون، ثم سأل المأمون إبراهيم إنْ كان له لحن في الشّعر الّذي غنّاه إسحاق، فغنّى إبراهيم فاستحسنه المأمون، وقدّمه على ما صنعه إسحاق الموصليّ[٦].

وقد تبادل الطّرفان الظّفر بالمناظرات التّي كانا يجريانها، فتارةً يتفوّق إبراهيم بن المهديّ، وأخرى إسحاق الموصليّ، وقد كانت تبدو على المنهزِم منهما في مناظرة علائم الانكسار

---

(١) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، ج٢، ص٥٩٧.

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٢٧-١٢٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦١.

(٤) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٥٣٦.

(٥) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٨، ص٣٥١.

(٦) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحزن، وكان الواحد منهما يسلّم للآخر حين يشعر بهزيمته. ومن ذلك أنّ إبراهيم تناظر مع إسحاق في معبد وابن سرَيْج، وأيّهما يتقدّم على الآخر في أمر الغناء، وكان رأي إبراهيم، أنّ ابن سُرَيْج يَفْضُلُ معبداً، وكان رأي إسحاق أنّ معبداً يَفْضُلُ ابن سريجٍ، فسلّم إسحاق برأي إبراهيم بعد جدالٍ بينهما، ولم يَصْدُرْ من إسحاق أيُّ ردٍّ على ذلك، وأبدى أنّ ما يقوله من تقدّم معبد على ابن سريج إنّما هو رأي النّاس، يقول إسحاق: "هي كلمة يقولها النّاس لم أقلها اعتقاداً فيها، تكلّمت بها على العادة"(١).

وقد انقلب التّنافس بينهما إلى خصومة شديدة بَلَغَتْ حَدَّ المشاتمة والتّناحر، فقد بلغ الأمر بإبراهيم أن يشتم الموصليّ في أمّه، فقال له مرّةً: "ويلك يا إسحاق، تَجْتَرِىء عليَّ وتقول ما قلت يا ابن الزّانية؟"(٢). وقد وصل به الحال أيضاً أن يطلب من أحد الأعراب أن يكتب شعراً في إسحاق ينسبه فيه إلى الخُلْف والكذب(٣). وقد كان إسحاق الموصليّ يقف أمام شتائم إبراهيم له موقف السّاكت المغلوب على أمره مراعاةً لِمَا له من النّسب العالي، فقد قال له يوماً بعد أن شتمه إبراهيم: "أنت تشتمني ولا أقدر على إجابتك، وأنت ابن الخليفة وأخو الخليفة ولولا ذلك قد كنت أقول لك يا ابن الزّانية"(٤). وعلى الرّغم من ذلك فقد كان إسحاق يتعمّد إثارة إبراهيم، فقد جرى بينهما تحاور رَفَعَ فيه إسحاق من قدر إبراهيم، فأجابه إبراهيم بِمَا يدلّ على عدم اهتمامه بما قال إسحاق، فيصوّر إسحاق ما جرى ويقول: "فقلتُ في نفسي واللهِ لأبغضنه ما قلت، فقلت: سيدي قد غنّيتَ لنفسك أصواتاً كثيرة، فهل قمت على حقّ صوت منها حتّى استوفيته كلّه؟" (٥).

ومع ما كان إبراهيم بن المهديّ يتمتع به من المكانة الرّفيعة في الغناء وأصوله، فإنّ جانب الهيبة والخشية من إسحاق كان ظاهراً في نفسه. يذكر ياقوت الحمويّ "أنّ إبراهيم بن المهديّ كان يأكل المغنّين أكلاً حتّى يَحْضُرَ إسحاق فيداريه إبراهيم ويطلب مكافأته، وكان إسحاق آفَتَهُ كما أنّ لكلّ شيء آفَة"(٦).

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١، ص٣٨٤.

(٢) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، ج٢، ص٥٩٧.

(٣) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٢٠، ص١٠٣-١٠٤.

(٤) المصدر نفسه، ج٢٠، ص٥٩٨.

(٥) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٢.

(٦) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، ج٢، ص٥٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يتوقّف التّنافس بين مدرسة إبراهيم ومدرسة الموصلي عند زعيمَيْ هـاتين المدرسـتين، بل تَعْدّاه إلى اتباعهما من المغنّين والجواري، فقد اشتدّ الخِصامُ يوما بين جواري إبراهيم ومغنّياته وجواري الموصليّ على أحد الأصوات التّي صنعت شاريةٌ إحـدى مغنّيـات إبراهيـم فتصـدّتْ لهـا عَرِيب* – إحدى مغنّيات إسحاق – وادّعت أنّ هذا الصّوت ليس لها[١]. وقد كان مخارق – تلميذ إبراهيم – يفضّل إبراهيم على المغنّين جميعاً، ويقدّمـه علـى إسـحاق الموصلـيّ وأبيـه إبراهيـم[٢]. وهذا مَظْهَرٌ من مظاهر التّنافس بينهما.

وقد كان تلاميذ المدرستين شديدي الحرص في تعاملهمـا مـع زعيمَـيْ المدرسـتين، فتلاميذ إسحاق يحذرون من التّعامل مع إبراهيم، وتلاميذ إبراهيم يُشْعِرون إسحاق بدُنُوّ مرتبته. ومن ذلـك أنّ إبراهيم بن المهديّ أراد مرّةً أن يأخذ صوتاً من "مُتَيِّم"* – إحدى مغنّيـات إسـحاق – فرفضـت إعطاءه الصّوت، فتتبّعها إبراهيم حتّى أخذ منها الصّوت سرقةً[٣]. ولا شكّ أنّ المنافسة بين هاتين المدرستين وأتباعهما هي التّي دفعت متيّم إلى رفض منـح الصّـوت لإبراهيـم، وهـي التّـي دفعـت إبراهيم كذلك إلى سرقة الصّوت من مُتَيِّم. وقد أَغْلَظَ أحمد بن يوسف – أحد تلاميذ إبراهيم – في الجواب إلى إسحاق الموصليّ يوماً، فقال له: "عنـدي مَـنْ أنـا عَبْـدُه، وحجّتنـا عليـك إعلامُنـا إيّـاه والسّلام"[٤]. وقد أتبع أحمد بن يوسف الجواب السّابق بقوله شعراً:

عِنْـدِي مَـــنْ تُبْهَـــجُ الْعُيُـــونُ بِـــهِ فَـــإِنْ تَخَلَّفْـــتَ كُنْـــتَ مَغْبُـــونا[٥]

وقد كان عند أتباع المدرستين تعصّب شديد لِمَنْ يتّبعون. فكلّ طرف مـن الطّرفَيْن يدافـع عن شيخه ويتعصّب له ويرفع قدره، وقد كان الإخوة يتنافسون ويتعصّـب كـلٌّ منهـم إلـى مدرسـة

---

* عَرِيب: وهي سيدة القيان في الدولة العباسية، مغنية، وجارية، وشاعرة، من أعـلام العارفـات بصنعـة الغنـاء والضرب على العود، عاصرت الرشيد والأمين والمأمون، وسُميت بعريب المأمونية، تُوفّيـت سـنة ٢٧٧هـ. (الأصفهاني، الأغاني، ٢٤٩/٤).

(١) انظر: الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٤، ص٢١٠-٢١١.

(٢) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٦٥-١٦٦.

* متيم: مولاة لُبانة بنت عبدالله بن إسماعيل المواكبي، شاعرة وأديبة، أحسنت صناعة الغناء، اتصلت بالمـأمون والمعتصم، توفيت سنة ٢٢٤هـ. (الأصفهانيّ، الأغاني، ١٢٥/١٠).

(٣) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٧، ص٣١٤-٣١٥.

(٤) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، ج٢، ص٥٦٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما، فعبدالله بن دحمان كان متعصّباً لإبراهيم بن المهديّ، وكان أخوه الزُبَيْر في جنبة إسحاق، ويتعصّب له أيضاً[١].

وقد تحدّث أبو الفرج الأصفهانيّ عن التّنافس بين أنصار هاتين المدرستين، وذكر أنّ المُوَالِين لإسحاق هم الكثرةُ الغالبة[٢]. وذكر كذلك تحامل تلاميذ إبراهيم على إسحاق الموصليّ، فيذكر أنّ يوسف بن إبراهيم – تلميذ إبراهيم بن المهديّ – قد نقل الكثير من الأكاذيب والأخطاء، ونَسَبَها إلى إسحاق[٣]. وقد ظهر من خلال تضاعيف كتاب الأغاني أنّ أبا الفرج الأصفهانيّ ينتصر لإسحاق الموصليّ على إبراهيم بن المهديّ، ومن ذلك أنّه قال عن مذهب إبراهيم يوماً: "وانقضى الصُنْعُ لإبراهيم بن المهديّ بذلك مع انقضاء مدّته كما يضمحلّ الباطل مع أهله"[٤].

ولئن كان الخلاف بين إبراهيم وإسحاق قائماً في جُلّ الأمور التّي يتناظران فيها، فإنّما يتّفقان في بعض الأحيان على حكم واحد. ومن ذلك اتّفاقهما على أفضل ثمانية أصوات غنّاها ابن سُرَيْج[٥]. وقد كان التّراسل بين إبراهيم وإسحاق قائماً بأمور الغناء وما فيه من الألحان، وتَعكِس هذه المراسَلات ليناً وتلطُّفاً في جانب العلاقة بينهما. فقد أرسل إسحاق الموصليّ إلى إبراهيم بن المهديّ يسأله عن أحد الأصوات، وكتب إليه بشعره، وإيقاعه، وتجزئته وقسمته ومقادير أدواره، فغنّاه إبراهيم وشهد له إسحاق بحسن الصّوت وجماله فيما أرسل له من الشّعر[٦]. وقد نقل أبو الفرج الأصفهانيّ رسالتين تبادلهما في أمور الغناء وأحواله، ولم تخل هاتان الرّسالتان من بعض الضّغائن بينهما[٧].

ولم تُختمَ المساجلات والمنازعات القائمة بين إبراهيم وإسحاق حياتهما بالخصومة والجفاء وانقطاع أسباب المودّة، بل لقد كانت النّهاية بينهما ألفةً وارتباطاً وتعاطفاً وتزاوراً وتبادلاً للهدايا.

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٢٤، ص٨٩.
(٢) المصدر نفسه، ج١٠، ص٧٢-٧٣.
(٣) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٨١-١٨٢.
(٤) المصدر نفسه، ج٥، ص١٢٠.
(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦١-٢٦٣.
(٦) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٣. الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٣٢.
(٧) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٧٥-١٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نظم إبراهيم بن المهديّ الشّعر في أغراض عديدة منذ الصّغر، غير أنّ المصادر المتعدّدة لم تحدّثنا عن بداية اهتمامه بالشّعر ونظمه له، ولكن يُذكر أنّ أمّه كانت شاعرةً تقرأ الشّعر لولدها[١]. ولعلّ إبراهيم ورث الشّعر عن أمّه وأبيه من بيئة القصر -كما أشرت في الفصل الأول-[٢]. ولم يكن بعيداً عن المؤثّرات الأخرى المتمثّلة بالجواري، والقيان، والشّعراء الّذين كانوا يفدون إلى القصر، ليعرضوا أشعارهم أمام الخلفاء. فإبراهيم بهذا عاش في بيئة ثقافيّة ملؤها الشّعر وإنشاده وغناؤه.

وقد أشاد كثير من الأدباء وأصحاب التّراجم بشعر إبراهيم بن المهديّ، فابن الجرّاح يصف أشعاره بالرّقّة والحسن[٣]. ويصف ابن عبد ربّه شعره بالجودة وحسن الصّياغة[٤]. ويصفه أبو الفرج الأصفهانيّ في أكثر من موضع من كتابه" الأغاني" بجودة شعره، وقد كان راوية له[٥].ويذكر ابن كثير أنّ أشعاره كانت جيدة وبليغة[٦].ويصفه ابن العمّاد الحنبلي بأنّه شاعر محسن يجيد الشّعر[٧].

وعلى الرّغم من وصف إبراهيم بن المهديّ بإتقان الشّعر فإنّنا نجد عزوفاً من قبل المؤرّخين عن ذكر مقدار شعره، سوى ابن النديم الّذي قدّر شعره بمائة ورقة، ومقدار ما يكون في الورقة عشرون سطراً[٨]. وحسب هذا التّقدير الّذي يقدّره ابن النّديم يكون مقدار الأبيات الّتي نظمها إبراهيم حوالي ألفَيْ بيت من الشّعر. ولم يشر أحد من المؤرّخين إلى تحديد ابن النّديم السّابق، بل اكتفوا بذكر أنّه كان شاعرًا مكثرًا[٩].

ولم تُجمع أشعار إبراهيم في ديوان محدّد ينتظمها، بل بقيت مشتّتةً في كتب الأدب والتّاريخ والتّراجم. ولم يجمعها كلّها أحدٌ من القدماء. وقد كانت هناك محاولات لجمع شعره، بيد أنّ هذه المحاولات كانت غير تامّة، اقتصر فيها أصحابها على ذكر أجزاء من شعره في هيئة مقطوعات

---

(١) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص١٧.

(٢) انظر: ص٥-٦ من هذا البحث.

(٣) ابن الجراح، الورقة، ص١١، ١٩، ٢١.

(٤) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٦، ص٣٦.

(٥) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١١٩، ١٢١.

(٦) ابن كثير، البداية والنّهاية، ج١٠، ص٢٩١.

(٧) ابن العمّاد الحنبليّ، شذرات الذّهب، مج٣، ص١٠٨.

(٨) ابن النّديم، الفهرست، ت: رضا تجدّد، مكتبة الأسديّ، طهران، ج٤، ص١٨٧.

(٩) ابن ماكولا، الإكمال، ج١، ص٥١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صغار. ولعلّ محاولة الصّولي في كتابه "أشعار أولاد الخلفاء" أهمّ تلك المحاولات، فقد أثبت كثيراً من أشعاره، غير أنّه أشار في غير موضع إلى أنّه يذكر بعضًا من أبيات القصيدة الّتي ينقلها وليس كلّها. وفي هذا إقرار منه بعدم شمول محاولته لكلّ شعر إبراهيم. ومن ذلك نذكر شعرًا في الهجاء نقله الصّولي، فذكر أنّ ما ينقله هو من قصيدة لم يذكر منها سوى أبيات عدّة[١]. ويورد بيتًا لإبراهيم يذكر أنّه من قصيدة طويلة يكتفي بذكر ستّة أبيات منها[٢]. وقد قام كلّ من ابن طيفور والطّبري بمحاولة جمع أشعاره، إلاّ أنّ محاولتهما كانت منقوصةً أيضًا[٣].

وقد تبع ابن عساكر الصّولي في محاولة جمع أشعار إبراهيم، فذكر عددًا من قصائده في الرّثاء والمدح وغيرهما. وقد سارت محاولة ابن عساكر مع محاولة الصّولي في عدم شمولها وإغفال كثير من أشعار إبراهيم[٤].

واحتفلت كتب الأدب والتّاريخ بالاستشهاد بأبيات ومقطوعات من شعر إبراهيم في الموضوعات كافّةً[٥]. وحاولنا في هذه الدّراسة جمع شتات شعره من كتب التّاريخ والأدب والتّراجم.

والملاحظ في شعر إبراهيم بن المهديّ ارتباطه بأحداث ومناسبات عديدة، ممّا يجعله معبّراً عمّا مرّ به من الأحداث والمؤثّرات.

ويُلحظ على أغلب الأشعار الّتي جمعناها لإبراهيم أنّها جاءت على هيئة مقطوعات قصار لا قصائد كاملة. ومن المرجّح أن تكون بقيّة هذه المقطوعات قد ضاعت، أو أهمل الرّواة نقلها. فموضوعات المقطوعات الّتي وردت له تحتّم أنّ قبلها أبياتاً قد نُظِمَتْ. وقد أسهم كثير من أصحاب المصنّفات في هذا الضّياع، فقد لجأوا للاستشهاد بما يخصّهم من شعر إبراهيم، ولم يشيروا إلى مجمل القصائد. وقد أشار المسعوديّ إلى ضياع شعره، فذكر أنّ له قصيدةً طويلةً في الحثّ على الجهاد قد ضاعت، ولم تصل إلينا سوى أبيات منها[٦].

---

(١) الصّولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩.

(٣) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١٠٢-١١٣. الطّبريّ، تاريخ الطّبريّ، مج٥، ص١٦٩-٢٠٣.

(٤) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤، ص١٣٣-١٤٨.

(٥) المبرّد، الكامل، مج٣، ص١٣٨٤-١٣٨٥. المبرّد، التّعازي، ص١٧٢-١٧٣. المسعوديّ، مروج الذّهب، ج٤، ص٥. الأصفهانيّ، الأغانيّ، ج٤، ص١٠٦-١٠٧. ابن شاكر الكتبيّ، فوات الوفيات، مج٣، ص١٢٦. ابن كثير، البداية والنّهاية، ج١٠، ص٢٦٤. ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٢٥١-٢٥٢ وغيرها الكثير.

(٦) المسعوديّ، مروج الذّهب، ج٤، ص٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أغـراض شعـره:

نظم إبراهيم في أغراض شعريّة متنوّعة، فنظم في الغزل، والوصف، والمدح، والفخر، والرّثاء، والهجاء، والشّكوى، والعتاب وغيرها. والأغراض السّابقة تكاد تكون مشتركة بين أغلب الشّعراء العرب. ولذلك فإنّ أغراضه الشّعريّة تُعدّ امتداداً للأغراض المألوفة في الشّعر العربيّ. ومن قراءتي للشّعر الّذي جمعته لإبراهيم، استطعت أن أميّز الأغراض الشّعريّة الآتية، وهي:

- **الغـزل:**

الغزل من الأغراض التّقليديّة الّتي أكثر الشّعراء من النّظم فيها، بدءًا من العصر الجاهليّ وصولاً إلى هذا العصر. فلا نكاد نجد شاعراً يخلو شعره من هذا الغرض، لما يوجده ذكر المرأة من راحة وسكن للشّاعر والقارئ في آنٍ. ولو نظرنا إلى هذا الغرض الشّعريّ عند إبراهيم وجدناه بارزاً. وقد كانت بواعث بروز هذا الغرض الشّعريّ عنده قويّة، إذ عاش إبراهيم حياةً منعّمةً، فالجواري من حوله ربّينه صغيرًا، وخدمنه وهو خليفة. والقيان يغنّين الخلفاء أمامه، وعزفن له حين كان مغنّيًا، ورافقنه حين اختفائه عن أنظار المأمون. كلّ ذلك أوجد في نفسه ميلاً نحوهنّ، ووصفهنّ والتّغزّل بهنّ. وتشهد على ذلك كثرة الأشعار الغزليّة الّتي نظمها.

ومن دراستنا لشعر الغزل عنده استطعنا أن نلمح عددًا من النّزعات في هذا الشّعر، منها أنّ إبراهيم أعرض فيما نظم من الغزل عن ذكر اسم مَنْ يتغزّل بها. ويُلْحَظُ تعدُّد مَنْ يتغزّل بهنّ من النّساء. فقد تغزّل بامرأة من الكوفة ولم يشر إلى اسمها، يقول:

عُلِّـــقَ قَلْبِـــي ظَبْيَـــةَ السِّـــيبِ جَهْـــلاً فَقَـــدْ أُغْـــرِي بِتَعْذِيبِـــي[1]

وكانت الجواري ممَّنْ تغزّل بهنّ، ولم يشر إلى أسمائهنّ كذلك، يقول:

أَشْكُـو إِلَيْـكَ أَبَـا الْخَطّـابِ جارِيَـةً غَـرِيـرَةً بِفُـوادِي الْيَـوْمَ قَـدْ لَعِبَتْ[2]

ويقول متغزّلاً بجارية أخرى دون أن يذكر اسمها أيضاً:

يـا غَـــــزالاً لِـــــي إِلَـــيْـــه شَـــافِعٌ مِـــــنْ مُقْلَتَـــــيْهِ[3]

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص ٢٩٣. السّيب: مجرى الماء، وجمعه سيوب، ج١، ص٤٧٧، مادة (سيب). سنعتمد على نسخة دار صادر من كتاب لسان العرب وسنكتفي بالإشارة إلى الجزء والصّفحة الّتي أخذنا منها معنى الكلمة إضافة إلى ذكر مادة الكلمة.

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٤٣.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج١٠، ص١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتغزّل بامرأة أخرى قائلاً فيها:

لَـمْ يُنْسِنِيـكِ سُـرُورٌ لا وَلا حَـزَنُ وَكَيْـفَ لا كَيْفَ يُنْسَى وَجْهُكِ الْحَسَـنُ[١]

ما سبق يوقفنا على جانب من غزل إبراهيم، وهو أنّ غزله كان لذاته وليس موجّهاً لمحبوبة ما. كما نشير إلى أنّ ميله إلى هذا الغرض الشّعريّ إنّما كان للتّسلية والرّاحة النّفسيّة الّتي تصاحب الحديث عن المرأة، وليس للوصول إلى قلب مَنْ يتغزّل بها. ولعلّ عدم ذكر اسم المرأة الّتي يتغزّل بها عائد إلى المكانة الّتي كان يتمتّع بها. فهو إنْ فعل ذلك اهتزّت صورته أمام النّاس أوّلاً، وأمام عائلته ذات النّسب السّياسيّ العريق ثانياً. ونلمح في إحدى مقطوعاته الغزليّة أنّه كنّى باسم من يتغزّل بها، ولم يذكر اسمها صراحةً، يقول:

أَنـا أَفْـدِي عَلَـى الْهِجْـرانِ زَيْنَـا وَإِنْ كُنّـا عَلَـى عَمْـدٍ كَنَيْنَـا
ومـا زَيْنَـاً بتَفْدِيَـةٍ أَرَدْنَـا وَلَكِنّـا عَنَيْنَـا مَـنْ عَنَيْنَـا[٢]

ونستنتج ممّا سبق أنّ غزل إبراهيم كان عامًّا، وليس خاصًّا. وإذا نظرنا إلى المصادر وجدنا أنّها لا تذكر تعلّقه بامرأة محدّدة، ولا تشير إلاّ إلى جارية اسمها صَدُوف، كان إبراهيم قد تعلّق بها، غير أنّه هجرها، فاغتمّ لذلك. وعلم بحاله أحد الأعراب، وكان مُقَرّباً من إبراهيم، فأصبح مِرْسَالاً بين إبراهيم وصدوف إلى أن ردّها إلى إبراهيم ورضي عنها[٣].

ومن النّزعات الّتي وجدتها في شعر الغزل عند إبراهيم أنّه يصف صعوبة وصوله إلى محبوبته، فمرّةً تمنعه عن محبوبته عجوزٌ تصدّه عنها:

تَصُدُّهـا عَنّـا عَجُـوزٌ لَهـا مُنْكَـرَةٌ ذاتُ أَعاجِيـبِ[٤]

ومرة يصدّه عن محبوبته قَيِّمُها، فيبعدها عنه:

رَأَيْـتُ قَيِّمَهـا يَوْمـاً يُحَدِّثُهـا يا لَيْتَهـا قَرُبَـتْ مِنّـي وَمـا بَعُـدَتْ[٥]

---

(١) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، مج٣، ص١٢٦.
(٢) الصّولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٤.
(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج١٠، ص ١٥٥-١٥٦.
(٤) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٩٣. تصدّ: الصّدّ هوالإعراض والصّدوف، ٢٤٥/٣ (صدد)، منكرة: مكروهة، ٢٣٣/٥ (نكر).
(٥) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٤٣. القيّم: السّيد وسائس الأمر، والقيّم قد يكون الزّوج، لأنّه يقوم بأمر زوجته، ٥٠٢/١٢ (قوم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أشرك إبراهيم مَنْ يتغزّل بها في الشكوى من القيِّم، يقول:

شَكَـــتْ إِشْـــرافَ قَيِّمِهـــا عَلَيْهـــا كَمـــا يَشْكُـــو الْيَتِيـــمُ مِنَ الْوَصِـــيِّ[1]

وقد كان الحائل بين إبراهيم وبين محبوبته في بعض الأحيان حائلاً معنوياً تمثّل بالحياء، فقد منعه الحياء من الحلول في منزلها والسكن فيه:

لَـــوْ لا الْحَيَـــاءُ وَأَنَّنِـــي مَشْهُـــورُ والْعَيْـــبُ يَعْلَـــقُ بِالْكَبِيـــرِ كَبِيـــرُ
لَحَلَلْـــتُ مَنْزِلَهـــا الَّـــذِي تَحْتَلُّـــهُ وَلَكَـــانَ مَنْزِلَنَـــا هُـــوَ الْمَهْجُـــورُ[2]

وقد أظهر إبراهيم تحدّياً لهذا الحائل الّذي يمنعه محبوبته، فهو لا يأخذ بزجر أيّ زاجر يمنعه محبوبته، يقول:

وَأَنْهَى فَلا أَلْـوِي إِلَـى زَجْـرِ زاجِـرٍ وَأَعْلَـمُ أَنِّـي مُخْطِـئٌ فَأَعُـودُ[3]

وقد كان عُذّال إبراهيم حائلاً أوجد له المتاعب والهموم عند وصوله إلى محبوبته، يقول:

وَيَلْـدَغُ مُهْجَتِـي ذُو الْعَـذْلِ فِيهـا كَلَـدْغِ السَّـوْطِ خَاصِـرَةَ الْمَطِـيِّ[4]

وإلى جانب الحديث عن الحوائل الّتي تحول دون الوصول إلى من يتغزّل بها إبراهيم، فقد وجدنا نزعة الشكوى من المحبوبة والإفصاح عن الهموم الّتي سبّبتها له. فقد كان دائم الشّكوى ممّنْ يتغزّل بهنّ، فيقول شاكياً محبوبته:

إلى اللّـهِ أَشْـكُـو أَنَّهـا مـادرِيَّـةٌ وإِنِّي لَهـا بِالْـوُدِّ مـا عِشْـتُ مُكْـرِما[5]

وشكا إعراض مَنْ يتغزّل بهنّ عنه وهجرهنّ له، يقول:

أَقُـولُ وَقَـدْ رَأَيْـتُ لَهـا سَـماءً مِـنَ الْهِجْـرانِ مُقْبِلَـةً إِلَيْنَـا
وَقَـدْ سَحَّـتْ عَزالِيهـا بِصَـدٍّ حَوالَيْنَـا الصُّـدُودُ وَلا عَلَيْنَـا[6]

---

(١) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٢.

(٢) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، ج٢، ص٦٥٠.

(٣) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٣. ألوى: أنتهي وأبعد وأخالف ٢٦٣/١٥ (لوى). زجر: الزّجر: المنع والنّهي والانتهار بشدّة ٣١٨/٤ (زجر).

(٤) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٢.

(٥) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٣٤. مادريّة: ملاينة تحسن الصّحبة والاحتمال، ٢٥٥/١٤ (دري).

(٦) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٤. سحّ: سحّ الدّمع سال واشتدّ انصبابه، ٤٧٦/٢ (سحح). العزال: مصبّ الماء من القِرْبَة في أسفلها حتّى ينزل ما فيها من الماء، ٤٤٣/١١ (عزل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصوّر شدّة إعراض محبوبته عنه، وصعوبة تهدئتها إذا أعرضت، فهي شديدة كالخيزران يصعب كسره، فوصالها أشبه بالوصول إلى جبل يصعب الارتقاء إليه، يقول:

وقَدْ تَلِينُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ تَبْذُلُهُ ... وَالْوَصْلُ فِي جَبَلٍ صَعْبٍ مَرَاقِيهِ

كَالْخَيْزُرَانِ مَنِيعاً مِنْكَ مَكْسِرُهُ ... وَقَدْ يُرَى لَيِّناً فِي كَفِّ لاوِيهِ[1]

وصوّر شدّة شكواه من محبوبته، وما تسبّبه له من الهموم يعدل سير الإبل البطيئة المشي، فتأخذ وقتا طويلاً في سيرها، يقول:

بِكُلِّ جَلالَةٍ عَيْساءَ حَرْفٍ ... عَلَنْداةٍ وَأَعْنَسَ عَجْرَفِيٍّ

إِذا شُدَّتْ بِها الأَنْساعُ أَصْغَتْ ... كَما أَصْغَى النَّجِيُّ إِلى النَّجِيِّ

وَراغِيَةٍ تَثَنَّتْكَ عَنِ التِّصابِي ... كَما ثَنَتِ الضَّعِيفَ يَدُ الْقَوِيِّ

هُناكَ شَكَوْتَ ما تَلْقَى إِلَيْها ... كَما يَشْكُو الْفَقِيرُ إِلَى الْغَنِيِّ[2]

وقد كان فكره بمَنْ يحبّ مشغولاً، كما يبدو في قوله:

وَلا خَلا مِنْكِ لا قَلْبِي وَلا جَسَدِي ... كُلِّي بِكُلِّكِ مَشْغُولٌ وَمُرْتَهَنُ

وَحِيدَةُ الْحُسْنِ ما لِي مِنْكِ مُذْ كَلِفَتْ ... نَفْسِي بِحُبِّكِ إِلاّ الْهَمُّ وَالْحَزَنُ[3]

ووقد شكا في غزله من بخلِ محبوبته، وعدم تقديرها له:

أَضِنٌّ بِلَيْلَى وَهْيَ غَيْرُ سَخِيَّةٍ ... وَتَبْخَلُ لَيْلَى بِالْهَوَى وَأَجُودُ

أَلامُ فَلا أُصْغِي إِلَى قَوْلِ عاذِلٍ ... وَأَعْلَمُ أَنِّي مُخْطِئٌ وَأَعُودُ[4]

---

(١) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٢. جلالة: النّاقة الضّخمة العظيمة، ١١٨/١٢ (جلل). عيساء: العيس الإبل البيضاء الّتي يخالط بياضها شيء من الشّقرة، الأنثى عيساء. ١٥٢/٦ (عيس). حرف: النّاقة النّجيبة الّتي أتعبتها الأسفار، وقيل: هي الضّامرة الصّلبة وشُبّهت بحرف الجبل لشدّتها وصلابتها، ٤٢/٩ (حرف). علنداة: الإبل العظيمة الطّويلة، ٣٠١/٣ (علد). أعنس: العنس من الإبل الصّغار منها، ١٥٠/٦ (عنس). عجرفيّ: الجمل الّذي عنده قلّة مبالاة وبطء في السّير، ٢٣٤/٩ (عجرف). الأنساع: الحبال الّتي تُجعل على صدر البعير، مفردها النّسع، ٣٥٢/٨ (نسع). النّجيّ: هم جماعة النّجوى الّذين يتسارون ويتناجون ليلاً، ٣٠٨/١٥ (نجا). راغية: النّاقة، ٣٣٠/١٤ (رغا). التّصابي: جهلة الفتوّة واللّهو من الغزل وغيره. ٤٤٩/١٤ (صبا).

(٣) ابن شاكر الكتبيّ، فوات الوفيات، مج٣، ص١٢٦. كلف: الكلف بالشّيء الولوع به مع انشغال القلب به، ٣٠٧/٩ (كلف).

(٤) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٣٤. أضنّ: أبخل، ٢٦١/١٣ (ضنن).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول شاكياً بخلها وإفراطه في التّسامح معها:

إلى اللّهِ أَشْكُو بُخْلَها وسَماحَتِي ... لَها عَسَلٌ مِنِّي وتَبْذُلُ عَلْقَما[١]

وقد تحدّث إبراهيم عن أحزانه، وما كانت تسبّبه له محبوبته من بكاء وشدّة:

هَذا مُحِبُّكِ مَطْوِيٌّ عَلى كَمَدِهِ ... حَرَّى مَدامِعُهُ تَجْرِى عَلى جَسَدِهْ
لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ الرَّحْمنَ راحَتَهُ ... مِمّا جَنَى، ويَدٌ أُخْرَى عَلى كَبِدِهْ[٢]

وقد شكا كثرة الحُسّاد على من يحبّ، يقول:

بأَبِي وَجْهُكَ ما أَكْـ ... ـثَرَ حُسّادِي عَلَيْهِ[٣]

وقد انعكست شكواه من المحبوبة وقسوتها على نظرته إلى الحبّ، يقول في ذلك:

جَدَّدَ الْحُبُّ بَلايا ... أَمْرُها لَيْسَ يَسيرا
كَبُرَ الْحُبُّ وقِدْماً ... كانَ إذْ حَلَّ صَغيرا
ذَلَّلَ الْحُبُّ رِقاباً ... كانَ أَدْناها عَسيرا
لَيْسَ لِي مِنْ حُبِّ إلْفِي ... غَيْرُ حِرْمانِي السُّرُورا[٤]

ووصف إبراهيم عيون محبوباته النّاعسة ونعومتها، يقول:

تَساقَطُ وَهْيَ فاتِرَةُ الْمَآقِي ... تَساقُطَ مُهْجَةِ الظَّبْيِ الرَّمِيِّ[٥]

ويصف تلك العيون وهي تكلّمه، يقول:

إذا كَلَّمَتْنِي بالْعُيُونِ الْفَواتِرِ ... رَدَدْتُ عَلَيْها بالدُّموعِ الْبَوادِرِ[٦]

ووصف جمال عيون محبوباته وخصورهنّ، يقول:

هِيفُ الْخُصُورِ قَواصِدُ النُّبْلِ ... قَتَلْنَنا بنَواظِرٍ نُجْلِ
كَحَلَ الْجَمالُ جُفُونَ أَعْيُنِها ... فَغَنِينَ عَنْ كُحْلٍ بِلاَ كَحَلِ[٧]

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٣٤.

(٣) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٦٧-١٦٨ . الإلف: الّذي يألفه الإنسان ويحبّه، ١١/٩ (ألف).

(٥) الصّولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٢. المآقي: مقدّمة العين، وقيل: مؤخّرها، ٣٣٥/١٠ (مأق).

(٦) الصّفدي، الوافي بالوفيات، ج٦، ص١١٣.

(٧) الصّولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٤. الهيف: رقّة الخصر وضمور البطن، ٣٥٢/٩ (هيف). قواصد: القصدة من النّساء العظيمة الهامة الّتي لا يراها أحد إلاّ أعجبته، ٣٥٤/٣ (قصد). النّبل: الفضيلة والأعمال الحسنة، ٦٤٠/١١ (نبل). النجل: سعة شقّ العين مع حسن، عينين نجلاوين أي واسعتين ٦٤٧/١١ (نجل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصف أيضاً دقّة خصر محبوبته وجمال ساقيها، يقول:

مَمْكُـــورَةٌ رَدْعُ الْعَبِيـــرِ بِهـــا جَسْمُ الْعِظـــامِ لَطِيفَـــةُ الْخَصْـــرِ[١]

ووصف ثغر محبوبته، وصوّر ريقها وكأنه ممزوج بالخمر، يقول:

وكَـــأَنَّ فـــاها عِنْـــدَ رَقْدَتِهـــا تَجْـــرِي عَلَيْـــهِ سُلافَـــةُ الْخَمْـــرِ[٢]

وقد أغرق إبراهيم في وصف دلال مَنْ يتغزّل بهنّ، وبالغ كثيراً في وصفهنّ بالرّقة والنّعومة واللّين، يقول:

تَوَهَّمَـــهُ طَـــرْقِي فَآلَـــمَ خَـــدَّهُ فَصـارَ مَكـانَ الْوَهْـمِ مِـنْ نَظَـرِي أَثَـرُ
وَصافَحَـــهُ كَفِّـــي فَـــآلَمَ كَفَّـــهُ فَمِـنْ لَمْـسِ كَفِّـي فِـي أَنامِلِـهِ عَقْـرُ
وَمَـــرَّ بِفِكْـــرِي خاطِـــراً فَجَرَحْتُـــهُ وَلَـــمْ أَرَ شَيْئـــاً قَـطُّ يَجْـــرَحُهُ الْفِكْـــرُ[٣]

وعلى الرّغم من وصف إبراهيم لمحبوباته فإنّنا نجده يقرّر الإعراض عن وصف مَنْ يحبّ خوفاً من أهواء الرّجال، وما قد يفعلونه إذا علموا بجمالهنّ، يقول:

وَلَسْـــتُ بِـــواصِفٍ أَبَـــداً حَبِيبـــاً أُعَـرِّضُـــهُ لأَهْـــواءِ الـرِّجَـــالِ
وَمَـــا بـــالِي أُشَـــوِّقُ قَلْـــبَ غَيْـــرِي إِلَيْـــهِ وَدُونَـــهُ سُـــجُفُ الْحِجَـــالِ
وَأَمْنَـــحُ وُدَّهُ غَيْـــرِي بِوَصْقِـــي أَآمَـــنُ فِيـــهِ أَحْـــداثُ اللَّيالِـــي؟[٤]

وأقام إبراهيم بن المهديّ في شعره الغزليّ نوعًا من التّوحّد والالتئام بينه وبين من يحبّ، يقول:

وَتُخْبِرُنِـــي عَـــنْ قَلْبِهـــا فَكَأَنَّهـــا إِذا صَدَقَـــتْ عَنْـــهُ تَحَدَّثُ عَـــنْ قَلْبِـي[٥]

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١، ص١٩٤. الممكورة: المرأة المستديرة السّاقين، ١٨٤/٥ (مكر). الرّدع: أثر الطّيب في الجسد، قميص رادع: فيه أثر الطّيب، ١٢١/٨ (ردع). جمّ العظام: هو أجمّ أي كثير اللّحم، وامرأة جمّاء العظم: كثيرة اللّحم، ١٠٨/١٢ (جمم).

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٤. الرّقدة: النّومة، وقيل: الرّقود النّوم باللّيل، والرّقاد: النّوم بالنّهار، ١٨٣/٣ (رقد). سلافة الخمر: أول ما يُعصر منها، وقيل: هو ما سال من غير عصر، فهي أخلص الخمر وأفضلها، ١٦٠/٩ (سلف).

(٣) شهاب الدّين العنابي، نزهة الأبصار في محاسن الأشعار، ص٣٦٥. العقر: القطع، ٥٩٥/٤ (عقر).

(٤) شهاب الدّين العنابي، نزهة الأبصار في محاسن الأشعار، ص٣٦٦. الحجال: الحجل بيت كالقبّة وَيُسْتَرُ بالثّياب وتكون له أزرار كبيرة تستتر فيه المرأة، ١٤٤/١١ (حجل).

(٥) الرّاغب الأصفهانيّ، محاضرات الأدباء، ج٣، ص٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كانت أوصاف إبراهيم لِمَنْ يتغزّل بِهنّ أوصافًا حسّيّةً، فلم نلحظ عنده أوصافًا معنويّةً تتعلّق بمدح أخلاق المرأة، والحديث عن فكرها، وطريقة تعاملها، وعفّتها، ومحافظتها على عرضها، وما إلى ذلك من الأوصاف المعنويّة.

ولم يخرج في شعره الغزليّ عن الصّور التّقليديّة الّتي وصف بها الشّعراء السّابقون محبوباتهم، فصوّر سعة عيون من يتغزّل بهنّ، ودقّة خصورهنّ حتّى إنّه في حديثه عن ثغور محبوباته لا يكاد يخرج عن الصّور التّقليديّة الّتي ربطت بين الفم والخمر.

وابتعد إبراهيم في هذا الغرض الشّعريّ عن الغزل الفاحش، فلم يتجاوز المفاتن الخارجيّة المألوفة عند الشّعراء.

وخلا شعره من الحديث عن حكايات غراميّة، كتلك الّتي نجدها عند عمر بن أبي ربيعة في غزله. ولعلّ هذا يعكس عموم غزله، وعدم توجُّهه إلى امرأة بعينها، وخلا شعر إبراهيم الغزليّ كذلك من التّغزّل بالغلمان أو الخمر، وهو ممّا كثر في عصره(١).

ممّا سبق نرى أنّ إبراهيم سار على نهج الشّعراء العرب في غزلهم، فسار معهم في الشّكوى من الحبيب وبُعده، وتمنّي لقائه، والتّغنّي بمحاسن جسده. وهو بذلك لم يخرج عن مضمون شعر الغزل عند العرب.

واستمرّ إبراهيم بن المهديّ حتّى أخريات أيّامه يشبّب بالنّساء، ويتمنّى لقاءهن. فقد شكا غزو الشّيب رأسه، وابتعاد النّساء عنه نتيجة لذلك. فأُمَامَةُ تنبّهه إلى شيب رأسه، إظهارًا لبعدها عنه، يقول:

الشّيْبُ شَينٌ وَالْخِضَابُ عَذابُ ... وَلِكُلِّ حَيٍّ مُهْجَةٌ سَتُصابُ

قَالَتْ أُمامَةُ شِبْتَ يا ابْنَ مُحَمَّدٍ ... شَيْباً وَشَابَ أُمامَةُ الأَتْرابُ (٢)

- **الوصف:**

الوصف غرض شعريّ له امتداداته الطويلة في تراث الشّعر العربيّ. ويكتسب شعر الوصف أهمّيّة كبيرة، لانطلاقه من واقع الشّاعر وحياته، وتأثُّره بما يحيط به من مظاهر. ولذلك كان شعر الوصف وثيقةً مهمّةً تُدْرَسُ من خلالها بيئة الشّاعر بمختلف أشكالها. وقد انعكست صورة هذه البيئة بمظاهرها المختلفة عند الشّعراء العرب. وبهذا فإنّ شعر الوصف يتطوّر بتطوُّر

---

(١) شوقي ضيف، العصر العبّاسيّ الأوّل – شعر –، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧٨، ص٦٨.

(٢) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٣-٢٤. الشّين: العيب، ١٣/٢٤٤ (شين). الأتراب: هم الأمثال المتشابهون في بعض الصّفات. ١/٢٣١ (ترب).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأزمان الّتي يقال فيها. فأوصاف الشّعراء الجاهليين -- أصحاب البيئة القاسية - كانت أوصافًا تغلب عليها البداوة، ونقلت عناصر البيئة المعروفة آنذاك. وقد تطوّرالتّصوير الوصفي في العصر العباسيّ بتطوُّر الحياة في هذا العصر، فعناصر البيئة اختلفت عمّا كانت عليه سابقًا، واختلفت صور المضامين الّتي حواها هذا الغرض الشّعريّ[1]. وقد لمحنا هذا التّطوّر بارزاً في شعر إبراهيم بن المهديّ.

وتعدّدت الموضوعات الّتي نظم فيها إبراهيم بن المهدي، وشملت معظم العناصر الّتي كانت تحيط به. وكان الخمر تقدّم في المجالس الغنائيّة الّتي تُعقَد، وكان يحضرها إبراهيم، فقد جعلت له صلةً قويّةً بالخمر، فتغنّى إبراهيم بها، وعدّها سلوى له تنسيه الهموم والبكاء، وتبعد عنه ما يسبّبه العذّال من الهموم والأحزان، يقول:

فَرِّقَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْبُنِّ ... كَمَا بِالرّاحِ الشَّمُولِ
وَاْسقِيانِي قَبْلَ أَنْ يَصْنَحَ ... حَبَنِي عَذَلُ الْعَذُولِ
مَالَ بِي عَنْ صِحَّةَ السِّرِّ ... يِ إِلَى السُّكْرِ الطَّوِيلِ
مَا أَرَى مِنْ غَضَبِ الدَّنِّ ... يَا عَلَى أَهْلِ الْعُقُولِ[2]

وتحدّث إبراهيم بن المهديّ عمّا كانت تحتويه مجالسه من خمر وشرب حتى الصباح، يقول:

قَدْ سَمِعْنَا الدِّيكَ صاحَا ... وَرَأَيْنَا النَّجْمَ لاحَا
فَاسْقِنَا وَاقْطَعْ بِنَا الدَّ ... هْرَ اغْتِبَاقًا وَاصْطِبَاحَا[3]

ولهذه الصّلة بين إبراهيم والخمر وشدّة تعلّقه بها، نجده في شعره يصف الخمر، ومجالسها، وكؤوسها، ومَنْ يقدمها، وما تمنحه إيّاه من مشاعر النّشوة والسّعادة.

ووصف إبراهيم بن المهديّ لون الخمر، مَنْ يقدّمها له من الجواري، يقول:

حَمْرَاءُ صافِيَةٌ فِي جَوْفِ صافِيَةٍ ... يَسْعَى بِها نَحْوَنَا خُودٌ مِنَ الْحُورِ[4]

---

(١) شوقي ضيف، العصر العبّاسيّ الأول - شعر -، ص١١٢ .

(٢) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٤١١. الرّاح الشّمول: الرّاح الشّمولة والمشمولة: الباردة، فقد عُرضت لريح الشّمال فبردت، ٣٦٧/١١ (شمل).

(٣) المصدر نفسه، ص٤١١.

(٤) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٧، ص٤٢. الخود: الفتاة الشابة الحسنة الخلق، ١٦٥/٣ (خود).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف إبراهيم الكؤوس الّتي تُقَدَّمُ بها الخمر، يقول:

حَسّناءُ تَحْمِلُ حَسّناوَيْنِ فِي يَدِها ... صافٍ مِنَ الرّاحِ فِي صافِي الْقَوارِيرِ[1]

ويغرق إبراهيم في وصف رقّة كؤوس الخمر وشدّة صفائها، فيصفها بالضوء، يقول:

كَأْسٌ كَأَنَّ شُعاعَها ... قَبَسٌ عَلى شَرَفٍ مُطِلِّ
وَلَقَدْ ذَعَرْتُ بِها الظَّلا ... مَ فَبِتُّ فِي شَمْسٍ وظِلِّ[2]

وإبراهيم في وصفه، إنّما ينطلق من بيئته، فهي بيئة غناء وطرب، تُعَدُّ الخمر من أبرز ملامحها، وخاصّةً أن بيئته مليئة بالموالي من شتى الأصناف، وهم ممَّنْ كانوا شغوفين بالخمر. ولا يكاد إبراهيم في وصفه للخمر يخرج عن الأوصاف الّتي طرقها الشّعراء العرب قبله من وصف الخمر بالحمرة والصّفاء، وإحداث النّشوة، ووصف مَنْ يقدّمها من الجواري بالجمال، ووصف كؤوسها بالصّفاء والرّقّة.

* * * * *

تبوأ وصف الطّبيعة وما تحويه من مظاهر جماليّة مكانًا بارزًا في شعر الوصف عند إبراهيم بن المهدي، فوصف اللّيل وما ينشره في الأرض من سواد كثيف، ووصف ما فيه من الكواكب، يقول:

إذا اللَّيْلُ أَسْبَلَ سِرْبا لَهُ ... عَلى الأَرْضِ وَاسْوَدَّ وَجْهُ الْبَلَدْ
رَعَيْتُ الْكَواكِبَ حَتّى الصَّبا ... ح وَدَمْعِي كَاللُّؤْلُؤِ المُنْسَرِدْ
فَمِنْ طالِعاتٍ وَمِنْ غائِراتٍ ... وَآخَرُ فِي حيرَةٍ قَدْ رَقَدْ
وَمِنْ ضاجِعاتٍ بِأُفْقِ الْمَغِيبِ ... يُراقِبُها كَأَرْتِقابِ الرَّصَدْ[3]

ووصف إبراهيم نجوم السّماء وتغنّى بها، فوصف الثّريا: عنقوداً وسط السّماء يظهر وقد اشتدّ ظلام اللّيل، يقول:

---

(١) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٧، ص٤٢. القوارير: مفردها القارورة. وهي من الزجاج والقارورة ما قرّ فيها الشراب وغيره، وقيل: لا تكون القارورة إلاّ من الزّجاج خاصّةً، ٨٧/٥ (قرر).

(٢) ابن الجرّاح، الورقة، ص٢٢. قبس: القبس: الشُعْلَةُ من النّار، ١٦٧/٦ (قبس). الشّرف: هو المكان العالي الّذي يشرف على أماكن أخرى منخفضة، ١٧٠/٩ (شرف). ذعرت: أفزعت وأخفت، ٣٠٦/٤ (ذعر)

(٣) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٩. أسبل الشّيء أرخاه وأرسله، ٣٢٠/١١ (سبل). السّربال: القميص والدّرع، وقيل: كُلُّما لُبِسَ فهو سربال، ٣٣٥/١١ (سربل). رعى النّجوم: راقبها وانتظر مغيبها، ٣٢٧/١٤ (رعي). المنسرد: المتّسق بعضه إثر بعض، ٢١١/٣ (سرد). غائرات: غائبات ٣٥/٥ (غور). ضاجعات: نائمات، ٢١٩/٨ (ضجع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خَطْرَفَتُهـا وَثُرَيَّـا النَّجْـم خاضِعَـةً كَأَنَّهـا فِـي أَدِيـم اللَّيْـل عُنْقُـودُ[١]

ووصف إبراهيم بن المهديّ طول ليله وصفًا جميلاً، فجعل ليلاً آخر قد زيد على ليله، فأصبح ليله كأنّه ليلان، يقول مصوّرًا ذلك:

كَـأَنَّ اللَّيْـلَ زِيـدَ إِلَيْـهِ لَيْـلٌ مُقِيـمٌ فَاسْتَمَـرَّ عَلَـى الشَّجِـيِّ[٢]

ومن مظاهر الطّبيعة الّتي وصفها إبراهيم السّحاب، فقد وصفها كما بدت لـه فـي يـوم غـائم ماطر، فهي كالعُقاب محلِّقًا في السّماء، وقد بسط ظلاله السّوداء. ووصف ما تجود بـه السّحب، فطورًا تبلّل النّاس بالمطر الخفيف، وطورًا آخر تفيض عليهم بالماء الكثير، يقول:

وَأَرَى الْغَمامَـةَ كَالْعُقَـابِ مُحَلِّقًـا مُسَـوَّدَةَ الأَوْسَـاطِ وَالأَكْنَـافِ
طَـوْراً تَبُلُّـكَ بِالـرَّذاذِ وَتَـارَةً تُهْمِـي عَلَيْـكَ بِدَلْوِهـا الْغَـرَّافِ
فَانْعِـمْ صَبَاحـاً وَانْتِنَـا مُتَفَضِّـلاً وَدَعِ الْخِـلافَ فَلَيْـسَ يَـوْمَ خِـلافِ[٣]

وقد كان إبراهيم مُولَعًا بوصف يوم من الأيّام، يختصّ بوضـع مـا، ومـن ذلـك وصفـه أحـد الأيّـام الماطرة بقوله:

إِذا كُنْـتَ تَنْشَـطُ لِلصَّبُـوحِ فَإِنَّـهُ يَـوْمٌ أَغَـرُّ مُحَجَّـلُ الأَطْـرافِ[٤]

ويصف يومًا وقد ظهر فيه قوس السّماء وأشرقت شمسه، وظهر البرق فيه خِلْسَةً حتّى ظهر قوس السّماء، كأنّه قوس رام من الرماة، وظهرت البروق مثل السّهام المنطلقة من هذه الأقواس، ويظهر أنّ اليوم الّذي يصفه يوم ماطر، بدليل ذكر البرق وظهور قوس السّماء، يقول:

أَحْسِـنْ بِيَـوْمٍ تَـرَى قَـوْسَ السَّـماءِ بِـهِ وَالشَّـمْسُ مُسْتَقِـرَّةٌ وَالْبَـرْقُ خَـلاَّسُ
كَأَنَّهـا قَـوْسُ رامٍ وَالْبُـرُوقُ لَهـا رَشْقُ السِّهـامِ وَعَيْنُ الشَّمْـسِ بِرْجـاسُ[٥]

---

(١) ابن أبي عون، التّشبيهات، عُني بتصحيحه: محمّد عبدالمعيد خـان، مطبعـة كمـبرج، ١٩٥٠، ص٥٠. خطرفتها: خطرف الشّيء أسرع عنه وتجاوزه وتعدّاه، ٧٩/٩ (خطرف).

(٢) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٣. الشّجيّ: الحزين، ٤٢٣/١٤ (شجا).

(٣) المصدر نفسه، ص٣٥. تهمي: تسيل، همت عينه: سال دمعها، همى المطـر: نـزل وسـقط، ٣٦٤/١٥-٣٦٥ (همي). الغرّاف: كثير الماء، ٢٦٣/٩ (غرف).

(٤) المصدر نفسه، ص٣٥. الصّبوح: ما أُكِلَ أو شُرِبَ غـدوةً، وقيـل: الصّبـوح الخبر، ٥٠٣/٢ (صبح). أغرّ: الأبيض من كلّ شيء، ١٤/٥ (غرر). مُحَجَّلٌ: البياض الّذي يظهر في شـيء مـا، ١٤٥/١١ (حجل). يظهر من هذه الصّفات أنّ غيوم اليوم الّذي كان يصفه إبراهيم كانت بيضاء.

(٥) الثّعالبيّ، التّوفيق للتّلفيق، ص٤٩. مسفرة: مضيئة ومشرقة، ٣٦٩/٤ (سفر). رشق السّهام: رمـاه، ١١٦/١٠ (رشق). برجاس: البرجس هو نجم، قيل إنّه المشتري، ٢٦/٦ (برجس).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* * * * *

وقد وصف إبراهيم بن المهدي بعض ما يظهر في الطّبيعة من مظاهر تجميليّة، تضفي عليها طابع الجمال والبهجة، مثل الأزهار والنّباتات. ومن ذلك وصفه للنّرجس، وقد استوى على عود أملس، تعلوه الخضرة، فأطلق ذكر النّرجس خيال الشّاعر، وذكّره بمحبوبته، وما كان لها من طيب الفم ودلال، يقول:

ثَلاثُ عُيُون مِنَ النَّرْجِس ... عَلى قائِم أَخْضَر أَمْلَس
يُذَكِّرُنِي طِيبَ رِيَّا الْحَبِيبِ ... فَيَمْتَعُنِي لَذَّةَ الْمَجْلِسِ[1]

ومناسبة قوله لهذين البيتين، أنّ الخليفة المعتصم كان يحمل باقة نرجس، فسأل إبراهيم أن يقول فيها أبياتًا، فجادت قريحته بهذين البيتين اللّذين صنع منهما لحناً وغنّاه للمعتصم، وطرب له وأجازه عليه[2].

ويصف إبراهيم الكروم، وقد امتدت لتشكّل مظلّة وعريشًا يستظلّ الناس بظلّه، يقول:

مِنَ ابْنَةِ الْكَرَمِ تُظِلُّ النَّبِيطَ ... تَعْمَلُ فِيهِ عَرِيشاً عَرِيشا
إذا أَنْتَ قايَلْتَهُ خِلْتَهُ ... قَطائِفَ خُضْرِ كُسِينَ النُّقُوشا[3]

وقد استثمر إبراهيم عناصر الطّبيعة الجميلة من زهور ونباتات في وصف محبوبته، فمزج بين الغزل والوصف، فهو يصور محبوبته كأنها بستان، ويقول:

خِلْتُها فِي الْمُعَصْفَراتِ الْقَوانِي ... وَرْدَةً فِي شَقائِقِ النُّعْمان
أَنْتِ تُفّاحَتِي وَفِيكِ مَعَ التُّفّاح ... رُمّانَتان فِي غُصْن بان
لا أَرَى فِي سِواكِ ما فِيكِ مِنْ طِيبِ ... وَمِنْ بَهْجَةٍ وَمِنْ رَيْحان
وَإِذا كُنْتِ لِي وَفِيكِ الَّذِي أَهْوَى ... فَما حاجَتِي إِلَى بُسْتان[4]

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٤٣. ريّا: الرّيحة الطّيّبة، ٣٥/١٤ (روي).

(٢) ابن أبي عون، التّشبيهات، ص٣٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٦. النّبيط: قوم كانوا ينزلون جنوب العراق، ٤١١/٧ (نبط). عريشا: العريش خيمة من خشب أو قصب، ٣١٥/٦ (عرش). كُسِينَ: لَبِسْنَ، ٢٢٣/١٥ (كسا).

(٤) الثّعالبيّ، من غاب عنه المطرب، شرح محمد سليم اللبابيدي، المطبعة الأدبية، ص٨٣. المعصفرات: العصفر هو صبغ أصفر اللّون، ٥٨١/٤ (عصفر). القواني: قنا اللّون احمرّ واشتدّت حمرته، واللّون القاني: شدّة اللّون في الشّيء، ٢٠٥/١٥(قنا). شقائق النّعمان: نبات أحمر يُشبّه بالدّم ٥٨٨/١٢ (نعم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعكس وصف إبراهيم الطبيعة السّابقة جمال البيئة الطّبيعيّة الّتي كان يعيش فيها، واهتمام النّاس بالخضرة والأزهار، وهي مظهر من مظاهر الحياة الحضريّة الّتي انتشرت في العصر العبّاسيّ.

* * * * *

وُجد بين أشعار إبراهيم بن المهدي وصفٌ لطيفٌ لم يُعْهَدْ كثيرًا عند الشّعراء السّابقين، وهو وصف الأطعمة وطريقة تحضيرها. ويعكس وصف الأطعمة الرّقاه الاجتماعيّ الّذي أصبح يعيشه المجتمع العبّاسيّ، فهو مجتمع يتأنّق في أطعمته، وتنتشر فيه ألوان مختلفة منها، وقد وصف إبراهيم طعامًا سمّاه النّرجسيّة، ووصف طريقة إعداده والمكوّنات الّتي يتألّف منها، يقول في وصف هذا الطّعام، وكيفيّة إعداده:

يا سائِلي عَنْ أَطْيَبِ الْمَآكِلِ ... سَأَلْتَ عَنْهُ الْيَوْمَ غَيْرَ جاهِلِ
خُذْ يا خَلِيلِي أَضْلُعاً مِنْ لَحْمِ ... وَلَحْمِ فَخْذٍ بَعْدَهُ وَشَحْمِ
فَاقْطَعْ مِنَ اللَّحْمِ السَّمِينِ الرَّطْبِ ... وَاغْسِلْهُ بِالْماءِ الْقُراحِ الْعَذْبِ
وَاطْرَحْهُ فِي الطّابِقِ فَوقَ النّارِ ... ثُمَّ اقْلِهِ بِالرُّبِ وَالأَبْزارِ
حَتَّى إِذا ما صارَ فِيهِ أَحْمَرا ... قَطِّعْ عَلَيْهِ بَصَلاً مُدَوَّرا
وَبَصَلاً رَطْباً طَرِيّاً أَخْضَرا ... وَالْقِ عَلَيْهِ سَذَباً وَكُزْبَرا
وَاسْقِهِ مُرِيًّا وَزَنْجَبِيلا ... وَفُلْفُلاً مِنْ بَعْدِهِ قَلِيلا
وَأَضِفْ عَلَيْهِ بَعْدَهُ هُلْيُونا ... وَافْقَصْ عَلَيْهِ بَيْضَةً عُيُونا
مِثْلَ نُجُومِ الْفَلَكِ الْمُنِيرَةِ ... وَزَهْرَةِ النَّرْجِسِ مُسْتَدِيرَةِ
وَأَدِرْ عَلَيْهِ قِطَعَ السَّذابِ ... وَبَعْضَهُ قَدْ قامَ بِانْتِصابِ
وَقَرُبِ الطّابِقَ فِي عَلاقِ ... أَوْ سَلَّةٍ مِنْ قَصَبِ الْخَلاقِ
ثُمَّ اذْكُرِ اللَّهَ وَكُلْ هَنِيّاً ... أَكْلاً لَذِيذاً طَيِّباً مَرِيّا[1]

---

(١) هذه القطعة مأخوذة من كتاب الخليفة المغنّي، ص١٩٢، نقلاً عن كتاب "الطبيخ" للوراق. ولم نعثر على هذا الكتاب، ولعلّه ضاع. الرّطب: اللّين والنّعم، ٤١٩/١ (رطب). الماء القُراح: الماء الّذي لم يخالطه شيء، ٥٦١/٢ (قرح). الطّابق: ظرف يُطبخ به، وهو فارسيّ معرّب جمعه طوابق، ٢١٤/١٠ (طبق). الرُّب: الطِّلاء المجمّد، وقيل: هو دبس، كلُّ ثمرة وخلاصتها بعد الطّبخ والاعتصار، ٤٠٥/١ (ربب). السّذب: نبات قوي الرّائحة، ٤٦١/١ (سذب). مُريًا: من فاتحات الشّهية للأكل، ٢٧٦/١٥ (مري). هُليونا: نبات معمّر من فصيلة الزنبقيات، تمتدّ جذوره تحت الأرض، تطلق غُصوناً عديدةً تحمل ثماراً حمراء، وتُؤكل غصونه مسلوقة ٤٣٦/١٣ (هلن). العلاق: لعل المقصود بها. الخلاق: هو نوع من الطّيب يُتّخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطّيب، وتَغْلِبُ عليه الحمرة والصّفرة، ٩١/١٠ (خلق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر في الأرجوزة السّابقة أنّ إبراهيم بن المهديّ قد وصف هذا الطّعام بدءًا من تقطيع اللّحم وتجهيزه، وانتهاءً بتقديمه على المائدة والبدء بأكله. ونشير إلى أنّه كان مُولَعاً بوصف الأطعمة والطّبيخ. وتذكر المصادر له أنّ كتاباً مشهورًا اسمه "الطّبيخ".

* * * * *

وقد كان لإبراهيم أشعار وصف فيها الأشخاص، وركّز في وصفه لهم على الأوصاف المعنويّة، ولم يعبأ بالأوصاف الخارجيّة، ومن ذلك وصفه لشدّة بأس بابك الخرّميّ* وقوّة عزيمته، يقول واصفًا شدّته:

ما زالَ يَعْنُفُ بِالنُّعْمَى فَنَفَّرَها ... عَنْهُ الْغُمُوطُ، وَوافَتْهُ الأَراصِيدُ
حَتَّى عَلا حَيْثُ لا يَنْحَطُّ مُجْتَمِعاً ... كَما عَلا أَبَداً ما أَوْرَقَ الْعُودُ
لَمْ يَبْكِ إِبْلِيسُ إِلاّ حِينَ أَبْصَرَهُ ... فِي زِيِّهِ وَهُوَ فَوْقَ الْفِيلِ مَصْفُودُ
كَناقَةِ النَّحْرِ تُزْهَى تَحْتَ زَيَّتِها ... وَحَدُّ شَفْرَتِها لِلنَّحْرِ مَحْدُودُ[1]

وقد وصف إبراهيم الرجال وشبّههم بالسّيف القويّ الّذي يصدق صاحبه يوم الحرب، يقول:

وَقَدْ يَصْدُقُ السَّيْفُ يَوْمَ الْوَغا ... أَخاهُ وَإِنْ كانَ رَثَّ الْقِرابْ
كَأَنَّ سَنا بارِقٍ مُسْتَطِيرٍ ... بَيْنَ ذُؤابَتِهِ وَالذُّبابْ
كَذاكَ الرِّجالُ يَكُونُ الْفَتَى ... صَلِيباً وَذُو الشَّيْبِ صُلْبُ النِّصابْ[2]

---

* بابك الخرمي: هو زعيم الفرقة الخُراميّة في خلافة المعتصم، خرج على دولة بني العبّاس، وكثر بها أتباعه، فاستباحوا المحرّمات وقتلوا الكثير من المسلمين. حكم حوالى عشرين سنة، حارب المعتصم، ثمّ هُزم، أُخذ هو وأخو إسحاق وصُلِبَا. (الأصفهاني، الأغاني، ٤٢٦/٥).

(١) المرتضى، أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، ت: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، ط١، ١٩٥٤م، القسم٢، ص٢٤٩. نفّر: أذهب وأبعد، ٢٢٤/٥ (نفر). الغموط: احتقار النّاس والإزراء بهم، ٣٦٤/٧ (غمط). الأراصيد: هم مَنْ يرصدون الآخرين كالحرس مثلاً، ١٧٧/٣ (رصد). ينحطّ: الحطّ هو الوضع من قيمة الشّيء، ٢٧٢/٧ (حطط). مصفود: مقيّد، صفده يَصفِدُه صَفْداً أي أوثقه وشدّه وقيّده بالحديد، ٢٥٦/٣ (صفد). تُزْهَى: تُعْجَبُ وتفتخر وتتكبّر، ٣٦٠/١٤ (زها).

(٢) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٢. الوغا: الحرب، ٣٩٧/١٥ (وغي). الرثّ: هو البالي من كلّ شيء، ١٥١/٢ (رثث). القراب: هو غِمْد السّيف والسّكين، جمعه قُرُب، ٦٦٧/١ (قرب). السنا: ضوء النّار والبرق، ٤٠٣/١٤ (سنا). بارق: البارقة سيوف وسُمّيت بذلك على التّشبيه بالبرق، بارقة السّيوف: لمعانها، ١٥/١٠ (برق). مستطير: منتشر في أفق السّماء، ٥١٢/٤ (طير). ذؤابة السّيف: علاّقة قائمه، ٣٨٠/١ (ذأب). ذباب: ذباب السّيف: حدّ طرفه الّذي بين شفرتيه، ٣٨٠/١ (ذبب). النّصاب: مقبض السّيف والسكين، الجمع النُصُب، ٥٦١/١ (نصب).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أنّ تركيزه في الأبيات السّابقة كان منصبًّا على جانب الشّجاعة وشدّة البأس في الرّجال الّذين يصفهم.

ممّا سبق يظهر أنّ إبراهيم بن المهديّ نظم في عدد من الموضوعات الوصفيّة الّتي طرقها الشّعراء السّابقون، ومزج بين الوصف القديم والحديث. وقد كانت العناصر الوصفيّة الّتي وصف بها إبراهيم موضوعاته من خمر وطبيعة وطعام وأيّام منتقاةً من البيئة المحيطة به. فوصف المطر مثلاً بما توفّر له من معارف واقعيّة وليست خياليّة. وهكذا كان في شعره الوصفيّ كلّه، فلم نلحظ أوصافًا غريبةً أو بعيدةً عن المألوف، بل كانت موصوفاته مألوفةً ومشاهَدةً.

- **المـــدح والشكر:**

كان للغرض المدحي نصيب وافر في شعر إبراهيم بن المهديّ. وقد ارتبط معظم الشّعر المدحيّ عنده بالخليفة المأمون، وذلك لِمَا قام به من العفو عنه، فقد حاول إبراهيم الاستيلاء على الخلافة – كما أشرنا – غير أنّه فشل في إبقاء الخلافة في يده، ففرّ من المأمون بعد أن عاد إلى بغداد، واختفى فترة من الوقت، فقرّر المأمون قتله أثناء اختفائه، وظهر إبراهيم ثانيةً وظفر به المأمون، فسجنه، ثم عفا عنه، فمدحه.

وقد شاعت لإبراهيم قصيدة مدحيّة طويلة في ابن أخيه المأمون، قالها بعد أن عفا عنه. وقد عُدّتْ هذه القصيدة من روائع الشّعر المدحيّ العربيّ، ونالت إعجاب الكثير من القدماء، فالثّعالبيّ عدّها من أعاجيب شعر إبراهيم بن المهديّ[١]، وقلدها مرّةً أخرى، فقال عنها إنّها من أحسن قلائده الفاخرة[٢].

وقد وردت هذه القصيدة في العديد من المصادر إلا أنّها لم تأت بجميعها، بل جاءت بأجزاء منها، وانفرد ابن طيفور بذكر تسعة وعشرين بيتًا منها، وهو أعلى مجموع ورد لها[٣]. وأورد الطّبريّ سبعة وعشرين بيتًا منها[٤]. وجاء في الأغاني سبعة عشر بيتًا منها فقط[٥]. وذكر المسعوديّ أربعة أبيات منها[٦]. أمّا الصّوليّ، فقد اكتفى بذكر مطلع هذه القصيدة، وثلاثة أبيات

---

(١) الثّعالبيّ، خاصّ الخاصّ، عُني بتصحيحه: محمود السّكريّ، مطبعة السّعادة، مصر، ط١، ١٩٠٨م، ص٩٢.

(٢) الثّعالبيّ، الإعجاز والإيجاز، المطبعة العموميّة، ١٨٩٧م، ص١٨٠.

(٣) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١٠٢-١٠٤.

(٤) الطّبريّ، تاريخ الطّبريّ، مج٥، ص١٦٩-١٧٠.

(٥) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٤٥-١٤٦.

(٦) المسعوديّ، مروج الذّهب، ج٤، ص٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخرى منها[١]. وسنعتمد على هذه القصيدة في تشخيص مضامين شعر إبراهيم المدحيّ، وننظر في قصائده المدحيّة الّتي قالها في الخليفة المعتصم، لنخرج بالنّزعات العامّة في شعره المدحيّ.

ابتعد إبراهيم في هذه القصيدة المدحيّة عن الأوصاف الّتي تهتمّ بالجوانب الشّكليّة الشّخصيّة، فابتعد عن الصّفات الماديّة مركزًا على الصّفات المعنويّة في ممدوحه. وقد تعدّدت هذه الصّفات بين دينيّة، وأخرى أخلاقية تتعلّق بالشّجاعة والكرم وحسن الأخلاق وغيرها. وقد أسبغ إبراهيم على ممدوحه الالتزام بالتّقوى والبرّ والحرص على التّمسّك بالحقّ، وهي أوصاف دينيّة معنويّة كما نلاحظ، يقول:

وأَبَرَّ مَنْ عَبَدَ الْإِلَهَ عَلَى التُّقَى ... عَيْناً وَأَقْوَلَهُ بِحَقٍّ صادِعِ[٢]

ويجعل إبراهيم بن المهديّ ممدوحه ملازماً للأعمال الصّالحة، ومُحسناً إلى الفقراء بقوله:

لِلصّالِحاتِ أَخاً جُعِلْتَ وَلِلتُّقَى ... وَأَباً رَؤُوفاً لِلْفَقِيرِ الْقَانِعِ[٣]

ويجعل الفضائل الدّينيّة من تقوى وورع وبرّ وعطف مجتمعةً في ممدوحه، فهي مترسخة فيه ويقول:

إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْفَضائِلَ حازَها ... فِي صُلْبِ آدَمَ لِلإِمامِ السّابِعِ[٤]

ويسير إلى جانب الصّفات الدّينيّة السّابقة، وصف الممدوح بالالتزام بما حثّ عليه الإسلام من مداومة على الجهاد، يقول:

يا خَيْرَ مَنْ ذَمَلَتْ يَمانِيَةٌ بِهِ ... بَعْدَ الرَّسُولِ لأَيْسٍ أو طامِعِ
عَسَلُ الْفَوارِعِ مَا أُطِعْتَ فَإِنْ تُهَجْ ... فَالصّابُ يُمْزِجُ بالسِّهَامِ النّاقِعِ[٥]

---

(١) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص١٩.

(٢) الطّبريّ، تاريخ الطّبريّ، مج٥، ص١٦٩. صادع: صدع بالأمر: أصابَ به موضعه وجاهَرَ به، وصدع بالحقّ: تكلم به جهاراً، ١٩٦/٨ (صدع).

(٣) المصدر نفسه، مج٥، ص١٦٩.

(٤) المصدر نفسه، مج٥، ص١٧٠. صلب: عظم، وقيل: الصّلب من الظّهر، وكلّ شيء من الظّهر فيه فقار فذلك صلب، ٥٢٦/١ (صلب).

(٥) المصدر نفسه، مج٥، ص١٦٩. ذملت: سارت سيراً سريعاً وهو ضرب من سير الإبل، ٢٥٩/١١ (ذمل). الفوارع: المرتفعات، ٢٥٠/٨ (فرع). تهج: هاج: اشتدّ غضبه وثار. ٣٩٥/٢ (هيج). الصّاب: عصارة شجر مرّ، ٥٣٧/١ (صيب). الجرع: البلع، ٤٦/٨ (جرع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ممّا سبق يظهر أنّ المدح بإعطاء الممدوح صفات دينيّة تتعلق بالتّقوى وخوف الله والالتزام بأوامره كان واضحًا في مدح إبراهيم وبهذا فهو يظهر جانب التّديُّن عند الممدوح، لِمَا لهذا الجانب من دور كبير في استمرار تأييد النّاس للخليفة الممدوح.

وقد مدح إبراهيم بن المهديّ ممدوحه بغير هذه الصّفات الدّينيّة، فتعدّى إلى الصّفات الشّخصيّة المعنويّة، كالشّجاعة و مهابة النّاس له، يقول:

مُتَيَقِّظاً حَذِراً وَما يَخْشَى الْعِدَى ... نَبْهانُ مِنْ وَسَناتِ لَيْلِ الْهاجِعِ[1]

وتمتلئ قلوب النّاس مهابةً وخشيةً من ممدوحه. وهذا يعكس احترامهم الكبير له، وتقديرهم إيّاه. وعلى الرّغم من هذا الخوف والخشية منه إلاّ أنّه رحيم بهم، رؤوف عليهم، يحرسهم بقلبه الخاشع، يقول:

مُلِئَتْ قُلُوبُ النّاسِ فِيكَ مَخافَةً ... وَتَبيتُ تَكْلَؤُهُمْ بِقَلْبٍ خاشِعِ[2]

ويجعل إبراهيم ممدوحه محبًّا للنّاس، محبوباً لديهم، يقول:

جَمَعَ الْقُلُوبَ عَلَيْكَ جامِعُ أَمْرِها ... وَحَوَى وِدادُكَ كُلَّ خيرٍ جامِعِ[3]

ويظهر من هذا البيت حبّ النّاس الكبير لممدوح إبراهيم وتعلُّقهم به، ولفضله الكبير ومآثره الجمّة. وبهذا الفضل ارتقى على غيره، يقول:

أَمَلاً لِفَضْلِكَ وَالْفَواضِلُ شيمَةٌ ... رَفَعَتْ بِناءَكَ بِالْمَحَلِّ الْيافِعِ[4]

فهو بهذا الفضل الذّي يمتلكه يعفو عن المخطئ، ويتجاوز عن المسيء، ويترفع عن معاقبة الناس، ويسرع إلى العفو عنهم، يقول:

فَبَذَلْتَ أَفْضَلَ ما يَضيقُ بِبَذْلِهِ ... وُسْعُ النُّفُوسِ مِنَ الْفِعالِ الْبارِعِ
وَعَفَوْتَ عَمَّنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مِثْلِهِ ... عَفُوٌّ وَلَمْ يَشْفَعْ إِلَيْكَ بِشافِعِ
إِلاَّ الْعُلُوُّ عَنِ الْعُقُوبَةِ بَعْدَما ... ظَفِرَتْ يَداكَ بِمُسْتَكينٍ خاضِعِ[5]

---

(١) الطبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٥، ص١٦٩. وسنات ليل: الوسن: ثقلة النّوم، وقيل: النّعاس وهو أوّل النّوم، ٤٤٩/١٣ (وسن). الهاجع: الإنسان الذي ينام ليلاً، ٣٦٧/٨ (هجع).

(٢) المصدر نفسه، مج٥، ص١٦٩. تكلؤهم: تحفظهم وتحرجهم، ١٤٥/١ (كلأ).

(٣) المصدر نفسه، مج٥، ص١٦٩.

(٤) المصدر نفسه، مج٥، ص١٦٩. اليافع: هو المشرف من الأرض والجبل، ٤١٤/٨ (يفع).

(٥) المصدر نفسه، مج٥،ص١٦٩-١٧٠. المستكين: الإنسان الخاضع الذليل، ٢١٨/٣١ (سكن).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أبرز إبراهيم صفة العفو في ممدوحه كثيرًا. ولعلّ في هذا رغبة منه في تذكير المأمون بعفوه عنه، وإظهار أنّ العفو ملازم له، يقول:

لَـمْ أَدْرِ أَنَّ لِمِثْـلِ جُرْمِـي غـافِراً ... فَوَقَفْـتُ أَنْظُـرُ أَيُّ حَتْـفٍ صـارِعِي
رَدَّ الْحَيـاةَ عَلَـيَّ بَعْـدَ ذَهابِهـا ... عَفْـوُ الْإِمـامِ الْقـادِرِ الْمُتَواضِـعِ
أَحْيـاكَ مَـنْ وَلاّكَ أَطْـوَلَ مُـدَّةٍ ... وَرَمَـى عَدُوَّكَ فِـي الْوَتِينِ بِقاطِـعِ[1]

ويظهر من الأبيات السّابقة أنّ ممدوح إبراهيم قادر على خصمه، غير أنّه يعفو عنه، وفي هذا غاية الإحسان والكرم.

وممدوح إبراهيم بما يمتلكه من صفات العطف والرّحمة والصّفح عن النّاس إنسان كريم، يجود على النّاس بالحريّة، والأمان، والاطمئنان، يقول:

مـا أَلْيَـنَ الْكَنَـفَ الَّـذِي بَوَّأْتَنِـي ... وَطَنـاً وَأَمْـرَعَ رَتْعَـهُ لِلرّاتِـعِ[2]

ولم يغفل إبراهيم بن المهديّ صفة الجود في ممدوحه، يقول:

كَـمْ مِـنْ يَدٍ لَـكَ لاَ تُحَدِّثُنِـي بِهـا ... نَفْسِـي إِذا آلَـتْ إِلَـيَّ مَطامِعِـي[3]

وممدوح إبراهيم جواد بعفوه، وبما يَمُنُّهُ على النّاس من لين، ويسر، وتسامح، يقول:

أَسْـدَيْتَها عَفْـواً إِلَـيَّ هَنِيئَـةً ... فَشَـكَرْتُ مُصْطَنِعـاً لأَكْـرَمَ صـانِعِ
إِلاّ يَسِيـراً عِنْدَمـا أَوْلَيْتَنِـي ... وَهُـوَ الْكَثِيـرُ لَـدَيَّ غَيْـرُ الضّائِـعِ[4]

وممدوحه أملٌ للناس للعفو، وإنْ منعه كان في منعه كريم أيضًا، فهو أكرم مانع، يقول:

إِنْ أَنْتَ جُـدْتَ بِهـا عَلَـيَّ تَكُـنْ لَهـا ... أَهْـلاً وَإِنْ تَمْنَـعْ فَأَكْـرَمُ مانِـعِ[5]

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الطّبريّ، مج٥، ص١٦٩. الحتف: الموت، ٣٨/٩ (حتف). الوتين: هو عرق في القلب، إذا انقطع مات صاحبه، ٤٤١/١٣.

(٢) المصدر نفسه، مج٥، ص١٦٩. الكنف: الحضن بين العضدَيْن والصدر، ٣٠٨/٩ (كنف). بوّأتني: بوّأتك وطناً أي اتّخذت لك وطناً، ٨٣٠/١ (بوأ). رتعه: رَتَعَ يَرتَعُ أيّ نعم وانبسط بالشّيء، الرّاتع هو المتنعّم بالشّيء، ١٢٢/٨ (رتع).

(٣) المصدر نفسه، مج٥، ص١٧٠.

(٤) المصدر نفسه، مج٥، ص١٧٠. أسديتها: أعطيتها ومنحتها، ٣٧٦/١٤ (سدا).

(٥) المصدر نفسه، ص١٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أظهر إبراهيم صفة التّواضع في ممدوحه، فهو على ما تحصل له من المكانة العالية والمنزلة الرّفيعة، والقدرة الكبيرة متواضع ليّن الجانب مع النّاس، يقول:

رَدَّ الْحَيَـــاةَ عَلَـــيَّ بَعْـــدَ ذَهابِهـــا عَفْـــوُ الْإِمـــامِ الْقَـــادِرِ الْمُتَواضِـــعِ[1]

نخلص من القصيدة المدحيّة السّابقة إلى أنّ إبراهيم أسبغ صفات معنوية على ممدوحه، فممدوحه حريص على مبادئ دينه، تقيّ، مجاهد، حريص على راحة رعيّته، والعطف عليهم، والرّأفة بهم.

وأبرز في القصيدة السّابقة صفات الرّحمة والعطف والرّأفة في ممدوحه وركّز عليها، ولعلّ ذلك عائد إلى رغبته في تذكير المأمون بضرورة التّمتّع بهذه الصّفات، وانغراسها في نفسه. كلّ ذلك ليضمن بقاء عفو المأمون عليه عنه واستمراره فيه.

وقد خصّ إبراهيم الخليفة المعتصم بعدد من قصائده المدحيّة. وظهرت نزعة وصف الممدوح بالصّفات المعنويّة في مدحه للمعتصم. فقد مدحه في مناسبات مختلفة، منها قتل المعتصم بابك الخرّميّ ، فمدحه بأشعار ركّز فيها على الصّفات المعنويّة، فالمعتصم مؤيّد من الله بنصره، ملتزمٌ بدين اللّه، ومن أجله تحقّقت نصرته، يقول:

يـــا أَمِيـــنَ اللّـــهِ، إنّ الْحَمْـــدَ للـــهِ كَثِـــيرا
هَكَـــذا النَّصْـــرُ فَـــلا زا لَ لَـــكَ اللـــهُ نَصِـــيرا
وَعَلَـــى الأَعْـــدَاءِ أُعْطِيـــ تَ مِـــنَ اللـــهِ ظَهِـــيرا
وَهَنِيئـــاً، هَيَّـــأَ اللّـــ ـهُ لَـــكَ الْفَتْـــحَ الْخَطِيـــرا[2]

ومدح المعتصم بتحقيق النّصر الكامل على عدوّه، كما مدحه بحسن القيادة وجودة التّدبير، يقول:

فَهُـــوَ فَتْـــحٌ لَـــمْ يَـــرَ النـــ ـــاسُ لَـــهُ فَتْحـــاً نَظِـــيرا
وَجَـــزَى الإِفْشِـــينَ عَبْـــدَ اللـــهِ خَـــيْراً وَحُبُـــورا
فَلَقَـــدْ لاَقَـــى بِـــهِ بـــا بِـــكَ يَوْمـــاً قَمْطَرِيـــرا[3]

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، مج٥، ص١٧٠.

(٢) المسعوديّ، مروج الذّهب، ج٤، ص٥٨. الظهير: هو معين ومساعد ٥٢٥/٤ (ظهر).

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٨-٥٩. الإفشين: هو قائد جيوش المعتصم في غزوات بلاد الروم في آسيا الصغرى. والظّافر في وقعة عمورية، رُميَ بالكفر، ومات في السجن جوعاً سنة ٢٢٨. (الأصفهاني، الأغاني، ٢٥٨/٨). حبور: سرور، ١٥٨/٤ (حبر). قمطرير: شديد، ١١٦/٥ (قمطر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي المناسبة ذاتها، نراه يمدح المعتصم بالشّجاعة، وشدّة البأس، والقوّة، يقول:

صَيَّرْتَ جُثَّتَهُ جِيداً لِبَاسِقَةٍ ... جَرْدَاءَ، وَ الرَّأْسُ مِنْهُ مَالَهُ جِيدُ
فَآضَ تَلْعَبُ هُوجُ الْعَاصِفَاتِ بِهِ ... عَلَى الطَّرِيقِ صَلِيباً طَرْفُهُ غُودُ
كَأَنَّهُ شِلْوُ كَبْشٍ والْهَوَاءُ لَهُ ... تَنُّورُ شَاوِيَةٍ وَالْجِذْعُ سَفُّودُ[1]

وقد وجدنا له عدداً من المقطوعات المدحية لم تتجاوز البيتين، ولم تكن هذه المدائح في خليفة من الخلفاء، إنّما جاءت عامّةً دون تحديد للممدوح، يقول مادحاً شخصاً لم يذكر اسمه:

هُوَ الْحُرُّ أَخْلاَقاً وَبِرّاً وَشِيمَةً ... وَعَقْلاً وَخَيْرُ الْقَوْمِ مَنْ أُوتِيَ الْعَقْلاَ
تَرَاهُ طَلِيقاً وَجْهُهُ مُتَهَلِّلاً ... كَأَنَّ صَقِيلاً مِنْ عَوَارِضِهِ يُجْلَى[2]

ووصف إبراهيم ممدوحه في البيتين السّابقين بأوصاف جسميّة، فهو طليق الوجه متهلّل، يشعّ من وجهه وعوارضه الضّياء. ولا نكاد نجده يهتمّ بالصّفات الجسميّة إلا في هذين الموضعين، وربّما كان هذان البيتان من قصيدة مدحيّة له ضاعت أبياتها ولم يبق منها إلا ما أشرتُ إليه.

ممّا سبق نرى ميل إبراهيم في مدحه إلى التّركيز على الصّفات المعنويّة في الممدوح، وهي صفات دينيّة وأخلاقيّة وسلوكيّة. ولم يهتمّ في مدحه بإظهار الجوانب الشّخصيّة عند الممدوح، كالحديث عن طوله، أو وجهه، أو امتلاء جسمه، وما إلى ذلك من الصّفات الجسميّة.

ويظهر من القصائد السّابقة أنّ إبراهيم بن المهديّ لم يكن من الشّعراء المتكسّبين بمدحهم. ويمكن أن يعد أغلب شعره المدحي من باب الشّكر، والإكبار في نفس الممدوح، والرّفع من منزلته، فغاية إبراهيم من المدح - العفو - تحقّقت قبل إنشائه لهذه القصيدة الطّويلة في مدح

---

(١) المرتضى، أمالي المرتضى، ص٢٥٠. باسقة: تامة الطول، والباسق: المرتفع في علوّه، ٢٠/١٠ (بسق). جرداء: الجرد من الأرض التي لا نبات فيها، ١١٥/٣ (جرد). آض: رجع وعاد، ١١٦/٧ (أيض). هوج: الهَوَج: الشدّة، عاصفة هوجاء: شديدة تقطع الأشجار والبيوت، ٣٩٤/٢ (هوج). شلو: هو الجلد والجسد من كل شيء، وكل مسلوخة أكلَ منها شيء ويتبعها شلو والشلو: عضو من أعضاء اللحم، ٤٤٢/١٤ (شلو). تنور: هو ما يُعَدُّ للطبخ والشيّ من نار، ٢٤٣/٥ (نور). سفود: حديدة ذات شعب معقّفة يُشوى به اللحم وجمعه سفافيد، ٢١٨/٣ (سفد).

(٢) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٣. شيمة: الشيمة هي الخلق والطبيعة، ٣٢٩/١٢ (شيم). الصقيل: متلألىء الوجه ومشرقه، ٣٨٠/١١ (صقل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المأمون مثلاً، فقد أجمعت المصادر على أنّ هذه القصيدة قيلَتْ بعد أن صدر العفو التّام عنه من قبل المأمون.

ولعلّ ممّا يتّصل بالمدح شكر إبراهيم بن المهديّ للمأمون على أفعاله التي قام بها، فحين عفا عنه المأمون، وردّ إليه أمواله وضياعه الّتي أمر بمصادرتها من قبل، راح يشكره ويثني عليه كلّما سنحت له فرصة، أو حانت مناسبة، وقد بالغ في ذلك حتّى قال له المأمون يوماً: "قد أفرط شكرك كما أفرط جرمُك"(١). وقد مال نحو تعداد مآثر المأمون وفضائله عليه، فقد ردّ عليه ماله، وقبل ذلك حفظ دمه من أن يُرَاقَ، وأحاطه بعظيم الرّعاية والامتنان، يقول:

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَمْتُنْ عَلَيَّ بِهِ ... وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَنْتَ دَمِي
فَأُبْتُ مِنْكَ وَقَدْ أَلْبَسْتَنِي نِعَماً ... هِيَ الْحَيَاتَانِ: مِنْ مَوْتٍ وَمِنْ عَدَمِ (٢)

ونراه يستعظم عفو المأمون عنه، ويراه جديراً بالمدح والإعظام، يقول:

فَلَوْ بَذَلْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ بِهِ ... وَالْمَالُ حتّى أَسِلَّ النَّعْلَ عَنْ قَدَمِي
مَا كَانَ ذَاكَ سِوى عَارِيَةٍ سَلَفَتْ ... لَوْ لَمْ تَهَبْهَا لَكُنْتَ الْيَومَ لَمْ تُلَمِ(٣)

ونراه في شكره يذكّر المأمون بما أحاطه به من الرّعاية. وهذا جعله يعنيه بالشّكر والثّناء، يقول:

أُعَنِيكَ يَا خَيْرَ مَنْ تُعْنَى بِمُؤْتَلَفٍ ... مِنَ الثَّنَاءِ ائْتِلَافَ الدُّرِّ فِي النِّظَمِ
أُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا جَدَدْتَ مِنْ نِعَمٍ ... وَمَا شَكَرْتُكَ إِنْ لَمْ أُثْنِ بِالنِّعَمِ(٤)

ومال في مدحه وشكره للمأمون إلى إظهار دوافع عفو المأمون عنه، فبِرُّ المأمون، ووفاؤه، وعلمه، وعدله مهّد للعفو عنه، يقول:

اَلْبِرُّ بِي مِنْكَ وَطَّا الْعُذْرَ عَنْدَكَ لِي ... فِيمَا أَتَيْتُ فَلَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلُمِ
وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي ... مَقَامَ شَاهِدِ عَدْلٍ غَيْرَ مُتَّهَمِ (٥)

---

(١) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٢.

(٢) الرّقام البصريّ، كتاب العفو والاعتذار، ج١، ص٢١٨. تمنن: تُحْسِنُ وتُنْعِمُ، ٤١٧/١٣ (منن). حقنه: حقن الدم منع سيلانه ونزوله، ١٢٦/١٣ (حقن). أبت: رجعت، ٢١٧/١ (أبب).

(٣) الحصريّ، زهر الآداب، ج١، ص٥٧٠. أسلّ: السلّ: هو انتزاع الشيء وإخراجه برفق، ٣٣٨/١١ (سلل). النعل: ما وُقِيَتْ به القدم من الأرض، ٦٦٧/١١ (نعل).

(٤) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص١٩. المؤتلف: المجتمع والمتراص، ٩/٩ (ألف). الدُّرّ: مفردها الدُّرّة وهو اللؤلؤة العظيمة، ٢٨٢/٤ (درر).

(٥) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١٠٤. وطّأ الشيء هيّأه، ١٩٧/١ (وطأ).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأظهر إبراهيم بن المهديّ في شكره للمأمون أنه واجب عليه، يقول:

لَئِـــنْ جَحَدْتُـــكَ مُعْرُوفـــاً مَنَنْـــتَ بِـــــهِ إنِّـــي لَفِـــي اللُّؤْم أَحْظَى مِنْكَ فِـــي الْكَرَمِ [١]

ويظهر ارتباط شعر إبراهيم المدحي والشكري بالخليفة المأمون لِمَا قام به من العفو عنه. وقد اتّخذ شعر الشّكر طابع تعداد مآثر المأمون، وذكر فضائله عليه. وقد ظهر إبراهيم في هذا الغرض الشّعريّ في صورة الإنسان المستعظم لصنيع المأمون الذي لا يجد بُدًّا من الشّكر وإعظام الثّناء.

- **الاعتـــذار:**

خرج إبراهيم بن المهديّ على ابن أخيه المأمون، واستمرّ مدّة من الزّمن يتقلّد منصب الخلافة، ويحكم بالنّاس إلى أن انقضّ عليه أعوان المأمون، وتمكّنوا من استرداد الخلافة. واختفى إبراهيم بن المهديّ، وقد توعّده المأمون، وأعلن هدر دمه بين النّاس إلى أن تمكّن من القبض عليه، ووضعه في السّجن. وقد كانت هذه الأحداث مدعاةً له للاعتذار للمأمون، وطلب السّماح والعفو، فأكثر من الاعتذار. وقد بالغ إبراهيم في الاعتذار، وكان لا يتورّع في أن يعتذر له كلّما سنح له الأمر، حتّى إنّ المأمون تنبّه لذلك، فقال له: "الإحسان محاء للإساءة"[٢].

وقد انتهج إبراهيم بن المهديّ في شعره الاعتذاريّ الاعتراف بذنبه، وإظهار عظم هذا الذنب وشدّته، لا ليذكّر المأمون به، بل ليظهر له أنّه صاحب العفو والحلم، يقول إبراهيم في معرض اعتذاره للمأمون:

ذِنْبِـــــي إلَيْـــــكَ عَظِيـــــمٌ وَأَنْـــــتَ أَعْظَـــــمُ مِنْـــــهُ
فَخُـــــذْ بِحَقِّـــــكَ أَو لا فَـــــاصْفَحْ بِفَضْلِـــــكَ عَنْـــــهُ
إنْ لَـــــمْ أَكُـــــنْ فِـــــي فِعالِـــــي مِـــــنَ الْكِـــــرامِ فَكُنْـــــهُ[٣]

وقد عدّ إبراهيم خروجه على المأمون ظلمًا وعدوانًا، وفي هذا رغبة له في إظهار أنّ خروجه على المأمون، وعصيانه إنّما كان حدثًا طارئًا، وهو يعدّ خروجه على المأمون ظلماً، ويعلن التوبة عن عصيانه، ويطلب منه الصفح، يقول:

---

(١) ابن الجراح، الورقة، ص٢٠. جحدتك: الجحد نقيض الإقرار هو الإنكار، والجحد الإنكار مع العلم، ١٠٦/٣ (جحد).

(٢) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٢.

(٣) الحنفي، ثمرات الأوراق في المحاضرات، ص١٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظُلِمْتَ فَإِنْ قُلْتُ لاَ بَلْ ظَلَمْتَ فَإِنِّي أَنَا الْكَاذِبُ الآثِمُ

عَصَيْتُ وَتُبْتُ كَمَا قَدْ عَصَى وَتَابَ إِلَى رَبِّهِ آدَمُ[١]

واعترافه بذنبه أمام المأمون يرفع من قدر المأمون، ولعلَّ في هذا إظهاراً من إبراهيم لقدرة المأمون على التمكُّن من أعدائه، يقول:

هَبْنِي أَسَأْتُ وَمَا أَسَأْتُ بَلَى أَسَأْ تُ أُقِرُّ كَيْ يَزْدَادَ طُولُكَ طُولا[٢]

وبدا إبراهيم في شعره الاعتذاريّ خاضعاً لحكم المأمون. ولعلَّ هذا راجع إلى رغبته في إظهار قبوله حكم المأمون، وهو بذلك يحمّس المأمون للعفو عنه، ويشجّعه على الإقدام عليه، يقول:

ذَنْبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ لِلْعَفْوِ أَهْلُ

فَإِنْ عَفَوْتَ فَمَنٌّ وَإِنْ جَزَيْتَ فَعَدْلُ[٣]

ويقول في موطن آخر مُظْهِرًا تسليمه بحكم المأمون:

فَهَا أَنَا ذا الْعائِذُ الْمُسْتَجِيرُ فَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ يا حاكِمُ[٤]

وقد نزع في شعره الاعتذاري إلى تسويغ خروجه على المأمون، وإظهار أنّه خطأ طارئ وحدث عابر، يقول:

يَفِزُّ الْحَلِيمُ وَيَكْبُو الْجَوا دُ وَيَنْبُو لَدَى الضَّرْبَةِ الصَّارِمُ[٥]

ويُظهر في شعره الاعتذاريّ تنصّله من فعلته الّتي قام بها، ويعدّها جريمة ألزمته الوجوم والعبوس، يقول:

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ زَلَّتِي فَإِنِّيَ مِنْ جُرْمِهَا واجِمُ[٦]

---

(١) الحنفي، ثمرات الأوراق في المحاضرات، ص٢١. إشارة إلى قصّة آدم عليه السّلام عندما غواه إبليس فعصى الله، ولكنه عاد وتاب. يقول تعالى: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ [طه ١٢٠-١٢٢].

(٢) الرقام البصريّ، العفو والاعتذار، ج١، ص٢١٧.

(٣) الثعالبي، أحسن ما سمعت، شرح أحمد عبدالفتاح، مؤسسة الكتب الثقافية، ص١٢٧-١٢٨.

(٤) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢١.

(٥) المصدر نفسه، ص٢١.

(٦) المصدر نفسه، ص٢١. واجم: هو الإنسان الذي أسكته الهمّ والحزن، وعلَتْه الكآبة، ١٢/٣٦٠ (وجم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عدّ إبراهيم خروجه على المأمون مهانةً ومذلّةً لا تزولان إلاّ بعفوه والاعتذار له، يقول طالباً إبعاد المهانة عنه:

أَغِثْنِي أَمِيرَ الْمُؤمِنِينَ بِنَظْرَةٍ ... تَزُولُ بِهَا عَنِّي الْمَهَانَةُ وَالذُّلُّ
فَإِن لَمْ أَكُنْ أَهْلاً لِمَا فِيكَ أَرْتَجِي ... فَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ أَهْلُ
وَعَفْوُكَ أَرْجُو لا الْبَرَاءَةَ إِنَّهُ ... أَبَى اللّهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ لَكَ الْفَضْلُ[1]

وهو يرجو من المأمون ألا يكثر من تأنيبه ولومه، يقول:

إِنْ أَكُنْ مُذْنِباً فَحَظِّيَ أَخْطَأْ ... تْ فَدَعْ عَنْكَ كَثْرَةَ التَّأْنِيبِ
قُلْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِبَنِي يَعْـ ... ـقُوبَ - لَمَّا أَتَوْهُ - لاَ تَثْرِيبِ[2]

وقد أظهر في شعره الاعتذاريّ عزمه على عدم منازعة المأمون ثانيةً، وفي هذا إظهار الإخلاص للمأمون، يقول:

فَلَسْتُ إِلَى زَلَّةٍ عائِداً ... يَدَ الدَّهْرِ مَا قَعَدَ القائِمُ[3]

ممّا سبق يظهر ارتباط الشّعر الاعتذاريّ عند إبراهيم بالمأمون، فقد كان موجّهاً إليه. وقد مال في هذا الشّعر الاعتذاريّ إلى إظهار الولاء والإخلاص للمأمون، حيث مال إلى الاعتذار كَيْ يزرع في قلب المأمون ندمه وتأسّفه، وكَيْ يقنعه بإخلاصه و وَلائه. وقد ظهر إبراهيم في هذا الشّعر الاعتذاريّ مستكيناً هزيلاً مُقِرّاً بما اقترفته يداه نحو ابن أخيه المأمون. وأظهر المأمون متمكّناً غالباً قادراً. ولعلّه فعل ذلك ليكسب رضاه وعفوه، ويظهر له أنّ عفو القادر المتمكّن من شيم الكرام وخصالهم.

- **الهجـــاء:**

عاش إبراهيم بن المهديّ جوّاً مليئاً بالتّنافس سواء أ كان في المجال السّياسيّ أم في المجال الغنائيّ الفنّيّ. وقد أدّى هذا التّنافس إلى نشوء نزاعات عديدة بينه وبين الخلفاء تارةً، وبينه وبين

---

(١) الثّعالبيّ، أحسن ما سمعت،، ص١٢٧. ورد البيت الثاني في المصدر (فلا أكن)، وهو خطأ في النحو، ويؤديّ إلى كسر البيت عروضياً أيضاً.

(٢) الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٥. التأنيب: شدّة اللوم والتوبيخ، ٢١٦/١ (أنب). التثريب: هو التأنيب واللوم والتوبيخ، ٢٣٤/١ (ثرب). البيت الثاني إشارة إلى قوله تعالى في سورة يوسف﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

(٣) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غيره من الشّعراء أو الوزراء تارةً أخرى. وظهرت هذه النّزاعات في صورة تهاجٍ بين إبراهيم وبين أولئك المنافسين. حيث تعرّض إبراهيم لعدد من الشّخصيّات بالهجاء والذّمّ. وعُرِفَ عنه أنّه رمى المأمون وذا الرّئاستين*، فهجاهما بأقذع الهجاء، وأنّه رمى المأمون بأمّه وإخوانه وأخواته[1].

وقد كان التّهاجي بينه وبين المأمون متبادلاً، فقد هجاه وكان المأمون يظهر التّشيُّع، وإبراهيم يظهر ميله إلى السُّنة، قال المأمون:

إذا الْمُرْجِيُّ سَرَّكَ أَنْ تَرَاهُ ... يَمُوتُ لِحِينِهِ مِنْ قَبْلِ مَوْتِهِ
فَجَدِّد عنده ذِكْرى عَلِيٍّ ... وصَلِّ على النَّبِيِّ وَآل بَيْتِهِ[2]

فأجابه إبراهيم بن المهديّ راداً عليه:

إذا الشِّيعِيُّ جَمْجَمَ فِي مَقَالٍ ... فَسَرَّكَ أَنْ يَبُوحَ بِذاتِ نَفْسِهِ
فَصَلِّ على النَّبِيِّ وَصاحِبَيْهِ ... وَزِيرَيْهِ وَجارَيْهِ بَرَمْسِهِ[3]

ومن المرجّح أنّ التّهاجي بين إبراهيم بن المهديّ والمأمون كان إبّان الاقتتال الّذي كان دائرًا بين الأمين والمأمون، وفي الفترة الّتي تولّى فيها إبراهيم الخلافة. ويُرَجِّحُ كذلك أنّ التّهاجي قد انقطع تمامًا بعد عودة الخلافة إلى المأمون وعفوه عن إبراهيم، ومما يدل على ذلك الشعر الكثير الذي مدح فيه إبراهيم المأمون.

تعرّض الوزير محمّد بن عبد الملك الزيات إلى إبراهيم بن المهديّ بقصيدة طويلة هدّده فيها بفضح أمره أمام المأمون*، ومخوّفًا المأمون من إبراهيم، ومُحَرِّضًا إيّاه على الانتقام من إبراهيم، ويذكّره بأن لا يغفل أمره، يقول في هذه القصيدة:

---

* ذو الرئاستين: هو الفضل بن سهل السّرخسيّ أبو العبّاس، وزير المأمون، وصاحب تدبيره، اتّصل به في صباه وأسلم على يده سنة ١٩٠هـ، وكان مجوسيًّا، وصاحبه قبل أن يَلِيَ الخلافة، فلمّا وَلِيَها، جعل له الوزارة وقيادة الجيش معاً، وكان يُلَقَّبُ بذي الرئاستين (الحرب والسياسة)، قتله جماعة بينما كان في الحمام. وقيل: إنّ المأمون دسّهم له، وقد ثَقُلَ عليه أمْرُه، وكان حازماً، عاقلاً. (ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ٣١٣/١).

(١) ابن الجراح، الورقة، ص١٩.

(٢) المسعوديّ، مروج الذهب، ج٤، ص٣٢. المرجيّ: هو المنسوب إلى جماعة المرجئة وهم فرقة من فرق يعتقدون أنه لا تَضُرُّ مع الإيمان معصية. كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة سُمُّوا مرجئة لاعتقادهم أنّ اللّه أرجأ تعذيبهم على المعاصي أي أخّر العذاب عنهم، ٣١١/٤ (رجا).

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٥. جمجم: أخفى الشيء، ١٠٩/١٢ (جمم). الرمس: القبر، ١٠١/٦ (رمس).

* ذلك أن إبراهيم بن المهديّ أخذ عشرة آلاف دينار من أبي محمد ولم يرجعها، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الشَّـيْءَ لِلشَّـيْءِ عِلَّـةٌ ... تَكُـونُ لَـهُ كَالنَّـار تَقْـدَحُ بـالزَّنْدِ
كَذَلِـكَ جَرَّبْنَـا الأُمُـورَ وَإِنَّمَـا ... يَدُلُّكَ مَـا قَـدْ كَـانَ قَبْـلُ عَلَـى الْبُعْـدِ
وَظَنِّـي بِإِبْرَاهِيـمَ أَنَّ مَكَانَـهُ ... سَيُبْعَثُ يَوْمـاً مِثْـلَ أَيَّـامِهِ النُّكْـدِ[1]

فلمّا تولّى محمّد بن عبد الملك الزيات الوزارة في عهد الخليفة المعتصم، هجاه إبراهيم قائلاً:

يَـا بُـؤْسَ يَـوْمٍ كَاسِـفٍ ... إِنْ لَـمْ يُغَـيَّرْ فِـي غَـدِهِ
لِأُمَّـةٍ وَزِيرُهَـا ... عَـاصِرُ زَيْـتٍ بِيَـدِهِ
يُظْهِـرُ نُصْحـاً وَجْهُـهُ ... وَغِشُّـهُ فِـي كَبِـدِهِ[2]

وقد اشتدّ التّهاجي بين إبراهيم بن المهديّ وبين الشّاعر دِعْبِل الخزاعي، وقد كان دعبل مترصّدًا لأفعال إبراهيم، وكانت العلاقة بينهما سيئةً للغاية. فكلمّا سنح حادثٌ مُوجِبٌ للشّتم والسّبّ نجد الشاعر الخزاعي يهجو إبراهيم، ومن ذلك هجاؤه إيّاه حين تولّى الخلافة، فقد كان يسخر من وقوع الخلافة في يد إبراهيم[3].

وهجاه دعبل في موطن آخر عندما حضر الأجناد إلى بغداد مطالبين إبراهيم بن المهديّ بأعطياتهم، فهجاه دعبل ساخراً منه بأبيات عديدة[4]. ولم يصل إلينا الشّعر الهجائيّ الّذي قاله إبراهيم بن المهديّ في الرّدّ على دعبل الخزاعيّ، ولعلّه ضاع فيما ضاع من شعره.

* * * * *

وظهر لإبراهيم بن المهديّ اتجّاه في الهجاء، تمثّل في هجاء جماعة من النّاس، لم يذكر أسماءهم. وجاءت قصائده الهجائيّة في هذا الاتجاه على هيئة مقطوعات، ولعلّ هذا قد أسهم في ضياع أسماء الأشخاص الّذين يهجوهم. فمِنْ غير المعروف أنّ هذه القصائد قد جاءت بهذا الشّكل أم أنّها جاءت مبتورة. ونرجّح أن يكون هذا الهجاء من باب الهجاء العامّ، إذ إن الشاعر لا يقصد شخصًا بعينه، وإنّما يهجو عامّة الرّجال، ومن هذا الهجاء قوله:

يـا أَيُّهـا الْمُتَشَـاوِسُ الْمُتَغَـاضِبُ ... اَلْمُعْـرِضُ الْجَـانِي الْعَبُـوسُ الْقَـاطِبُ
لا أَنْـتَ لِـي سَـلْمٌ فَتَنْصُـرَنِي وَلا ... حَـرْبٌ إذا نَصَـبُ الْعَـتَدُوّ مناصِبُ"[5]

---

(١) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٧. الزند: هو العود الأعلى الذي تُقْتَدَحُ به النار، ١٩٥/٣ (زند).
(٢) المصدر نفسه، ص٣١. كاسف: هو الحزين والمهموم، ٢٩٩/٩ (كسف).
(٣) انظر: ص٢٢ من هذا البحث.
(٤) انظر: ص٢٤ من هذا البحث.
(٥) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٣. المتشاوس: هو الذي ينظر بمؤخّر العين تكبُّراً أو تغبُّطاً، ١١٥/٦ (شوس). المتغاضب: المراغِم، ٦٤٩/١ (غضب). الجاني: المذنب الذي يفعل ما يُوجِب العقاب في الدنيا والآخرة، ١٥٤/١٤ (جني).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول هاجيًا شخصًا لم يذكر اسمه، ساخرًا من شكله وهيئته ووجهه، وما يثيره من الشّوم بين النّاس، يقول:

فَـلا حُيِّـيَ الْوَجْـهُ الّـذِي جِئْتَنـا بِـهِ ... إذا حَيَّـتِ الْوَجْـهَ الْكَرِيـمَ الْمَجـالِسُ

يَشِيـمُ بَنِي كَعْـبٍ وَمَـا أَنْـتَ مِنْهُـمُ ... كَمَـا شامَـتِ الْغَبَراءُ قَيْساً وَدَاحِـسُ[1]

وهجا إبراهيم بن المهديّ جارية يحيى بن الرّبيع* ، واسمها دِقّاق. وكانت دِقّاق هذه تصادق جماعة من الرّجال، يميلون إليها ويذهبون عندها باستمرار، وكانت تُري كلّ رجل منهم أنّها تحبّه وأنّها له وحده، فقال إبراهيم هاجياً إيّاها:

عَدِمتُكِ يـا صَدِيقَـةَ كُـلِّ خَلْـقِ ... أَكُـلُّ النّـاسِ وَيْحَـكِ تَعْشَـقِينا؟

فَكَيْـفَ إذا خَلَطْـتِ الْغَـثَّ مِنْهُـمْ ... بِلَحْـمٍ سَمِينِهِـمْ لا تَبْشَمِينـا[2]

يظهر ممّا سبق أنّ إبراهيم بن المهديّ تعرّض في هجائه لفئات عديدة من النّاس، فتعرّض للخليفة والوزير والشاعر دعبل الخزاعي وغيرهم. ويظهر في شعره الهجائيّ عدم تورّعه في إلحاق أقسى ألوان الهجاء وأقذعه.

- **الرّثاء:**

الرّثاء من الأغراض التّقليديّة الّتي نظم فيها أكثر شعراء العربيّة، وقد كان نصيب هذا الغرض الشّعريّ عند إبراهيم بن المهديّ وافراً. ويساعدنا النّظر في الظّروف التّاريخيّة الّتي مرّ بها إبراهيم على الحكم بتوفّره على هذا الغرض الشّعريّ. فإبراهيم واكب أحداث مقتل الأمين،

---

(١) الصولي، أشعار اولد الخلفاء، ص٤٣. يشيم: يجعل شيئاً ما صفةً لازمةً لشيء آخر، ٣٢٩/١٢ (شيم). الغبراء: اسم فرس قيس بن زهير العبسي التي كانت سبباً لحرب استمرت أعواماً طويلة، ٦/٥ (غبر). داحس: اسم فرس معروف وهو لقيس بن زهير بن جذيمة العبسي ومنه حرب داحس، ٧٧/٦ (دحس). داحس والغبراء إشارة إلى الحرب التي جرت بين قبيلتي عبس وذبيان، واستمرت أربعين سنة وسبب هذه الحرب أنّ قيساً بن زهير العبسي وحُذَيْفة بن بدر الذُّبياني تراهنا على عشرين بعيراً لتتسابق عليها أفراس حُذَيْفَة وقيس، وجعلا الغاية مئة جولة، والمضمار أربعين ليلاً، فأجرى قيسٌ داحساً والغَبْراء، وأجرى حُذَيْفَة الخَطّار والحَنْفَاء، فوضعت جماعة حذيفة كميناً على الطّريق، فردّوا الغبراء، ولطموها، وكانت سابقة، فقامت الحرب بين عبسٍ وذبيان أربعين سنة، ٧٧/٦ (دحس).

* يحيى بن الربيع: رجل من الموالي، كان له العديد من الجواري، عُرِفَ بشغفه وحبه للغناء. ومن أشهر جواريه واحدة اسمها دقاق، عرفها المُغنّون، وكانوا يتقربّون إليها. (الأصفهاني، الأغاني، ٣٣١/١٢-٣٣٢).

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٢، ص٣٣١. الغَثّ: هو رديء من كل شيء، ١٧١/٢ (غثث). تبشمينا: البشم هو التخمة على الدسم، ٥٠/١٢ (بشم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان من المقرّبين إليه. وتذكر بعض المصادر أنّ إبراهيم بن المهديّ نظم قصيدة طويلة في رثاء الأمين مطلعها:

عُوجـــا بمَغْنَـــى طَلَـــل دائِـــر بالْخُلْـــدِ ذاتِ الصَّخْـــرِ والآجـــرِ[١]

وممّا وصل إلينا أيضاً من شعره الرّثائيّ قصيدتان رثى فيهما ابنه الأكبر أحمد. ولم تذكر المصادر المتعدّدة ظروف وفاة هذا الابن. ولكن يبدو من القصيدة الّتي وصلت إلينا أنّه تُوفي وهو في مقتبل العمر.

وقد تناولت أغلب المصادر قصيدة واحدة من هاتين القصيدتين، وهي القصيدة البائيّة. أمّا القصيدة الثّانية وهي - النّونيّة - فقد ذكرها مصدر واحد[٢]. وسوف نعتمد القصيدة الأولى لتحديد اتجاه إبراهيم الرّثائيّ. ذلك أنّ هذه القصيدة وردت في أغلب المصادر، فذكر ابن عساكر أربعين بيتاً[٣]، وذكر المبرّد قبله خمسة وعشرين بيتاً[٤]. وذكر الصّوليّ خمسة عشر بيتاً[٥]. ولعلّ لإبراهيم قصائد رثائيّة أخرى قالها لكنّها ضاعت. ويدلّنا على ذلك ما ورد في قصيدته البائيّة من أنّه فقد ابنًا آخر غير أحمد، فمن المحتمل أنّه قد قال شعرًا يرثيه، فهو يقول:

قَصَمْتَ جَنَاحِي بَعْدَ مَا هَدَّ مَنْكِبِي أَخُوكَ وَرَأْسِي قَدْ عَلاَهُ مَشِيبُ
تَوَلَّيْتُمَا فِي حُجَّةٍ وَتَرَكْتُمَا صَدَىً يَتَوَلَّى نَارَهُ وَيَنُوبُ[٦]

وظهر إبراهيم في هذا الغرض الشّعريّ باكيًا متفجّعًا، جريح القلب، شديد التّأثّر على مَنْ فقد، فالعين لا ينقطع دمعها عليه، فدموعه تسقط، وقلبُه سُلبتْ راحته وهدوؤه، فهو يعيش في حزن وشقاء بعد أن فقد حبيبه، يقول:

نَأى آخِرَ الأَيّامِ عَنْكَ حَبِيبُ فَلِلْعَيْنِ سَحٌّ دَائِمٌ وَغُرُوبُ
دَعَتْهُ نَوىً لاَ يُرْتَجَى أَوْبَةٌ لَهَا فَقَلْبُكَ مَسْلُوبٌ وَأَنْتَ كَئِيبُ[٧]

---

(١) الطبريّ، تاريخ الطبريّ، مج٢، ص٢٩٥. السيوطيّ، تاريخ الخلفاء، ص٣٠٠.

(٢) انظر: ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٢، ص٢٨٨ .

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٦-٢٨٨.

(٤) انظر: المبرّد، الكامل، مج٣، ص١٣٨٤-١٣٨٨.

(٥) انظر: الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٤-٤٥.

(٦) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٢، ص٢٨٨. قصمت: القصم: دقّ الشيء وكسره. قصم الله ظهره أي كسره، ٤٨٥/١٢ (قصم). منكب: المنكب: مجتمع عظم العضد والكتف، ٧٧١/١ (نكب).

(٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٢-٢٨٣. نأى: بَعُدَ، ٣٠٠/١٥ (نأى). الغروب: هي دموع حين تخرج من العين. مفردها غَرْب، وقيل أيضاً: مجاري الدمع، ٦٤٢/١ (غرب). نوىً: النوى: الدار، ٣٤٧/١٥ (نوى). الأوبة: الرجوع، آب إلى الشيء: رجع، ٢١٧/١ (آب).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو دائم البكاء على فقيده، يبكيه في كلّ الأوقات، فإن نفد الدّمع أبقى نَدَبَهُ وأَسَفَهُ على ابنه تحت ضلوعه، يقول:

سَأَبكِيكَ مَا أَبقَتْ دُمُوعِي وَالْبُكَا ... بِعَيْنَيَّ مَاءً يَا بُنَيَّ يُجِيبُ
وَمَا غَارَ نَجْمٌ أَوْ تَغَنَّتْ حَمَامَةٌ ... أَوِ اخْضَرَّ فِي فَرْعِ الْأَرَاكِ قَضِيبُ
حَيَاتِي مَا دَامَتْ حَيَاتِي فَإِنْ أَمُتْ ... ثَوَيْتُ وَفِي قَلْبِي عَلَيْكَ نُدُوبُ
وَأُضْمِرُ إِنْ أَنْفَدْتُ دَمْعِي لَوْعَةً ... عَلَيْكَ لَهَا تَحْتَ الضُّلُوعِ وَجِيبُ[1]

ولا يتوقّف في هذا الغرض الشّعريّ عن إظهار تأثير فقد ابنه عليه، وما سبّب له من بكاء دائم، بل يتجاوز إظهار البكاء إلى إظهار ما خلّفه فقد ابنه من هُزْلٍ له وضعف، يقول:

فَأَصْبَحْتُ مَحْنِيّاً كَئِيباً كَأَنَّنِي ... عَلَيَّ لِمَنْ أَلْقَى الْغَدَاةَ ذُنُوبُ[2]

ويظهر في شعره الرّثائيّ شدّة حزنه على فقيده وتعلّقه به، فهو يشفق عليه من التّراب الّذي سيهيله عليه النّاس. وأظهر أنّه يتمنّى لو يُفْتَدَى به فَيُهَالُ تراب القبر عليه بدلاً من ابنه، فهو بهذا يتمنّى الموت على أن تجزعه حسرات موت ابنه، فالموت راحة له، لأنّ طيب عيشه قد ذهب بذهاب ابنه، يقول:

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تَنَالَكَ حِدَّةٌ ... يَمَسُّكَ مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ دَبِيبُ
وَمَا زَادَ إِشْفَاقِي عَلَيْكَ عَشِيَّةً ... وِسَادُكَ فِيهَا جَنْدَلٌ وَجَنُوبُ
أَلا لَيْتَ كَفّاً بَانَ مِنْهَا بَنَانُهَا ... يُهَالُ بِهَا عَنِّي عَلَيْكَ كَثِيبُ
فَمَا لِيَ إِلاَّ الْمَوْتُ بَعْدَكَ رَاحَةٌ ... وَلَيْسَ لَنَا فِي الْعَيْشِ بَعْدَكَ طِيبُ[3]

ويظهر إبراهيم قربه الدّائم من ابنه، يقول:

وَإِنِّي وَإِنْ قَدْ مُتُّ قَبْلِي لَعَالِمٌ ... بِأَنِّي وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ قَرِيبُ[4]

---

(١) المبرّد، الكامل، مج٣، ص١٣٨٥. الأراك: شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الأوراق والأغصان، تُتّخذُ منه المساويك. مفردها أراكة، ٣٨٩/١٠ (أرك). الثواء: طول المقام، ثويت: أطَلْتُ الإقامة. ثوى بالمكان: نزل فيه، ١٢٥/١٤ (ثوى). الندوب: البكاء على الميت وتعداد محاسنه، ٧٥٤/١ (ندب). أضمر: أضْمَرَ الشيء أخفاه، ٤٩٢/٤ (ضمر). وجيب: وَجَبَ القلبُ وَجْباً ووَجِيباً: خفق واضطرب، ٧٩٤/١ (وجب).

(٢) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٧. كئيباً: مشتدّاً، ٣٥٢/١٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٨. الدبيب: هو الصوت الخفي البطيء، ٣٦٩/١ (دبب). الجندل: الحجارة، ١٢٨/١١ (جندل). الجنوب: الأرض الغليظة من الصخر لا من الطين، وقيل الجنوب: التّراب، ٢٥/١ (جنب). البنان: الأصابع. وقيل: أطرافها، مفردها بنانة، ٥٩/١٣ (بنن). الكثيب: الرمل، ٧٠٢/١ (كثب).

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر الحسرة واللّوعة على فقدان ابنه، يقول:

يَـؤُوبُ إِلَـى أَوْطانِـهِ كُـلُّ غـائِبٍ ... وأَحْمَـدُ فِـي الْغِيـابِ لَيْـسَ يَـؤُوبُ
تَبَـدَّلَ داراً غَـيْرَ داري وَجِـيرَةً ... سِـوايَ وَأَحْـدَاثُ الزَّمـانِ تَنُـوبُ
أَقـامَ بِهـا مُسْـتَوْطِناً غَـيْرَ أَنَّـهُ ... عَلَـى طُـولِ أَيّـامِ الْمُقـامِ غَرِيـبُ
وَكـانَ نَصِـيبَ الْعَيْـنِ مِنْ كُـلِّ لَـذَّةٍ ... فَأَضْـحَى وَمـا لِلْعَـيْنِ مِنْـهُ نَصِيبُ[1]

ويميل إبراهيم في شعره الرّثائيّ إلى تعداد مناقب المرثيّ وخِصالِهِ، وهو طيب الذّكر بما كان ينشره بين النّاس من أفعال حسنة، يقول:

تَوَلَّـى ويَبْقَـي بَيْنَنـا طِيـبُ ذِكْـرِهِ ... كَمـا فِـي ضِيَـاءِ الشَّـمْسِ حِيـنَ تَغِيـبُ
وَكـانَ وقَـدْ زَانَ الرِّجـالَ بِفِعْلِـهِ ... فـإِنْ قـالَ قَـوْلاً قـالَ وَهُـوَ مُصِيـبُ
وَكـانَ بِهِ تَبْهَـى الرِّكـابُ لِحُسْـنِهِ ... وهَجَّـمَ عَنْـهُ الْكَهْـلُ وَهُـوَ لَبِيـبُ[2]

ولعلَّ اللّجوء إلى الاتّجاه الرّثائيّ يظهر شدّة تحسُّر إبراهيم، ويظهر إلى جانبه أنّه يكاد لا يصدّق ما وقع لابنه من الموت، يقول:

كَـأَنْ لَـمْ يَكُـنْ كَـالدُّرِّ يَلْمَـعُ نُـورُهُ ... بِأَصْدافِـهِ لِمـا يَشِـنْهُ ثُقُـوبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُـنْ كَـالْغُصْنِ فـي سَاعَةِ الضُّحَى ... زَهَـاهُ النَّـدَى فَـاهْتَزَّ وَهُـوَ رَطِيـبُ
كَـأَنْ لَـمْ يَكُـنْ كَـالطَّرْفِ يَمْسَـحُ سَـابِقاً ... سَلِـيمَ الشَّظَـى لَـمْ يَحْتَبِـلْهُ عُيُـوبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُـنْ كَالصَّقْرِ أَوْقَـى بِشَامِـخِ الـ ... ـذُّرَى وَهُـوَ يَقْظَـانُ الْفُـؤَادِ طَلُوبُ[3]

ويظهر في هذا الغرض الشّعريّ ما كان لمرثيّه من مكانةٍ قَلْبيّةٍ عنده، وما كان يُضفيهِ على مجلسه من أُنْسٍ وسرورٍ، يقول:

---

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٧. تنوب: تنزل وتحلّ. وما ينوب الإنسان: أي ما ينزل به من المهمات والحوادث والنائبة هي المصيبة، ٧٧٤/١ (نوب).

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٧. تَبْهَى: تأنس وتزداد حزناً ولوعةً، ٩٩/١٤ (بها). الركاب: الإبل التي يسار عليها، مفردها راحلة ولا واحد لها من لفظها، جمعها رُكْب، ٤٣٠/١ (ركب). هجّم: أبعد وقلع الآخرين، ٦٠٣/١٢ (هجم). الكهل: هو الرّجل الّذي جاوز الثلاثين من عمره، وخَطّه الشّيب، ٦٠٠/١١ (كهل).

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٧. وشن الشيء: ارتفع وعلا، ٤٥٠/١٣ (وشن). زهاه: حرّكه زهت الريح الشجر تزهاه إذا هزته وحركته، ٣٦٢/١٤ (زها). الشظى: هو عظم لاصق بالذراع، وقيل: هو لاصق بالركبة، ٤٣٣/١٤ (شظا). يحتبله: احتبله: أخذه وصاده بالحبالة أو نصبها له، ١٣٦/١١ (حبل). الذّرى: جمع ذِرْوَة وهي أعلى الشيء، ٢٨٤/١٤ (ذرا).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَرَيْحَانُ صَدْرِي كَانَ حِينَ أَشُمُّهُ ومُؤْنِسُ قَصْرِي كَانَ حِينَ أَغِيبُ[١]

وعلى الرّغم من شدّة حسرته وتأثّره على ابنه، فإنّه في شعره الرّثائيّ يظهر إيمانًا مطلقاً بقضاء اللّه، فموت ابنه كما يرى عدل إلهيّ، يقول:

وَكَانَتْ يَدِي مَلأى بِهِ ثُمَّ أَصْبَحَتْ بِعَدْلِ إِلهِيٍّ وَهِيَ مِنْهُ سَلِيبُ[٢]

ويظهر إبراهيم بن المهديّ في شعره الرّثائيّ قِصَرَ عمر فقيده، يقول:

كَظِلٍّ سَرَابٍ لَمْ يُقِمْ غَيْرَ سَاعَةٍ إِلَى أَنْ أَطَاحَتْهُ فَطَاحَ جَنُوبُ
أَوِ الشَّمْسِ لَمَّا مِن غَمَامٍ تَحَسَّرَتْ مَسَاءً وَقَدْ وَلَّتْ وَآنَ غُرُوبُ
كَأَنِّي بِهِ قَدْ كُنْتُ فِي النَّوْمِ حَالِماً نَفَى لَذَّةَ الأَحْلاَمِ مِنْهُ هُبُوبُ[٣]

ويظهر من الأبيات السّابقة أنّ أحمد بن إبراهيم بن المهدّي مات وهو في رَيْعَان شبابه. ويظهر من شعر إبراهيم الرّثائيّ أيضًا أنّ ابنه قد مات لِعلّةٍ أصابته، فقد جمع له الأطباء، غير أنّهم أخفقوا في علاجه، يقول:

جَمَعْتُ أَطِبَّاءَ إِلَيْكَ فَلَمْ يُصِبْ دَوَاؤُكَ مِنْهُمْ فِي الْبِلاَدِ طَبِيبُ[٤]

وقد رثى ابن أخيه الخليفة الأمين عندما بلغه خبر مقتله، ورثاه بقصيدة ذكرت بعض المصادر أنّها طويلة. ولم تصل إلينا من هذه القصيدة سوى بضعة أبيات. وفي هذه القصيدة الرّثائيّة نجد إبراهيم يستنكر مقتل الأمين، ويستهجن طريقة قتله، ويستقبح فعلة طاهر بن الحسين الّذي قتل الأمين ونكّل به، يقول مستهجنًا صنيع طاهر:

لَمْ يَكْفِهِ أَنْ حَزَّ أَوْدَاجَهُ ذَبْحَ الْهَدَايَا بِمُدَى الْجَازِرِ
حَتَّى أَتَى يَسْحَبُ أَوْصَالَهُ فِي شَطَنٍ يُفْنِي مَدَى الشَّابِرِ
قَدْ بَرَدَ الْمَوْتُ عَلَى جَفْنِهِ فَطَرْفُهُ مُنْكَسِرُ النَّاظِرِ[٥]

---

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٧. المؤنس: هو الذي يبعث الهدوء والطمأنينة والراحة إلى الآخرين، ١٤/٦ (أنس).

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٧. أطاحته: طاح الشيء طيحاً ذهب وفنى، ٥٣٦/٢ (طيح).

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٧.

(٥) السّيوطي، تاريخ الخلفاء،ص٣٠١. حزّ: قطع، ٣٣٤/٥ (حزز). أوداجه: الودج عرق في العنق، ٣٩٧/٢ (ودج). الشطن: الحبل الطويل الشديد الفتل، الجمع: أشطان، ٢٣٧/١٣ (شطن). الشابر: هو الذي يكيل بشبْرِه. والشبر ما بين أعلى الإبهام وأعلى الخنصر، ٣٩١/٣ (شبر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يظهر ممّا سبق شدّة تأثّره بمن فقد، ويظهر بكاءه الدّائم على فقيده وتحسُّره عليه. وإبراهيم ابن المهديّ في المعاني الرّثائيّة الّتي طرقها في قصيدته السّابقة، إنّما يسير على نهج مَنْ سبقه من شعراء الرّثاء، فهم شديدو البكاء على مَنْ يرثون، وهم شديدو التّعلّق بهم. وهم يميلون في شعرهم الرّثائي إلى تعداد مناقب مرثيهم.

ويظهر من شعره الرّثائيّ صدق عاطفته. وممّا يُوجِبُ هذا الصّدق العاطفيّ العلاقة ما بين الرّاثي والمرثيّ.

- **الحِكمة:**

تنطوي الحكمة في العادة على فلسفة محدّدة ينطلق منها قائلها. وبذلك فإنّ الحكمة تمثّل فلسفة الشّاعر للوجود، وتصوُّره للحياة. وتمثّل الحكمة علاوةً على ذلك حَصَادَ معاناة الشّاعر الطّويلة مع الحياة. فهي نتاج الظّروف والتّجارب الّتي مرّ بها. وهذه التّجارب والظّروف تسهم كلُّها في تشكيل هذه الفلسفة للوجود. وبذلك فإنّ الحكمة تعكس ذات الشّاعر ونظرته الّتي تولّدت بفعل تجارب الحياة. وشاعرنا تَطْفَحُ حياتُهُ بالتّجارب والظّروف والأحداث الخاصّة. ولعلّ هذا يفسّر وفرة ورود الحكمة في أشعاره، فقد وردت في شعره بشكل لافت، واحتوتها معظم المقطوعات الّتي نظمها بعد زوال خلافته، وهي فترة ركوده وتأمله. وهذا ما يجعل حكمته الواردة في شعره صادقةً في التّعبير عمّا يريد، فهي نتاج معاناة وتجربة.

ويُلْحَظُ أن شعر الحكمة عنده لم يأتِ غرضًا مستقلاً بذاته كبقيّة الأغراض الّتي دُرِسَت، بل جاء مُضَمَّنًا في القصائد والأغراض الشّعريّة العديدة الّتي كان ينظمها. ولعلّ هذا يعطي للحكمة في شعره وظيفة المنبّه، أيّ أنّها تُستَغَلُّ لبثّ أغراض دلاليّة محدّدة تحوي نظرته الخاصّة، لما يتحدّث عنه من أغراض. وبهذا فإنّ سياق القصيدة هو الّذي يُملِي على إبراهيم حكمته المضمّنة.

ولئن اختلفت حكم إبراهيم بن المهديّ وتعدّدت دلالتها، فإنّ هذه الحكم لا تخرج عن كونها حاملةً نظرة إبراهيم للوجود، وتصوُّره للحياة بعد عديد من التّجارب الّتي مرّ بها.

وقد نحا إبراهيم في حكمته مناحيَ متعدّدة، فنقل من خلالها نظرته إلى عدد من القضايا الوجوديّة في هذا الكون. فعكست حكمه نظرته إلى الزّمان. والزّمان كما هو معلوم قضية وجوديّة أرّقت الشّعوب والأمم على اختلافها. فعن طريق الحكمة نقل إبراهيم نظرته عنه، فهو متقلّب لا يَثْبُتُ على حاله، ولتقلّبه هذا فإنّه يَقْلِبُ كل حال، يقول:

قَلَّبَ الزَّمَانُ هَوَاكَ عَنْ مِنْهَاجِهِ ... إنّ الزَّمَانَ لِكُلِّ حَالٍ قَالِبُ[1]

---

(١) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكّد إبراهيم بن المهديّ نظرته هذه إلى الزّمان. فنراه يدعو إلى مواجهة تغيُّر الزّمان بالصّبر عندما يكون مواربا للإنسان. فالدّهر إنْ كان على الإنسان يومًا فإنّه سيكون له في يوم آخر، يقول:

وَإِنْ خَلَّطَ الدَّهْرُ فَاصْبِرْ عَلَى ... تَلَوُّنِهِ فَمَعَ الْيَوْمِ غَدْ[1]

وقد كانت له نظرة واضحة للدّهر وتقلُّباته وما يسبّبه للإنسان. فأحداثه تأتي على الإنسان سواء أراد أم لم يرد، يقول:

هَبِ الدَّهْرَ لَمْ يَتَحَامَلْ عَلَى ... سِوَاكَ فَهَلْ لَكَ مِنْهُ الْقَوَدْ

وَإِنْ يَسْقِكَ الْيَوْمَ مِنْ آجِنٍ ... صَرَى لاَ يُذَاقُ وَلاَ يُزْدَرَدْ

فَقَدْ كَانَ يُسْقِيكَ مِنْ صَفْوِهِ ... نِطَافَ الْغَوَادِي بِذَوْبِ الشَّهَدْ

كَذَاكَ تَجِيءُ صُرُوفُ الزَّمَا ... نِ عَلَى مَا أَرَدْتَ وَمَا لَمْ تُرِدْ

وَقَدْ يَسْبِقُ الْفَوْتُ وَشْكَ الْعَجُو ... لِ وَيُدْرِكُ حَاجَتَهُ الْمُتَّئِدْ[2]

ولدعوته إلى الصّبر على تقلُّبات الزّمان، نرى إبراهيم داعياً إلى وجوب التّسليم والإيمان بما تجري عليه المقادير، ما دام اللّه يغيّر أحوال النّاس وشؤونهم، يقول:

دَعِ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَعِنَّتِهَا ... وَلاَ تَبِيتَنَّ إِلاَّ نَاعِمَ الْبَالِ

مَا بَيْنَ طَرْفَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا ... يُغَيِّرُ اللّهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ[3]

وقد كانت له نظرة لِمَا يعتري بعض النّاس من أحوال نفسيّة، كان للزّمان أثر في وجودها. فنراه من خلال الحكمة يدعو إلى البُعد عن القنوط، وإحلال الأمل مَحَلَّهُ في الحياة، فنراه يعدّ اليأس كُفْراً، يقول:

---

(١) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٠. القود: القِصاص، ٣٧٢ (قود). آجن: الماء المتغيّر الطعم واللون، ٨/١٣ (أجن). يزدرد: يبتلع، ١٩٤/٣ (زرد) الغوادي: الغادية: السّحابة الّتي تنشأ غَدْوَةً وتُمْطِرُ غدوةً كذلك، ١١٨/٥(غدا). صروف الزمان: أحداث الزمان ونوائبه، ١٩٠/٩ (صرف).

(٣) عبدالعزيز الحلفي، أدباء السّجون، ص١٧١. ولم يشر المؤلّف إلى المصدر الذي أخذ منه هذين البيتين. أعنّتها: العنان: الحبل، ٢٩٢/١٣ (عنن).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَـــلاَ تَجْـــزَعْ وَإِنْ أَعْسَـــرْتَ يَوْمـــاً ... فَقَـــدْ أَيْسَـــرْتَ فـــي الزَّمَـــنِ الطَّوِيـــلِ
وَلاَ تَيْـــأَسْ فَـــإِنَّ الْيَـــأْسَ كُفْـــرٌ ... لَعَـــلَّ اللّـــهَ يُغْنِـــي عَـــنْ قَلِيـــلِ
وَلاَ تَظُنَّـــنْ بِرَبِّـــكَ غَيْـــرَ خَيْـــرٍ ... فَـــإِنَّ اللّـــهَ أَوْلَـــى بِالْجَمِيـــلِ[1]

فهو يسلم الأمور بذلك إلى اللّه سبحانه وتعالى. ولعلّ هذه النّظرة إلى اليأس وضرورة تركه هي الّتي ألجأت إبراهيم إلى القول بضرورة الصّبر على النّائبات والبلاء عندما يحلّ بالإنسان، فبعد هذا البلاء يحلّ الفرج، يقول:

إِذَا الْحَادِثَـــاتُ بَلَغْـــنَ النُّهَـــى ... وَكَـــادَتْ تَذُوبَـــنَّ مِنْهَـــا الْمُهَـــجْ
وَهَـــلَّ الْبَـــلاَءُ وَقَـــلَّ الْعَـــزَاءُ ... فَعِنْـــدَ التَّنَاهِـــي يَكُـــونُ الْفَـــرَجْ[2]

ممّا سبق يظهر أنّ نظرة إبراهيم إلى الزّمان كانت نظرةً واقعيّةً، عرض خلالها تقلّبه، وعدم استقراره على حال. وقدّم لهذا التّقلّب حلولاً تمثّلت بالصّبر والتّسليم بأمر اللّه.

وقد كانت له نظرة إلى حال النّاس في الدّنيا. فيرى أنّ مَجْرَى جميع النّاس في الدّنيا واحد، ولا فرق بين كثيرها وقليلها في شيء، يقول:

مَجْـــرَى جَمِيعِ الْخَلْـــقِ فِيهَـــا وَاحِـــدٌ ... وَكَثِيرُهَـــــا وَقَلِيلُـــــها سِيَّـــــانِ[3]

وبعد هذه النّظرة إلى أحوال النّاس نرى إبراهيم يجسّد نظرةً خاصّةً إلى الحياة. وهذه النّظرة تقوم على القناعة والاكتفاء بما هو قليل، يقول:

أَبْغِـــي الْكَثِيرَ إِلَـــى الْكَثِيـــرِ مُضَاعِفـــاً ... وَلَوِ اقْتَصَـــرْتُ عَلَـــى الْقَلِيـــلِ كَفَـــانِي[4]

وجسّد من خلال شعر الحكمة حال الإنسان في هذه الدّنيا، فالدّنيا كالأحلام المختلطة الّتي يحلم بها المرء، وسرعان ما تذهب وتزول، يقول:

وَمَـــا الْمَـــرْءُ فِي دُنْيَـــاهُ إِلاَّ كَهَاجِـــعٍ ... رَأَى فِـــي غِـــرَارِ النَّـــوْمِ أَضْغَـــاثَ أَحْلاَمِ[5]

---

(١) التنوخي، المستجاد، ص٧٧. تجزع: الجزع: نقيض الصبر، ٤٧/٨ (جزع).
(٢) ابن وادران، تاريخ العباسيين، ص٤١٣. النُهى: العقل يكون واحداً وجمعاً، ٣٤٦/١٥ (نهي).
(٣) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٦٨.
(٥) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص٦٧١. غرار النوم: الغرار: النوم القليل. وغرار النوم: قلته، ١٧/٥ (غرر). أضغاث: الضغث: الحلم الذي لا تأويل له، ١٦٣/٢ (ضغث).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر شاعرنا في شعر الحكمة مسلِّماً بتوزيع الأرزاق وقسمتها، فلكلّ إنسان رزق ونصيب لا يجاوزهما مهما بلغت به الأمور، فهو يقول:

قَدْ يُرزَقُ الْعَبْدُ لَمْ تَتْعَبْ رَواحِلُهُ ... وَيُحْرَمُ الرِّزْقَ مَنْ لَمْ يُوْتَ مِنْ طَلَبِ
مَعَ أَنَّنِي واجِدٌ فِي النَّاسِ واحِدَةً ... اَلرِّزْقُ وَالنَّوْكُ مَقْرُونانِ فِي سَبَبِ
وَخَصْلَةٌ لَيْسَ فيها مَنْ يُنازِعُني ... اَلرِّزْقُ أَرْوَغُ شَيْءٍ عَنْ ذَوِي الأَدَبِ
يا ثاقِبَ الْفِكْرِ كَمْ أَبْصَرْتَ ذا حَمَقٍ ... اَلرزْقُ أَغْرى بِهِ مِنْ لازِمِ الْجَرَبِ[1]

وينظر إبراهيم بن المهديّ إلى رزق الإنسان على أنّه محدود لا يزيد ولا ينقص، وأنّ هذا الرّزق ثابت لا يتغيّر مهما انتقل الإنسان من مكان إلى آخر، فرزقه في انتظاره أينما حلّ وارتحل، يقول:

لَوْ فَرَّ مِنْ رِزْقِهِ عَبْدٌ إلى جَبَلِ ... دُونَ السَّماءِ لأَلْفَى رِزْقَهُ فيهِ[2]

وعلى الرغم من اعتراف إبراهيم بأنّ رزق الإنسان مكتوب ومقضي به، إلاّ أنّه لا ينفي جهد الإنسان في سبيله، يقول:

عَلَى الْمَرْءِ أن يَسْعَى ويَبْذُلَ جُهْدَهُ ... وَيَقْضِي إلهُ الْخَلْقِ ما كانَ قاضيا[3]

ويُظهِرُ إبراهيم الحريص على الدّنيا، المتمسّك بها تعباً غير قنوعٍ بما يصل إليه من جاه وسلطان ورزق، يقول:

قَدْ شَابَ رَأْسِي وَرَأْسُ الْحِرصِ لَمْ يَشِبِ ... إنّ الْحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لَفِي تَعَبِ
مَا لِي أَرَانِي إذا طَالَبْتُ مَرْتَبَةً ... فَنِلْتُهَا طَمِحَتْ عَيْنِي إلى رُتَبِ؟[4]

وينقل إبراهيم بن المهديّ من خلال حكمته نظرة النّاس إلى بعضهم، فالشّقيّ عدوّهم، يقول:

وَمَا النَّاسُ إلاّ عَدُوُّ الشَّقِيِّ ... وإلاّ صَدِيقُ امْرِىءٍ قَدْ سَعِدْ[5]

ويقول في مَنْ يخلق بغير أخلاقه مظهراً نظرته فيه:

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٧. الراحلة: البعير القوي على الأسفار والأحمال، ٢٧٧/١١ (رحل). النوك: الحمق، ٥٠٠/١٠ (نوك). لازم الجرب: الذي يلزمه الجرب ولا يفارقه، ٥٤١/١٢ (لزم).

(٢) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٤. ألفى: وجد، ٢٥٣/١٥ (لفي).

(٣) الثعالبيّ، التمثيل والمحاضرات، ت: عبدالفتاح الحلو، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م، ص١٢.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٧.

(٥) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَـنْ تَحَلَّـى شِيمَـةً لَيْسَـتْ لَـهُ فارَقَتْـهُ وَأَقَامَـتْ شِيمَتُـهُ[١]

وينقل إبراهيم من خلال شعر الحكمة ما يحكم علاقات النّاس في المجتمع، فقد ذم طائفة النمامين، فالنّمام مثل السّيل يأتي الإنسان من حيث لا يحتسب، يقول:

مَنْ قَالَ فِي النَّاسِ قَالُوا فِيهِ مَا فِيهِ وَحَسْبُهُ ذَاكَ مِنْ خِزْيٍ وَيَكْفِيهِ
مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ عَنِ الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ
كَالسَّيْلِ يَجْرِي وَلاَ يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ جَاءَ وَلاَ مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ[٢]

وتظهر حكمته مائلة إلى الوسطيّة في الأمور، مُبْعِداً نفسه عن المبالغة في الشّيء حتّى في الصّداقة، يقول:

إِنِّي كَثُرْتُ عَلَيْهِ فِي زِيارَتِهِ وَالشَّيْءُ مُسْتَثْقَلٌ جِدًّا إِذَا كَثُرا[٣]

وكثيراً ما يضمّن إبراهيم وصاياه الّتي يوصي بها حكماً، تمثّل تصوّره لمن يوصيه، وما عليه أن يقوم به، ومن ذلك قوله:

وَاءَ مَضِيقِ الْخَوْفِ مُتَّسِعُ الأَمْنِ وَأَوَّلُ مَفْرُوجٍ بِهِ آخِرُ الْحُزْنِ
فَلاَ تَيْأَسَنْ فَاللَّهُ مَلَّكَ يُوسُفَ خَزَائِنَهُ بَعْدَ الْخَلاَصِ مِنَ السِّجْنِ[٤]

ونراه يوصي أحدهم بقلّة الكلام والابتعاد عن لغوه مضمّناً هذه الوصيّة الحكم، يقول:

إِنْ كَانَ يُعْجِبُكَ السُّكُوتُ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ يُعْجِبُ قَبْلَكَ الأَخْيَارا
وَلَئِنْ نَدِمْتَ عَلَى سُكُوتِكَ مَرَّةً فَلَقَدْ نَدِمْتَ عَلَى الْكَلامِ مِرارا
إِنَّ السُّكُوتَ سَلامَةٌ وَلَرُبَّمَا زَرَعَ الْكَلامُ عَداوَةً وَضِرارا[٥]

---

(١) الجرجاني، الوساطة بين المتنبّي وخصومه، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ص٣٣٤.

(٢) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٣-٣٤.

(٣) أبو الطّيب الوشاء، الموشّى، ص٤٦.

(٤) ابن وادران، تاريخ العباسيين، ص٤١٣. الشطر الثاني من البيت الثاني إشارة إلى دخول يوسف عليه السلام السجن بعد حادثته مع زوجة عزيز مصر، وهو قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف:٣٩]. الشطر الأول إشارة إلى ملك خزائن مصر: يقول تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف:٥٤-٥٦]. مفروج: الفُرجة: التخلّص من الهمّ والحزن. ٣٤١/٢ (فرج).

(٥) أبو الطيب الوشاء، الموشّى، ص١٥-١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالّذي يكثر من الكلام يجابه بما يكره، يقول:

وَإِنِّـــي لأَتْـــرُكُ جُـــلَّ الْكَـــلاَمِ ... لِئَـــلاَّ أُجَـــابَ بِمَـــا أَكْـــرَهُ
إِذَا مَـــا احْتَـــرَزْتُ سِفَـــاهَ السَّفِيـــهِ ... عَلَـــيَّ فَإِنِّـــي لاَ أُسْقَـــهُ[1]

ويورد الحكمة لينقل تصوُّره عن خُلُق إنسانيّ ما، فالحِلْمُ كما يراه إبراهيم دافع للسّفهاء، يقول:

وَفِـــي الْحِلْـــمِ رَدْعٌ لِلسَّـــفِيهِ عَـــنِ الأَذَى ... وَفِـــي الْخُـــرْقِ إِغْـــرَاءٌ، فَـــلاَ تَـــكُ أَخْرَقَـــا
فَتَنْـــدَمَ إِذْ لاَ تَنْفَعَـــنَّ نَدَامَـــةٌ ... كَمَـــا نَـــدِمَ الْمَغْبُـــونُ لَمَّـــا تَفَرَّقَـــا[2]

وأغلب الشّعر الّذي جمعناه لإبراهيم في الحِلم، أورده على هيئة حكم متوالية، ومن ذلك ما نجده في هذه الأبيات:

إذا كُنْـــتَ بَيْـــنَ الْحِلْـــمِ وَالْجَهْـــلِ ناسِـــياً ... وَخُـــيِّرْتَ أَنِّـــي شِـــئْتَ فَـــالْحِلْمُ أَفْضَـــلُ
وَلَكِـــنْ إِذَا أَنْصَفْـــتَ مَـــنْ لَيْـــسَ مُنْصِفـــاً ... وَلَـــمْ يَـــرْضَ مِنْـــكَ الْحِلْـــمَ فَـــالْجَهْلُ أَمْثَـــلُ
إذا جـــاءَنِي مَـــنْ يَطْلُـــبُ الْجَهْـــلَ عَـــامِداً ... فَـــإِنِّي سَـــأُعْطِيهِ الَّـــذِي قَـــدْ جـــاءَ يَسْـــأَلُ
وَلَـــمْ أُعْطِـــهِ إِيَّـــاهُ إِلاَّ لأَنَّـــهُ ... وَإِنْ كَانَ مَكْرُوهاً مِـــنَ الـــذُّلِ أَجْمَـــلُ[3]

وظهر إبراهيم في حكمه مؤمناً مُسلِّماً أمره إلى اللّه، داعياً إلى التّفكّر والتّدبُّر في أمور الدّنيا، فنراه يجسّد نظرته للموت، وأنّه حاصل لا مَحالَةَ، يقول:

إِنَّ الْمَنِيَّـــةَ أَمْهَلَتْـــكَ عَنَاهِـــي ... وَالْمَـــوْتُ لاَ يَسْهُـــو وَقَلْبُـــكَ سَـــاهِ[4]

ويَظْهَرُ إبراهيم في حكمه مُسلِّماً بقضاء اللّه، مؤمناً بأنّ أجل الإنسان ثابت لا تغيّره الظّروف والأحوال، يقول:

لِـــي مُـــدَّةٌ لا بُـــدَّ أَبْلُغُهَـــا ... مَعْلُومَـــةٌ فَـــإِذَا انْقَضَـــتْ مُـــتُّ
لَـــوْ سَاوَرَتْنِـــي الأُسْـــدُ ضَارِيَـــةً ... لَغَلَبْـــتُهَا مَـــا لَـــمْ يَجِـــي الْوَقْـــتُ[5]

---

(١) شهاب الدين العنّابي، نزهة الأبصار في محاسن الأشعار، ص٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٣. الرّدع: الكفّ عن الشيء، ١٢١/٨ (ردع). الخرق: الحمق والجهل، ٧٥/١٠ (خرق). المغبون: الضعيف الرأي والعقل، ٣٠٩/١٣ (غبن).

(٣) المصدر نفسه، ص٦٢.

(٤) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٧.

(٥) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٢٣٠. ساورتني: واثبتني وقاتلتني، ٣٨٥/٤ (سور). ضارية: الأُسُدُ الضارية: المعتادة على أكل فرائسها والهجوم عليها، ٤٨٢/١٤ (ضرا).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ممّا سبق يظهر أنّ شعر الحكمة عند إبراهيم بن المهديّ جاء ناقلاً نظرته للوجود. فنقل من خلاله نظرته عن الزّمان، والدّنيا وما تحويه من مختلف دروب العلاقات، فتحدّث عمّا يربط النّاس من علاقات، وتحدّث عن الرّزق، وأنّ للإنسان رزقه الثّابت الّذي لا ينقص ولا يزيد مهما حاول الإنسان ذلك. ورأينا أن شعر الحكمة عند إبراهيم لم يأتِ مستقلاً لذاته، بل جاء مُضَمَّناً مع أغراض أخرى كما تقدم.

● **الفخـر:**

نظم إبراهيم في هذا الغرض الشّعريّ أشعاراً عدّة. فهو يفتخر بنفسه، ولم نلحظ عنده فَخْراً بقبيلته، ففخره كان من الفخر الشّخصيّ. وإذا نظرنا إلى سيرته نجد أنّه لم يكن من المعتّدين بأنفسهم المبالغين في رفع قيمتها، بل أُثِرَ عنه التّواضع، ولين الجانب. وهذا ما لمحناه حقيقةً في شعره الّذي يفخر فيه بنفسه، فهو يفخر بأنّه مِمَّنْ أَلِفُوا الكرام أصحاب المجد والصِّيط، فَصحابته من ذوي النّسب العريق الممتدّ، يقول:

يـا طُـولَ عِلّـةِ قَلْبِـيَ الْمُعْتـادِ ... أَلِـفَ الْكِـرامَ وَصُحْبَـةَ الأَمْجـادِ
ما زِلْـتُ آلَـفُ كلَّ قَـرْمٍ ماجِـدٍ ... مُتَقَـدِّمِ الآبـاءِ وَالأَجْـدادِ[1]

ونراه في قصيدة أخرى يفخر بشجاعته وشدّة بأسه، وإيثاره الآخرين على نفسه، فهو يرمي بنفسه إلى الهلكة في سبيل نجاة بني قومه، وهو يخترق صفوف الأعداء مجرّداً إيّاهم من أسلحتهم، يقول:

أَلَـمْ تَعْلَمِـي يـا آلَ فِهْـرِ بـنِ مـالِكٍ ... رَمَيْـتُ بِنَفْسـي دُونَكُـمْ فِـي الْمَهـالِكِ
بَلَـى فَـاعْلَمِي يـا آلَ فِهْـرٍ بـأَنَّنِي ... أَخُـوكِ الَّـذي أَعْطَـاكِ حَـقَّ إِخـائِكِ
أَخُـوكِ الَّـذي يَقْري عُـدُوَّكِ صارِمـاً ... حُسامـاً وَيَقْـري الدُّرَّةُ فِي شِفائِـكِ[2]

وهو كعادة العرب يفخر بكرمه، يقول:

أَجُـودُ بِمَالِـي دُونَ مالِـكِ تَـارَةً ... وَطَـوْراً أُقِيـمُ الْغُـرَّ تَحْـتَ لِوَائِـكِ[3]

ويفخر في هذه القصيدة بصبره وسرعته في تحصيل كلّ حقّ له، يقول:

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٦، ص١٨. القرم: السيد المعظم، جمعها قروم، (قرم).

(٢) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤١. يقري: يَطْعَنُ ويضرب بالشيء، ١٧٥/١٥ (قرا). الصارم: السيف القاطع، ٣٣٥/١٢ (صرم). الدر: هي الأداة التي يضرب بها السلطان، ٢٨٢/٤ (درر).

(٣) المصدر نفسه، ص٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإنِّـــي صَبُـــورٌ لِمَـــا نَابَنِـــي سَرِيـــعٌ إِلـــى كُـــلِّ حَـــقٍّ عَرَانِـي[١]

ويفخر إبراهيم بإجارته للمظلوم وإغاثته للملهوف، فمَنْ يُجِيرُهُ لا يخاف، ومَنْ يسعَى إليه ويرجوه لا يردُّه خائبًا، يقول:

وَلَيْسَ يُرَى خَائِفـــاً مَـــنْ أَجَـــرْ تُ وَلاَ خَائِبـــاً سَعْيُـــهُ مَـــنْ رَجَانِـــي[٢]

وهو في شعره الفخريّ وَفِيّ يحبّ الوفاء إذا وعد، وهو بذلك إنّما يسير على ما عوّده عليه آباؤه وأجداده، يقول:

أُحِـــبُّ الْوَفَـــاءَ إِذَا مَـــا وَعَـــدْ تُ وَأَلاَّ يُعَـــابَ بِمَطْـــلِ ضِمَـــانِي
كَذَلِـــكَ عَوَّدَنِـــي وَالِـــدِيَّ فَعَـــوَّدْتُ نَفْسِـــي الَّـــذِي عَوَّدَانِـــي[٣]

ممّا سبق يظهر خلوّ شعر إبراهيم الفخريّ من أيّ فخر بالقوم أو القبيلة. ولُوحِظَ أنّ إبراهيم كان يفتخر بمفاخر معنويّة. فافتخر بالكرم، والشّجاعة، والرّزانة، والصّبر، والوفاء. ولم نلحظ عنده فخرًا بمفاخر ماديّة كالحديث عن الجمال وغيره. فهو مهتم بالمعاني الفخريّة الّتي افتخر بها، لا يخرج عمّا نظمه الشّعراء العرب قبله فيما يخصّ الفخر الشّخصيّ.

- **الشّكوى والعتاب :**

مرّت بإبراهيم بن المهديّ أحداث كثيرة أورثته الهمّ والحزن، وأشعرته بتخلّي النّاس عنه، وجعلته يعاني كثيرًا، ويصل الأمر به إلى التّرحيب بالموت للرّاحة ممّا يعانيه ويشكو منه، يقول:

فَلَـــوْ أَنَّ خَـــدًّا مِـــنْ وُكُـــوفِ مدامِـــعِ يُـــرَى مُعْشِـــباً لاَخْضَـــرَّ خَـــدِّي فأَعْشَـــبا
كَـــأَنَّ رَبِيـــعَ الزَّهْـــرِ بَيْـــنَ مَدَامِعِـــي بِمَـــا انْهَـــلَّ مِنْهَـــا مِـــنْ حَيَـــا وَتَصَبَّبَـــا
وَلَـــوْ أَنَّنِـــي لَـــمْ أَبْـــكِ إِلاَّ مُوَدِّعـــاً بَقِيَّـــةَ نَفْسِـــي وَدَعَتْنِـــي لِتَذْهَبَـــا
وَقَدْ قُلْـتُ لَمَّـا لَـمْ أَجِـدْ لِـيَ حِيلَـةً مِـــنَ الْمَـــوْتِ لَمَّـــا حَلَّ أَهْلاً وَمَرْحَبَـــا[٤]

ولعلّ أبرز حدث مرّ بإبراهيم بن المهديّ خروجه على المأمون، ومحاولته استلاب الخلافة منه، وما أعقب ذلك من فراره وتواريه عن الأنظار. وأثناء فراره كان المأمون قد أهدر دمه

---

(١) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٨. عراني: غشيني وأصابني، ٤٤/١٥ (عرا).

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٨. المطل: التسويف والمدافعة بالوعد، ٦٢٤/١١ (مطل).

(٤) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٧٧. الوكوف: وكوف الدموع سيلانها ونزولها، ٣٦٢/٩ (وكف). انهلّ: سال بشدة، ٧٠٢/١١ (هلل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصادر أملاكه وأمواله وضياعه. وجعل لِمَنْ يدلّ على مكانه المكافأة المجزية. وتوعّد مَنْ يستتر عليه بالعقاب الشّديد. وكان من نتيجة هذا مجافاة النّاس له وصدّهم عنه. وهذا ما زاد من همّه وحزنه، فانعكس هذا في شعره عن طريق الشّكوى من الأصدقاء الذين تخلوا عنه، فعلى الرّغم من إحسانه لهم وكثرة فضائله عليهم، فإنّهم غابوا عنه، وخذلوه وتَخَلَّوْا عنه، يقول:

تَحَامَانِي الصَّدِيقُ وَغَابَ عَنِّي ... ثِقَاتُ صَنَائِعِي وَهُمُ حُضُورُ
وَقَلُّوا فِي الْبِلاَدِ وَكَانَ عَهْدِي ... بِهِمْ زَمَنَ الرُّخَاءِ وَهُمْ كَثِيرُ
فَلَمْ يَكُ فِي يَدِي مِنْهُمْ وَمِمَّا ... ذَخَرْتُهُمُ لَهُ إِلاَّ الْغُرُورُ
أَيَا عَجَباً أَمَا فِي النَّاسِ مِمَّنْ ... تَقَلَّدَ نِعْمَتِي رَجُلٌ شَكُورُ[١]

فأصدقاؤه بذلك يَجْحَدُون نِعمته الّتي كان يحسن بها عليهم. ولم يكتف هؤلاء الأصدقاء بذلك، بل نجده يشكو تحامُلَهم عليه عند أعدائه، يقول:

يَا عَائِبِي عِنْدَ أَعْدَائِي لِيُرْضِيَهُمْ ... وَبَائِعِي بِيَسِيرِ مَا لَهُ خَطَرُ
أَظْهَرْتَ أَنَّكَ لاَ أَنْتَ الْعَدُوُّ وَلاَ ... أَنْتَ الْوَلِيُّ الَّذِي يُصْفَى وَيُدَّخَرُ[٢]

وفي شكوى إبراهيم من الصّديق نجده يجعل صديقه عدوًا. ولعلّ هذا يظهر انخداع إبراهيم بأصدقائه، وعدم توفيقه في اختيارهم، فأصدقاؤه أعداء له، وإنْ لبسوا ثوب الصّداقة لحظة الرّخاء والنّعمة، وهذا الثّوب يخلعونه عند اشتداد الأمور، فينسون ما كان من ودّ وقرب، يقول:

أَرَاهُ فِي فِعْلِهِ عَدُوًّا ... وَكُنْتَ أَعُدُّهُ صَدِيقَا[٣]

وعلى الرّغم من شكوى إبراهيم من أصدقائه، وجعلهم في مصافّ أعدائه بعد إعراضهم عنه، فإنّ ما يقومون به من إعراض وخذلان لا يَضيرُهُ، يقول:

فَمَا تَحَوَّلَ مِنْ سَلْمَى وَلا أَجَإٍ ... رُكْنٌ ولا خُسِفَتْ شَمْسٌ ولا قَمَرُ[٤]

ويوجه إبراهيم عادة العتاب إلى من قصر معه من بني العباس، إذ نراه يعاتبهم لتخلّيهم عنه وقت محنته، يقول:

---

(١) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤١. تحاماني: تجنّبني وابتعد عني الناس، ١٤/٢٠٠ (حما).
(٢) المصدر نفسه، ص٤٣. الخطر: القدر والمنزلة والشرف، ٤/٢٥١ (خطر).
(٣) المصدر نفسه، ص٤٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٣. سلمى وأجأ: جبلان لطيء يُنْسَبُ إليهما أجئيون، ١/٢٤ (أجأ)، ١٢/٢٩٩ (سلم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَإِنِّـــي وَواهـــي مُلْكِكُـــمْ مِثْـــلُ ســـائِقٍ طَلِيحـــاً يُزَجِّيهـــا علـــى الأَيْـــنِ راكِـــبُ
إذا صَدَقَتْنِـــي النَّفْـــسُ عَنْكُـــمْ تَقُـــولُ لـــي أَتَـــدْرِي هَـــداكَ اللّـــهُ مَـــنْ ذَا تُعـــاتِبُ
فَوَاللّـــهِ مـــا أَدْرِي إِذا مـــا ذَكَرْتُكُـــمْ أَأَعْقُـــو لَكُـــمْ عَـــنْ ذَنْبِكُـــمْ أَمْ أُعـــاقِبُ
بَلَـــى لَيْـــسَ لِـــي إِلاَّ تَغَمُّـــدُ ذَنْبِكُـــمْ وَإِنْ لَـــمْ يَكُـــنْ فِيكُـــمْ مِـــنَ الذَّنْـــبِ تـــائِبُ
وَإِنِّـــي وَأُمِّـــي أُمكُـــمْ وَأَبِـــي لَكُـــمْ أَبٌ عَنْكُـــمُ لِـــي لَـــوْ أَرَدْتُ مَذاهِـــبُ[1]

وقد عتب على بني العبّاس في أكثر من قصيدة، وذلك لتخلّيهم عنه، وهربهم منه بعد أن انتخبوه خليفة، وذلك بعد قدوم المأمون إلى بغداد، يقول:

فَـــلا جُزِيَـــتْ بَنُـــو الْعَبَّـــاسِ خَـــيْراً عَلَـــى رَغْمِـــي وَلاَ اغْتَبَطَـــتْ بِـــرِي
أَتَوْتِـــي مُهْطِعِيـــنَ وَقَـــدْ أَتَاهُـــمْ بَـــوارُ الدَّهْـــرِ بِالخَبَـــرِ الْجَلِـــي[2]

ولم يشك إبراهيم الأصدقاء وحدهم، بل نجده يشكو من الدّهر كذلك. فالدّهر تنكّر له، وجاء ليزيد من همومه وبَلْوَاهُ، يقول:

مَضَـــى اللَّيْـــلُ إِلاَّ أَنَّ لَيْلِـــيَ لاَ يَمْضِـــي وَأَنَّ جُفُونِـــي لَـــمْ تُـــرَوَّ مِـــنَ الْغُمْـــضِ
إِذَا صَـــدَّ عَنْـــكَ الدَّهْـــرُ يَوْمـــاً بِوَجْهِـــهِ تَقَاضَـــاكَ مِـــنْ إِحْسَانِـــهِ سَالِفَ الْقَرْضِ[3]

وقد عدّ الدّهر ناقضاً للعهود، فالدّهر تنكّر له، بعد أن كـان طائعًا لـه. وبعد أن كـان مالكًا الدّنيا أصبح بفعل الدّهر خاليًا من أيّ مُلْكٍ. والدّهر كما يراه غير عادل في فعله، يقول شاكيًا الدّهر:

---

(١) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٨-٣٩. الطليح: هـو الراعي الـذي يهتم بـأمر أنعـام وغيرهـا، ٥٣١/٢ (طلح). يزجّيها: زجى الشيء وأزجاه: أي ساقه ودفعه وأزجى الإبل: ساقها، ٣٥٤/١٤ (زجا). الأين: التعب والإعياء، ٤٤/١٣ (أين). تغمّد: ستر، ٣٢٦/٣ (غمد).

(٢) المسعودي، التنبيـه والإشـراف، مطبعـة بريل، ليدن، ١٨٩٤م، ص٣٥٠. اغتبـط: شـكر اللّـه علـى مـا أنعـم وأفضل وأعطى، وغبطة هي المسرّة، ٣٥٩/٧ (غبـط). مهطعين: المهطـع الـذي ينظـر فـي ظـل وخشـوع، ٣٧٢/٨ (هطع). البوار: الهلال، ٨٦/٤ (بور).

(٣) الصولي، أشغار اولد الخافاء، ص٤١. تقاضاك: قبض منك، ١٨٨/١٥ (قضا). السالف: المتقدّم والماضي، ١٥٨/٩ (سلف).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَللَّـــهِ نَفْسِـــي إنَّ فِـــيَّ لَعِـــبْرَةً ... وَفِـي الدَّهْـرِ نَقْـضٌ لِلْعُـرَى بَعْـدَ إبْـرام
غَـدَوْتُ عَلَـى الدُّنْيَـا مَلِيكـاً مُسَـلَّطاً ... وَرُحْـتُ وَمَـا أَحْـوِي بِهَـا قَيْـسَ إبْهَـام
وَهَـلْ لَيْلَـةٌ فِـي الدَّهْـرِ إلاَّ أَرَى بِهَـا ... قَـدْ انْثَبَـتَ أَقْدامـاً وَزَلَّ بِـأَقْدام
كَـذاكَ رَأَيْنَـا الدَّهْـرَ يَقْـدِمُ صَرْفَـهُ ... عَلَـى كُـلِّ نَفْـس بَيْـنَ بُـؤْس وَإنْعَـام
فَـيَرْفَعُ أَقْوامـاً وَكَـانُوا أَذِلَّـةً ... وَيَهْـوِي مِـنَ الصِّيْـدِ الْكِـرامِ بِـأَقْوام
فَيُسْـقِيهِمُ شِـرْبَيْنَ سُـخْناً وبَـارِداً ... بِكَأْسَـيْنِ شَـتَّى مِـنْ هَـوان وَإكْـرام
وَكَائِنْ تَـرَى مِـنْ مُعْدَم بَعْـدَ ثَـرْوَةٍ ... وَآخَـرَ يُؤْتَـى ثَـرْوَةً بعْـدَ إعْدام[1]

وقد شكا انقلاب الأحوال عليه. فبعد نعيم ورخاء العيش، أصبحت حياته في بؤس وشقاء، يقول:

أَضْحَـتْ حَيَـاتُكَ فِـي بُـؤْس تُكَـابِدُهُ ... بَعْـدَ النَّعِيـمِ كَـذاكَ الدَّهْـرُ بَدَّلَهَـا
عَدِمْـتَ بَـاقِي حَيَـاةٍ قَـدْ شُـجِيتَ بِهَـا ... فَمَـا عَلَـى الْجَهْـدِ أَبْقَاهَـا وَأَطْوَلَهَـا
فِـي فَـتْرَةٍ مِـنْ مَرِيـرِ الْعَيْـشِ مُفْظِعَـةٍ ... قَدْ كُنْتَ مِـنْ قَبْـلِ رَيْـبِ الدَّهْـرِ أَجْهَلُهَا
حَتَّـى إذا هِـيَ حَلَّـتْ بِـيَ اعْتَرَضْتُ لَهَـا ... صَـبْراً عَلَيْهَـا فَـإنِّي لَسْـتُ أَحْقَلُهَـا
مُسْتَنْظِـراً نِعْمَـةً لا شَـيْءَ يَحْجُبُهَـا ... عَـنِ الْعِبَـادِ إذا الرَّحْمَـنُ أَرْسَلَهَـا[2]

وقد شكا الشّيب وتقدُّم العمر به، فقد منعاه اللّهو والطّرب ومجالسة الحبيب، يقول:

سِـنٌّ وَشَـيْبٌ وَجَهْـلٌ ... أَمْـرٌ لَعَمْـرُكَ صَعْـبُ
يَـا ابْـنَ الإمَـام فَهَـلاً ... أَيَّـامَ عَـوْدِي رَطْـبُ
وَشَـيْبُ رَأْسِـي قَلِيـلٌ ... وَمَنْهَـلُ الْحُـبِّ عَـذْبُ
وَإذْ شِـفَاءُ الْغَوَانِـي ... مِنِّـي حَدِيـثٌ وَقُـرْبُ
فَـالآنَ لَمَّـا رَآنِـي ... عَوَاذِلِـي مَـا أَحَبُّـوا
وَاقْصِـرِ الْحَمْـلَ مِنِّـي ... وَسَـاعِدُ الشَّـيْبُ لَـبُّ
آلَيْـتُ مَـا اشْـرَبُ كَأْسـاً ... مَـا حَـجَّ لِلَّـهِ رَكْـبُ[3]

---

(١) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٥، ص٨٢. العرى: العقود: مفردها العروة، ٤٥/١٥ (عرا). إبرام: إحكام الأمر وعقده، ٤٣/١٢ (برم). قيس إبهام: قدر إبهام. والإبهام من الأصابع العظمى وقد يكون في اليد أو في القدم، ١٨٧/٦ (قيس) و ٥٩/١٢ (بهم). الصيد: الأصيد هو الذي يرفع رأسه تكبُّراً وفخراً.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٨٢-٨٣. تكابده: مكابدة الأمر: معاناة مشقّته. كابدتُ الأمرَ: قاسَيْتُ شدّته، ٣٧٦/٣ (كبد). شجيت: الشجو: الحزن والهمّ. شجاني يشجوني شجواً إذا أحزنني، ٤٢٢/١٤ (شجا). مفظعة: شديدة ومرعبة وشنيعة، ٢٥٤/٨ (فظع). ريب الدهر: صروف الدهر وتقلّباته، ٢٤٢/١ (ريب).

(٣) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٢٣٥. آليت: حلفت وأقسمت، ٤٠/١٤ (ألا). ركب: أصحاب الإبل في السفر دون الدّواب، ٤٢٩/١ (ركب).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجده في شكواه يلمح أملاً في انفراج ما يشكو منه. فنراه يلجأ إلى الصّبر ليساعده فيما هو فيه من شكوى وهمّ، يقول:

إنَّ الَّـذي عقَـدَ الَّـذي انْعَقَـدَتْ بِـهِ ... عَقْـدُ الْمَكـارِهِ فِيـكَ يَحْسُـنُ حلُّهـا
فَاصْبِـرْ فَـإنَّ اللّـهَ يُعْقِـبُ رَاحَـةً ... فَلَعَلَّهـا أَنْ تَنْجَلِـي ولَعَلَّهـا[1]

وقد كان لإبراهيم أشعار شكا فيها محبوبته، وما تُسبّبه له من الهمّ[2].

وقد ارتبط موضوع الشكوى عنده بالتّحسّر، فنراه يمزج بين هذين اللونين كثيراً بحيث لا نستطيع أن نفصلهما، فهو يتعجب من أن يمرّ الإنسان في هذه الدّنيا دون أن يقف فترة يتأمّلها ويقف على ما فيها، وفي هذا يقول:

عَجَبـاً عَجِبْـتُ لِغَفْلَـةِ الإنْسـانِ ... قَطَـعَ الْحَيـاةَ بَغِـرَّةٍ وَتَـوانِ
فَكَّـرْتُ فِـي الدُّنْيـا فَكانَـتْ مَنْـزِلاً ... عِنْـدي كَبَعْـضَ مَنـازِلِ الرُّكْبـانِ[3]

ولعلّ هذا التّفكّر بالدّنيا هو الّذي دفعه إلى التّحسّر والشكوى على ما كان له فيها من المتع والنّعم، فقد طرق إبراهيم هذا الغرض ليبكي ويتحسّر على ما فاته من العمر. فبكى ذهاب شبابه وحلول الشّيخوخة. ومن هذه الأشعار ما قاله عندما انتهى أمره في الخلافة، وأبعده المأمون عن مسرح الأحداث، فقال:

ذَهَبْـتُ مِـنَ الدُّنْيـا وَقَـدْ ذَهَبَـتْ مِنِّـي ... هَـوَى الدَّهْرُ بِـي عَنْهـا وَوَلَّـى بِهـا عَنِّـي
فَـإنْ أَبْـكِ نَفْسـي أَبْـكِ نَفْسـاً نَفِيسَـةً ... وَإنْ أَحْتَسِـبْها أَحْتَسِـبْها عَلَـى ضَـنِّ
وَأَفْلَتَنِـي عِيسَـى وَكـانَتْ خَدِيعَـةً ... حَلَلْـتُ بِهـا مُلْكِـي وَفَلَّـت بِهـا سِـنِي
وَإنِّـي وَإنْ كُنْـتَ الْمُسـيءَ بِعَيْبِـهِ ... بَـرِيءٌ تَعـالَى جَـدُّهُ عـالِيَ الظَّـنِّ
عَـدَوْتَ عَلَـى نَفْسِـي فَعـادَ بِعَفْـوِهِ ... عَلَـيَّ فَـادَ الْعَفْـوُ مَنـّا عَلَى مَنِّ[4]

---

(١) ابن وادران، تاريخ العباسيين، ص٤١٣.

(٢) انظر: ص٦٥-٦٨ من هذا البحث.

(٣) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٧.

(٤) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١٠٤. الأصفهاني، الأغاني، ج١٠، ص١٦٩. احتسبها: الاحتساب: من يعمل عملاً وينوي بعمله الأجل المدّخَر كأن يعمل ويُبقي الأجل عند الله، ٣١٥/١ (حسب). عيسى: هو عيسى بن محمد كان من القوّاد وقد ناصر إبراهيم بن المهديّ في وثوبه على الخلافة، وكان من أبرز أنصار إبراهيم ثم غضب عليه وأمر بضربه وحبسه لخيانة ظهرت منه، تاريخ الطبري، ج٣، ص١٠٠٢. رسني: الرسن هو الحبل، ١٨٠/١٣ (رسن).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتذكر الرّوايات أنّ المأمون لمّا سمع هذه الأبيات قال: "واللّهِ لا تذهب نفسك يا إبراهيم على يد أمير المؤمنين فطب نفسًا، فإنّ اللّه قد أمّنك إلاّ أن تُحْدِثَ حدثًا يشهد عليه فيه عدل. وأرجو ألاّ يكون منك حدث إنْ شاء اللّه"(١).

ونرى إبراهيم بن المهديّ يتحسّر على حلول الشّيب برأسه فهنا شكوى من تسارع العمر، فقد نظر إبراهيم في المرآة، وتفحّص وجهه ذات يوم، فرأى الشّيب قد غزا رأسه، وتجعّد وجهه، فلم يملك سوى التّحسّر والتّأوّه على ما آل إليه، يقول:

إذَا سَالَ وَادِي الشَّيْبِ فِي مَفْرِقِ الْفَتَى ... وَقَنَّعَ مِنْهُ عَمَّةَ الْمُتَلَثِّمِ

فَيَا قُبْحَ مَا تَحْكِي الْمِرَاةُ لِعَيْنِهِ ... وَيَا بُعْدَهُ مِنْ كُلِّ عَيْشٍ وَمَنعَمِ(٢)

وسلك إبراهيم في هذا الغرض مسلك الوعظ، وقد اتّخذه ليكون وسيلةً يتّعظ بها مَنْ يذكّره، فها هو يخاطب أحدهم، فيدعوه إلى التّحسّر على ما عاشه من لهو ولذّة ونعيم وطرب، يقول:

بِاللّهِ رَبُّكَ كَمْ بَيّتَاً مَرَرْتَ بِهِ ... قَدْ كَانَ يَعْمُرُ بِاللَّذاتِ وَالطَّرَبِ

طَارَتْ عُقَابُ الْمَنَايَا فِي جَوَانِبِهِ ... فَصَارَ مِنْ بَعْدِهَا لِلْوَيْلِ وَالْحَرَبِ(٣)

ولعلّ إبراهيم بن المهديّ قد طرق هذا الغرض الشّعريّ في أخريات حياته، فالحزن على الشّيء والتّحسّر عليه، إنّما يكون بعد أن يكون الإنسان قد تمتّع به. وهذا الغرض الشّعريّ تلازمه سمة الحزن والحنين إلى ما يتحسّر عليه الشّاعر. ويلازم الغرض الشّعريّ الشّعراء عادةً عندما تكون تجربتهم في الحياة قد اكتملت ونضجت. وقد رأينا هذا الغرض الشّعريّ عند إبراهيم بعد أن فقد كثيراً ممّا كان يتمتّع به، فلجأ إليه بعد ضياع الخلافة منه، وفقدانه لنفوذه الّذي كان يتمتّع به. ولجأ إليه بعد أن تقدّم به العمر، فغزا الشّيب رأسه، وأبعده عن مجالس اللّهو والطّرب والمتعة.

* * * * *

كان لإبراهيم بن المهديّ الكثير من المراسلات إلى بعض أصدقائه. وكانت هذه المراسلات تحوي مختلف المشاعر من تلطف وعتاب، وطلب الصفح عن ذنب ما اقترفه ضدّ أحد الأصدقاء، ومن هذه المراسلت الّتي بثّ فيها خالص ودّه إلى أحد أصدقائه، يقول:

---

(١) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١٠٥.

(٢) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٠. مفرق: وسط الرأس، وهو الذي يُفْرَقُ فيه الشعر، ٣٠١/١٠ (فرق).

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٧. المنايا: المنية: قدر الموت وسميت المنيةَ لتدلّ على قرب الموت. ويذكر ابن منظور أن بعض اللغويين يرى أنّ المنية ليست الموت، وإنما أحداث الموت وأسبابه، ٢٩٣/١٥ (منا).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هَدِيَّـــي تَقْصُـــرُ عَـــنْ هِمَّتِـــي وَهِمَّـــي تَعْلُـــو عَلَـــى مَـــالي
وَخَالِـــصُ الْـــوُدِّ وَمَحْـــضُ الْهَـــوَى أَحْسَـــنُ مَـــا يُهْدِيـــه أَمْتَالـــي[1]

ونراه في هذا الغرض الشّعريّ يُكْبِرُ من أصدقائه، ويرفع من قيمتهم، فهم كرمـاء طيبـو النّفوس، ومن ذلك ما قال لصديقٍ اسمه أبو قاسم، يقول:

أَبَـــا قَاسِـــمٍ إِنِّـــي أَرَاكَ صَبَابَـــةً كَـأَنَّكَ مِـنْ لَحْمِـي خُلِقْـتَ وَمِـنْ دَمِـي
وَإِنِّـــي لأَهْـــوَى أَنْ أُرِبَّ صَنِيعَـــةً إِلَيْـــكَ بِـــآلاَءٍ كِـــرَامٍ وأَنْعُـــمِ
أَيَـــادِي كَرِيـــمٍ طَيِّـــبِ النَّفْـــسِ بَعْدَهَـــا إِذَا مَـــا الأَيَـــادِي أُتْبِعَـــتْ بِالتَّنَـــدُّمِ[2]

من الأبيات السّابقة يظهر أنّه يقيم توحُّدًا بينه وبين صديقه.

ويطلب إبراهيم المغفرة والصفح من أحد أصدقائه، يقول:

أَنْـــتَ امْـــرُؤٌ مُتَجَـــنٍّ وَلَسْـــتَ بَالْغَضْبَـــانِ
هَبْنِـــي أَسَـــأْتُ فَهَـــلاَّ مَنَنْـــتَ بِالْغُفْـــرَانِ[3]

وقد يعنف إبراهيم في عتابه، إذ نراه يوجه اللوم والتقريع إلى بعض الأصدقاء، مِمَّنْ رأى فيهم تخاذلاً وبعداً عنه. ويلوم إبراهيم الصّديق المتقلب الذي يظهر غير ما يبطن، يقول:

لَحَـى اللَّـهُ مَـنْ لاَ يَنْفَـعُ الْـوُدُّ عِنْـدَهُ وَمَـنْ حَبْلُـهُ إِنْ مُـدَّ غَـيْرُ مَتِـينِ
وَمَـنْ هُـوَ ذُو لَوْنَيْـنِ لَيْـسَ بِدَائِـمٍ عَلَـى عَهْـدِهِ خَـوَّانُ كُـلِّ أَمِينِ[4]

ونراه يقرّع أصدقاءه لمجانبتهم طريق الاستقامة وعدم اتّباع الرّشد. ومن ذلك قوله لأحد أصدقائه، وقد رأى منه خلقاً مَشِيناً:

أَطَعْـتَ الْهَـوَى وَعَصَيْـتَ الرَّشَـدْ وَلَـمْ تَمْلِـكِ الصَّبْـرَ عَمَّـنْ تَـوَدّ[5]

---

(١) القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس، مج١، ص٢٨٤. المحض: هو الشيء الخالص النقيّ، ٢٢٧/٧ (محض).

(٢) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٠-٤١. أرب: ربّه يَرِبُّه: ملكه، ٤٠٠/١ (ريب). الآلاء: النعم، ٤٣/١٤ (ألا).

(٣) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٦. متجنّ: المتجنيّ: الذي يتقوّل عن الآخرين أشياء ليس فيهم ويدّعي أنها فيهم، ١٥٤/١٤ (جني).

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٦. لَحَى: قبح ولعن وأهلك، ٢٤٢/١٥ (لحا).

(٥) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سلك إبراهيم بن المهدي في أشعاره هذه مسلك الوعظ وتذكيرصديقه بما يعيش فيه من بُعْدٍ عن طريق الصّواب ومجانبة الحقّ. ونراه في هذا الشّعر صاحب خبرة وتجربة، يحرص من خلالهما على إقناع صديقه بضرورة التّمسّك بما يقول. ومن ذلك ما نجده في قصيدة إخوانيّة أرسلها إلى الشّاعر المعروف أبي العتاهية، ونجده ينكر على أبي العتاهية هجره الدّنيا وبعده عنها. وفي هذه القصيدة نجده يظهر نظرته إلى مسألة الانقطاع عن الدّنيا، ونراه يؤمن بتصوُّر يخالف فيه أبا العتاهية، فالعيش كما يرى إبراهيم حلو، والدّنيا لم يُخْلَقِ الإنسانُ فيها للبكاء، وإنما خُلِقَتْ ليستمتع فيها الإنسانُ من غير ضلالة. فيدعو في هذه القصيدة صديقه إلى إصلاح سريرته، وأن يخاف مقام اللّه. وينكر إبراهيم في هذه القصيدة على صديقه الخطابة المفوّهة الّتي يبتغي من ورائها السّمعة، دون أن تغيّر من نفسه وتحسّن من خلقه. ونرى إبراهيم في هذه القصيدة يقرّع صديقه ويلومه على حصره لنفسه وتضييقه الدّنيا عليه. ومن هذه القصيدة التي خاطب فيها أبا العتاهية قوله:

إنَّ الْمَنِيَّـــةَ أَمْهَلَتْـــكَ عَتَـــاهي ... وَالْمَـــوْتُ لا يَسْـــهو وَقَلْبُـــكَ سَـــاهِي
يَـا وَيْـحَ ذَا الْبَشَـرِ الضَّعِيـفِ أَمَـا لَـهُ ... عَـنْ غَيِّـهِ قَبْـلَ الْمَمَـاتِ تَنَـاهِي
وَكُلِّـفْتَ بالدُّنْيَـا تُبَكِّيهَـا وَتَنْـ ... ـدُبُها وَأَنْـتَ عَـنِ الْقِيامَـةِ لاهِ
اَلْعَيْـشُ حُلْـوٌ وَالْمَنُـونُ مَريـرَةٌ ... وَالـدَّارُ دارُ تَفَـاخُرٍ وَتَبَـاهِ
فَـاجْعَلْ لِنَفْسِـكَ دُونَهـا شُـغْلاً وَلاَ ... تَتَجَـاهَلَنَّ لَهـا فَـإِنَّكَ داهِـي
لاَ يُعْجِبَنَّـكَ أَنْ يُقَـالَ مُفَـوَّهٌ ... حَسَـنُ الْبَلاغَـةِ أَوْ عَرِيـضُ الْجَـاهِ
أَصْلِـحْ فَسَـاداً مِـنْ سَـرِيرَتِكَ الَّتِـي ... تَلْهُـو بِهـا وَارْهَـبْ مَقَـامَ اللّـهِ
مـا الزُّهْـدُ مِـنْ رَجُـلٍ أَلَـدَّ مُكَـذِّبٍ ... بِـالْبَعْثِ غَـيْرَ ضَلاَلَـةٍ وَسَـفَاهِ
وَأَرى الْمَقَالَـةَ غَـيْرَ صالِحَـةٍ وَإِنْ ... أَظْهَـرْتَ غَـيْرَ مَقَالَـةِ الأَوَّاهِ
إِنِّـي رَأَيْتُـكَ مُظْهِـراً لِزَهَـادَةٍ ... نَحْتَـاجُ مِنْـكَ لَهـا إِلَـى أَشْـبَاهِ
إِنْ كَـانَ لُبْـسُ الصُّـوفِ حُجَّتَـكَ الَّتِـي ... تَدْعُـو النَّجَـاةَ فَـإِنَّنِي لَـكَ نَـاهِ
مـا فِـي يَدَيْـكَ مِـنَ اللِّبَـاسِ إِذا غَـوَتْ ... مِنْـكَ السَّـرِيرَةُ غَـيْرَ حَبْـلٍ واهِ
لا شَـيْءَ يُقْبَـلُ مِنْـكَ إِلاَّ مـا بِـهِ ... حكِمَـتْ عَلَيْـكَ نَواطِـقُ الأَفْـوَاهِ
وَالأَمْـرُ بَعْـدُ عَلَيْـكَ وَيْحَـكَ واسِـعٌ ... مـا لَـمْ تُسَـوِّ إِلهَنَـا بِإِلَـهِ[1]

(١) الصّوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٧-٤٨. العتاهة: الضلال والحمق، ٥١٣/١٣ (عته). الغيّ: الضلال والخيبة والفساد، ١٤٠/١٥ (غوى). تناهي: الكفّ عن الشيء ونهي الآخرين عنه، ٣٤٣/١٥ (نهي). تندبها: الندب: البكاء على الميت وتعداد محاسنه، ٧٥٤/١ (ندب). داهي: ضعيف، ٤١٧/١٥ (دهي). سرّيرتك: السريرة عمل السرّ من خير أو شرّ، ٣٥٧/٤ (سرر). الأواه: كثير الحزن، ٤٧٣/١٣ (أوه).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونلاحظ من خلال دراستنا لأشعار إبراهيم بن المهديّ أنّ ورود شعره في هيئة مقطوعات وأبيات مستقلّة، لا في صورة قصائد كاملة، يُعَدُّ ظاهرةً ميّزت شعر إبراهيم بن المهديّ كما سنرى بعد قليل عند الدراسة الفنيّة في شعره.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الدّراسة الفنيّة

في

شعر إبراهيم بن المهديّ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتناول الدّراسة الفنّيّة عند شاعر ما إبراز أهمّ الخصائص الفنّيّة الّتي ظهرت في شعر هذا الشّاعر. فهي تكشف عن قدرة الشّاعر الإبداعيّة، كما تكشف عن قدرته في التّعامل مع العناصر اللّغويّة المتعدّدة في نظم الشّعر، وتتولّى إظهار جماليات شعره.

وسوف نتناول في هذا الجانب من البحث دراسة أبرز الخصائص الفنّيّة في شعر إبراهيم ابن المهديّ. وهذه الخصائص تمثّل نزعات فنّيّة، ظهرت بارزةً في شعره. وستنحصر الدراسة الفنية لشعره في أربعة جوانب، هي:

أ- شكل القصيدة.

ب- ظواهر الأسلوب الشعري.

ج- الصور الشعرية.

د - البحور والقوافي.

أ- شكل القصيدة:

الظّاهرة البارزة في معظم أشعار إبراهيم مجيئها على هيئة مقطوعات شعرية قصيرة لا تتجاوز خمسة أبيات أو ستّة. ولم تصل إلينا قصائد طويلة له سوى ثلاث قصائد في موضوعات مختلفة. وأرى أننا بحاجة إلى تعليل مجيء معظم أشعاره على هيئة مقطوعات شعريّة لا على هيئة قصائد.

من المهمّ أن نشير إلى أنّ مجيء الأشعار على هيئة مقطوعات يُعَدُّ بحدّ ذاته ظاهرةً فنّيّةً، خاصّةً إذا علمنا أنّ هذه المقطوعات جاءت مترابطةً مضموناً وشكلاً، ولم نلحظ فيها أي خلل معنويّ أو شكليّ، وهذا يعني أنّ هذه المقطوعات تكاد تكون مستقلّةً. ومن هنا يأتي السؤال عن سبب ورودها بهذا الاستقلال المضمونيّ، وأوّل ما يخطر على الذّهن في تعليل هذه الظّاهرة أنّ هذه المقطوعات جزء من قصائد طويلة له ضاع معظمها، وبقي جزء منها وهو المقطوعة. وهذا الضّياع قد يكون ناتجاً عن إهمال الرّواة وأصحاب المصنّفات لشعره. ومن الممكن أن يكون لأصحاب المصنّفات الأدبيّة والتّاريخية دورٌ في ظهور شعره على هيئة مقطوعات، فهؤلاء المصنّفون كانوا يعرضون في كتبهم موضوعات متعدّدة، يتحدّثون عنها، ويستشهدون لها بأبيات، يعدّونها غايةً في الإتقان. كأن يكتب أحدهم عن الحلم مثلاً، فيستشهد بما حسن من أشعار العرب على هذا الموضوع، وهذا ما حدث في أشعار إبراهيم بن المهديّ، فكثيرٌ من كتب الأدب كانت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتمثّل بأشعاره في المدح مثلاً، أو الاعتذار، أو الشكر أو غيرها، وتقتصر في تمثيلها على الأبيات الّتي يتحقّق فيها المعنى الّذي تتحدّث عنه. ومن الممكن أن تتوافق هذه الظّاهرة مع طبيعة شعره، فهو شاعر مغنٍّ، وشعره من الشّعر المغنّى، ومن هنا فإنّ المغنّي - إبراهيم - يحرص على ألاّ تكون أبياته المغنّاة طويلة حتّى لا تملّها الأسماع، ويبتعد عنها أصحاب الطّرب، فغناء الشّعر يستدعي أن تكون الأبيات المغنّاة قصيرةً ليسهل على الآخرين التّجاوب معها.

وقد جاءت مقطوعاته الشّعريّة مترابطةً مضمونًا وشكلاً، فقد تناولت مضمونًا واحدًا استغرق المقطوعة كاملةً. والأمثلة على المقطوعات الشّعريّة كثيرة ومتعدّدة. ويمكن أن نعتمد ما درسناه في الأغراض الشّعريّة السّابقة أمثلةً عليها.

وقد جاءت بعض مقطوعات إبراهيم كأنّها بيت شعريّ واحد، لا يتمّ معناه إلاّ في نهاية المقطوعة، فنراه ينظم مقطوعات شعريّة تبقى متنامية غير مكتملة المعنى حتّى تصل إلى البيت الأخير للمقطوعة. وهذا مظهر من مظاهر التّرابط في المقطوعات الشّعريّة عنده، فهناك مقطوعة توحي بدايتها أنّ الشّاعر يتحدّث عن مرثيّ، غربت شمسه وانتهت حياته، ولكن تتّضح لنا الحقيقة في نهاية المقطوعة حيث ظهر حزنه بسبب جارية قد بعدت عنه، يقول:

مَا بالُ شَمْس أبي الخطاب قَدْ غربتْ ... يا صاحِبَيَّ أَظُنُّ السّاعَةَ اقْتَرَبَتْ
أَمْ لا، فما بالُ ريح كُنْتُ آمُلُها ... غَدَتْ عَلَيَّ بِصِرٍّ بَعْدَما خُبِّئَتْ
أَشْكُو إِلَيْكَ أبا الخطاب جارِيَةً ... غَرِيرَةً بِفُؤادِي الْيَوْمَ قَدْ لَعِبَتْ[1]

ومن ذلك قوله أيضاً:

قَدْ تَغَدَّى الْمَلِكُ الْـ ... ـمَأْمُونُ مِنْ قَبْلِ الزَّوالِ
وَدَعا بِالرّاحِ إِذْ ... صَحَّ لَهُ فَقْدُ الْهِلالِ
وعَلَى لَكَ خَمْسٌ ... مِنْ مَصابِيحِ الضَّلالِ
فَاسْمَعْ بِاللّهِ إِلَى ... عَمَّكَ مِنْ غَيْرِ مِطالِ[2]

وإذا تركنا المقطوعات الشّعرية، وتحدثنا عن قصائد إبراهيم الطّويلة، فإنّ الملفت للنّظر ابتعاد الشّاعر عن المقدّمة الطّلليّة الّتي درج عليها الكثير من شعراء العربيّة. فشاعرنا يدخل إلى

---

(١) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٤٢.

(٢) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٩٠-٩١. الزوال: المقصود بالزوال هنا زوال الشمس أي ذهابها ومغيبها، ٣١٤/١١ (زول).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صلب موضوعه مباشرة دون أن يمهّد لها. وهذا الكلام ينسحب على معظم شعره باستثناء قصيدة واحدة نظمها إبراهيم في رثاء الأمين. ومن الشواهد على ابتعاده عن المقدّمة الطللية قصيدته في رثاء ابنه أحمد، حيث نراه يبكي من البيت الأول:

نَأَى آخِرَ الأَيَّامِ عَنْكَ حَبِيبُ ... فَلِلْعَيْنِ سَحٌّ دَائِمٌ وَغُرُوبُ
دَعَتْهُ نَوًى لا يَرْتَجِي أَوْبَةً لَهَا ... فَقَلْبُكَ مَسْلُوبٌ وَأَنْتَ كَئِيبُ
يَؤُوبُ إِلَى أَوْطَانِهِ كُلُّ غَائِبٍ ... وَأَحْمَدُ فِي الْغِيَابِ لَيْسَ يَؤُوبُ
تَبَدَّلَ داراً غَيْرَ داري وَجِيرَةً ... سِوايَ وأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَنُوبُ[١]

وحتى في مديحه نراه يدخل إلى صلب الموضوع دون مقدّمة، فيقول مادحاً المأمون:

يَا خَيْرَ مَنْ ذَمَلَتْ يَمَانِيَةٌ بِهِ ... بَعْدَ الرَّسُولِ لآيِسٍ أَوْ طَامِعِ
وَأَبَرُّ مِنْ عَبَدَ الإِلَهَ عَلَى التُّقَى ... عَيْناً وَأَحْكَمُهُ بِحَقٍّ صَادِعِ
عَسَلُ الْفَوارِعِ مَا أَطَعْتَ فَإِنْ تَهِجْ ... فَالصَّابُ فِي جُرَعِ السَّمَامِ النَّاقِعِ[٢]

كما نجد ذلك أيضاً في مدحه للخليفة المعتصم:

مَا زَالَ يَعْتُفُ بِالنُّعْمَى فَنَفَّرَهَا ... عَنْهُ الْغُمُوطُ وَرَافَتْهُ الأَرَاصِيدُ
حَتَّى عَلا حَيْثُ لا يَنْحَطُّ مُجْتَمِعاً ... كَمَا عَلا أَبَداً مَا أَوْرَقَ الْعُودُ
يَا بُقْعَةً ضُرِبَتْ فِيهَا عَلاوَتُهُ ... وَعَيْنُهُ وَذَرَتْ أَغْصَانُهُ الْمِيدُ
بُورِكْتِ أَرْضاً وَأَوْطَاناً مُبَارَكَةً ... مَا عَنْكِ فِي الأَرْضِ لِلتَّقْدِيسِ تَعْرِيدُ[٣]

ولإبراهيم قصائد أخرى في الشكوى والوعظ وجدناه يدخل فيها إلى مواضيعه مباشرةً دون التقديم لها. ولعلّ هذا امتداد لِمَا جرى عليه عدد من الشعراء في العصر العبّاسيّ، فقد تركوا المقدّمات كالطّلليّة أو غيرها. ففي إحدى قصائد الشكوى، يدخل إبراهيم إلى موضوعه مباشرةً، يقول:

تَحَامَانِي الصَّدِيقُ وَغَابَ عَنِّي ... ثِقَاتُ صَنَائِعِي وَهُمُ حُضُورُ
وَقَلُّوا فِي الْبِلادِ وَكَانَ عَهْدِي ... بِهِمْ زَمَنَ الرَّخَاءِ وَهُمْ كَثِيرُ[٤]

ويبدو أنّ طبيعة المقطوعة الشعرية لم تتح للشّاعر فرصة التوسُّع فيها، والتّمهيد لموضوعه بمقدّمة طلليّة قد تستغرق عدّة أبيات. ومع ذلك، نراه في رثائه للأمين يلجأ إلى التقديم للرثاء بمقدّمة طلليّة على الرّغم من أنّ مرثيّته لم تتجاوز سبعة أبيات، هي:

---

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٢، ص٢٨٦.
(٢) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص١٩.
(٣) المرتضى، أمالي المرتضى، ج٢، ص٢٤٩.
(٤) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عُوجـــا بمَغْنَـــى طَـــلَل دائِـــر ... بـــالخُلْدِ ذاتِ الصَّخْـــر والآجـــر
وَالْمَرْمَـــر الْمَسْـــنُون يُطْلَـــى بـــهِ ... وَالْبـــابِ بَـــابِ الذَّهَـــبِ النَّـــاضِرِ
وَأَبْلِغَـــا عَنِّـــي مَقَـــالاً إِلـــى الْمَـــ ... ـوْلَـــى عَـــن الْمَـــأْمُور والآمِـــر
قَـــولا لَـــهُ يـــا ابْـــنَ وَلِـــيِّ الهُـــدَى ... طَهِّـــرْ بِـــلادَ اللّـــهِ مِـــنْ طَـــاهِر
لَـــمْ يَكْفِـــهِ أَنْ حَـــزَّ أَوْدَاجَـــهُ ... ذَبْـــحَ الْهَـــدْيِ يـــا هُـــدَى الْحَـــاذِرِ
حَتَّـــى أَتَـــى يَسْـــحَبُ أَوْصَالَـــهُ ... فِـــي شَـــطَن يُقْنِـــي مَـــدَى الشَّـــابر
قَـــدْ بَـــرَدَ الْمَـــوْتُ عَلَـــى جَفْنِـــهِ ... فَطَرْفُـــهُ مُنْكَسِـــرُ النَّاظِـــرِ[1]

ب- ظواهر الأسلوب الشعريّ:

ارتبطت بأشعار إبراهيم بن المهديّ العديدُ من الظواهر الأسلوبيّة الّتي ظهرت بارزةً في كثير من المواضع. وهذه الظّواهر تُعَدُّ استخداماً واعياً منه للّغة ومستوياتها كافّةً. فالأسلوب الشّعري كما هو معروف مرتبط بالاستخدام المقصود للشّاعر أو المبدع للّغة. وبهذا فإنّ تعامل الشّاعر مع اللّغة يُعَدُّ تعاملاً خاصًّا، وخصائصه الأسلوبيّة تُعَدُّ سماتٍ خاصّةً كذلك[2]. ولمّا كان الأفراد يتمايزون في استخدام اللّغة، فقد عُدَّ التّمايز في هذا الاستخدام تمايُزاً في الأسلوب كذلك[3].

ممّا سبق يظْهَرُ أنّ الأسلوب مرتبط بدراسة سبل استخدام الشّاعر للّغة وطرق توظيفه لهذا الاستخدام، والغايات الّتي يسعى الشّاعر إليها من وراء استخدامه للّغة. ويشمل تعامل الشّاعر مع النّظام اللّغويّ عناصر هذا النّظام ومستوياته كافّة، فيشمل مستوى الألفاظ ومستوى التّركيب ومستوى الدّلالة. وفي دراستنا لظواهر الأسلوب الشّعريّ عند إبراهيم سوف نحددّ أهمّ الظّواهر الأسلوبيّة البارزة في شعره، ومن الضّروريّ أن نشير إلى أنّ هذه الظّواهر تتراوح بين اللّفظة المفردة والتّركيب، وصولاً إلى التّأثّر بأساليب أخرى. والظواهر الأسلوبية التي سندرسها عند إبراهيم هي:

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٠-٣١. عوجا: عاج بالمكان أي قام به، ٣٣٣/٢ (عوج). المرمر: الرخام، ١٧٠/٥ (مرر). الناضر: الناعم الذي له بريق في صفائه، ٢١٣/٥ (نضر). الشطن: الحبل الشديد الفتل، تُشدّ به الخيل، ٢٣٧/١٣ (شطن).

(٢) شكري عيّاد، مدخل إلى علم الأسلوب، ١٩٨٢م، ص٢٨-٢٩.

(٣) شكري عيّاد، اللغة والإبداع، مبادىء علم الأسلوب العربي، دار انترناشونال برس، ط١، القاهرة، ١٩٨٨م، ص١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- ألفاظه:

حرص إبراهيم على انتقاء ألفاظه واختيارها بدقّةٍ. وظهر هذا الحرص في طبيعة الألفاظ الّتي وجدناها عنده، فقد جاءت ألفاظه سهلةً مألوفةً بعيدةً عن الغريب والوحشي من اللّفظ. ولعلّ بيئة الشّاعر حيث الحضارة والمدنيّة قد أثّرت في هذا التّوجُّه عنده.

وقد جاء اختيار إبراهيم لألفاظه مراعياً للغرض الشّعريّ الّذي ينظم فيه، ففي شعر الغزل حيث التّقرُّب من المرأة، والتّودُّد إليها نجد ألفاظه تتناسب مع التّودُّد واللّين الّذي هو بصدده. فجاءت ألفاظه في الغزل رقيقة سَلِسَةً معبِّرَةً عن شاعر ذي حسٍّ مَرْهَف، فاسمعه وهو يتحدّث عن محبوبته بقوله:

تَوَهَّمَــــهُ طَرْقِـــــي فَـــــآلَمَ خَـــــدَّهُ فَصَـارَ مَكَـانَ الْوَهْـمِ مِـنْ نَظَـرِي أَثْـرُ
وَصَافَحَـــهُ كَفِّـــي فَآلَـــمَ كَفَّـــهُ فَمِـــنْ لَمَـــسِ كَفِّي فِي أَنَامِلِهِ عَقْـــرُ[١]

ونجد ألفاظه سلسة ذات دفق شعوري في الرّثاء حيث الحزن والهمّ ودموع العين على مَنْ فقد، يقول في رثاء ابنه:

نَأَى آخِـــرَ الأَيَّـــام عَنْـــكَ حَبِيـــبُ فَلِلْعَيْـــنِ سَـــحٌّ دَائِـــمٌ وَغُـــرُوبُ[٢]

ونجد ألفاظه في غرضي الهجاء والفخر قويّةً معبِّرةً عن قلب يَنْضَحُ فَخْراً وقوّةً عند الفخر، ولساناً يرمي ألفاظاً ذات وقع شديد في الهجاء. فألفاظه بذلك تتناسب المعاني الموضوعة لها وتؤديها بقدرة محكمة، يقول:

يـــا أَيُّهـــا الْمُتَشَـــاوِسُ الْمُتَغَـــاضِبُ الْمُعْـــرِضُ الْجَـــانِي الْعَبُـــوسُ الْغَـــاضِبُ
لا أَنْـــتَ لِـــي سَـــلْمٌ فَتَنْصُرَنِـــي ولا حَـــرْبٌ إذا نَصَـــبُ الْعَـــدُوِّ مُنَـــاصِبُ
قَلَـــبَ الزَّمَـــانُ هَـــوَاكَ عَنْ مِنْهاجِـــهِ إنَّ الزَّمَـــانَ لِكُـــلِّ حَـــالٍ قَـــالِبُ[٣]

ولم نلحظه يُغْرِبُ في ألفاظه إلاّ في قصيدة واحدة، وقد كانت ألفاظ هذه القصيدة قريبةً من الألفاظ الجاهليّة حيث الإغراب والصّعوبة، يقول:

---

(١) ابن منظور، مختار الأغاني، ج١، ص٢٥٣.
(٢) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٦.
(٣) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بِكُـــلِّ جَلاَلَـــةٍ عَيْسَـــاءَ حَـــرْفٍ عَلَنْـــدَاةٍ وأَعْنَـــسَ عَجْرَفَـــيِّ
إِذَا شُـــدَّتْ بِهَـــا الأَنْسَـــاعُ أَصْغَـــتْ كَمَـــا أَصْغَـــى النَّجِـــيُّ إِلَـــى النَّجِـــيِّ
وَرَاغِيَـــةٍ تَنَتْـــكَ عَـــنِ التَّصَابِـــي كَمَـــا تَنَـــتِ الضَّعِيـــفَ يَـــدُ الْقَوِيِّ[١]

ولعلّ الإغراب في الأبيات السّابقة متعمد من إبراهيم، أراد أن يثبت فيه مقدرته اللّغويّة، ومعرفتـه لألفاظ العرب القديمة.

وممّا يبرز عند دراسة ألفاظ إبراهيم تكرار لفظ بعينه أكثر من مرّة، وقد كان لتكرار اللّفظ هذا دورٌ في تنمية إيقاع القصيدة وإظهاره، اعتماداً على تكرار الوحدات الصّوتيّة نفسها أكثر من مرّة. وإضافة إلى القيمة الإيقاعيّة الّتي يخلقها تكرار الألفاظ في شعر إبراهيم، نجد أنّ هذا التّكرار يُوَظَّفُ كثيراً في خدمة أغراض الشّاعر، ومن ذلك رغبته في تأكيد معنًى ما، ونجده في قوله معتذراً أمام المأمون، يقول:

هَبْنِـي أَسَـأْتُ وَمَا أَسَـأْتُ بَلى أَسَـــأْ تُ أَقِـرُّ كَـيْ يَـزْدَادَ طُـولُكَ طُـولاَ[٢]

فتكرار "أسأت" في البيت السّابق هدفه اعترافه بإساءته للمأمون، والتّأكيد على أنّه مُسِيءٌ، وأنّ المأمون بعيد عن الإساءة. ونجده في موطن آخر يكرّر لفظة "العفو" في بيت يمدح فيه المأمون. ولعلّ تكرار هذا اللّفظ راجع إلى رغبته في تأكيد هذه الصّفة في المأمون، وجعلها ملازمةً له، يقول:

عَـــدَوْتُ عَلَـــى نَفْسِـــي فَعَـــادَ بِعَفْـــوِهِ عَلَـــيَّ فَعَـــادَ الْعَفْـــوُ مَنًّـــا عَلَى مَنِّ[٣]

ونجد كثيراً من الألفاظ المكررة في البيت الواحد عنده كان هدفها في الأغلب التّأكيد، ومحاولة إبراز معنىً من المعاني. ومن ذلك تكراره للفظة "العيون" أربع مرّات في بيت واحد. وقد كان هدفه من تكرار لفظة "العيون" التّأكيد على دور العين في وقوع البغض أو المحبّة، يقول:

نَظَـــرُ العُيُـــونِ عَلَـــى الْعُيُونِ هو الّذي جَعَـــلَ الْعُيُـــونَ علـــى العيـــون وبـــالا[٤]

---

(١)الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٢.
(٢) الرقام البصريّ، كتاب العفو والاعتذار، ج١، ص٢١٧.
(٣) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٢، ص٢٧٧.
(٤) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٢. وبال: الشيء الثّقيل المكروه، ١١/٧٢٠ (وبل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن وجوه تكرار اللّفظ الّتي وجدناها عنده ما قام على التّقابل بين الألفاظ، فمن وجوه التكرار في اللّغة العربيّة الجمع بين لفظين مشتركين في البناء الخارجيّ، لكنهما مختلفان معنويًا. وقد اهتمّ إبراهيم بهذا الوجه من التّكرار، واستخدمه للعديد من المقاصد الدلاليّة.

من المقاصد الدّلاليّة الّتي حاول إظهارها من المقابلة بين اللّفظين إظهار حالين متخالفين يعيشهما الشّاعر أو يمرّ فيهما، ومن ذلك محاولة إظهار بخل محبوبته بالهوى وجوده به، يقول:

أَضِنُّ بِلَيْلَى وَهَيْ غَيْرُ سَخِيَّةٍ وَتَبْخَلُ لَيْلَى بِالْهَوَى وَأَجُودُ[١]

وقد يحاول إظهار حالين من خلال المقابلة الضّمنيّة بين اللّفظين. ومن ذلك مقابلته بين العسل والعلقم، إذ يُفْهَمُ ضمناً أنّه يقابل بين الحلو والمرّ، وهذا المعنى الّذي يقصده إبراهيم في قوله:

إِلَى اللّهِ أَشْكُو بُخْلَهَا وسَماحَتِي لَهَا عَسَلٌ مِنِّي وتَبْذُلُ عَلْقَما[٢]

إذ أنّ الشّاعر يقصد من مقابلته السّابقة شدّة ارتباطه بمحبوبته والبذل في سبيلها والذي يمثّل الحلو مقابل إعراض محبوبته عنه والذي يمثله المرارة.

وقد يأتي بالمقابلة بين الألفاظ، ليُظهِر شمول أحوال نفسية محدّدة مرتبطة به. ومن ذلك مقابلته بين السّرور والحزن، ليُظهِر شمول هذه المشاعر عند تذكّره محبوبته، يقول:

لَمْ يُنْسِنِيكِ لا سُرُورٌ وَلا حَزَنٌ وكَيْفَ لا كَيْفَ يُنْسَى وَجْهُكِ الْحَسَنُ[٣]

وقد يقابل بين اللفظين قاصداً نفي اللّفظين المتقابلين، وعدم تحقّقهما في شخص ما، وبذلك فإنّ المقابلة هنا تكون مُفْرَغَةً من مضمونها التّضاديّ، يقول:

لا أَنْتَ لِي سِلْمٌ فَتَنْصُرَنِي وَلا حَرْبٌ إذا نَصَبُ الْعَدُوِّ مُناصِبُ[٤]

وقد تأتي المقابلة بين اللّفظين لإفادة تكامل اللّفظين المتضادّين وشمولهما لأمر ما، ومن ذلك المقابلة بين الْعُسر واليُسر في الحياة. فهو بالمقابلة بينهما قصد إظهار شمول الْعُسر والْيُسر لحياة الإنسان. فحياة الإنسان ليست عسيرةً دائماً كما أنها ليست يسيرة، يقول:

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٤٣.

(٣) ابن شاكر الكتبي، وفيات الوفيات، مج٣، ص١٢٦.

(٤) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَـلا تَجْـــزَعْ وَإِنْ أَعْسَـرْتَ يَوْمـــاً فَقَـدْ أَيْسَـرْتَ فِـي الزَّمَـنِ الطَّوِيلِ[١]

ونراه يقابل بين البؤس والنعيم ليجعلهما شاملين لحياة الإنسان فيقول:

كَذَلِـكَ رَأَيْنَـا الدَّهْـرَ يُقْـدِمُ صَرْفَـهُ عَلَـى كُـلِّ نَفْـسٍ بين بُـؤْسٍ وَإِنْعامِ[٢]

وقد وردت المقابلة بين البؤس والنّعيم عنده لغير إفادة الشّمول، بل جاءت للتمييز بين حالين مرّ فيهما الشّاعر، يقول:

أَضْحَتْ حَياتُـكَ فِـي بُـؤْسٍ تُكابِـدُهُ بَعْـدَ النَّعِيـمِ كَـذاكَ الدَّهْـرُ بَدَّلَهـا[٣]

وقد وردت المقابلة بين ألفاظ الجهات، وقصد منها إفادة شمول اللّفظين المتقابلين، يقول ليُظهِرَ شمول مُلْكِ اللّهِ سبحانه وتعالى للأرض وتصرُّفه فيها:

سُبْحـانَ مُقْتَـدِرٍ مَلَّـكَ السَّمـاءَ لَـهُ وَالأَرْضَ يَمْلِـكُ أَعْـلاها وَأَسْفَلَهـا[٤]

إذ إنّ المقابلة بين الأعلى والأسفل، أفادت الشّمول والعموم. وقد تأتي المقابلة بين الألفاظ لإثبات حالين تقرّرهما المقابلة. ومن ذلك المقابلة بين الحضور والغياب والقلّة والكثرة. فقد قابل بين الأزواج السّابقة، ليظهرغياب أصدقائه عنه في الوقت الذي كانوا فيه حاضرين، كما قابل بين قلّتهم في الوقت الذي كانوا فيه كثرةً، يقول:

تَحامـانِي الصَّدِيـقُ وَغـابَ عَنِّـي ثِقـاتُ ضـائِعِي وَهُـمُ حُضُـورُ
وقَلُّـوا فِـي الْبِـلادِ وكـانَ عَهْـدِي بِهِـمْ زَمَـنَ الرَّخـاءِ وَهُـمْ كَثِيرُ[٥]

وكثيراً مَا وردت المقابلات في أشعار إبراهيم بن المهديّ لتميّز بين وضعين يمليهما اللّفظان المتقابلان. ومن ذلك المقابلة بين العجول والمتّئد[٦]، والمقابلة بين الضّلالة والرُّشْد[٧]، وبين

---

(١) التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، ص٧٧.
(٢) التنوخيّ، الفرج بعد الشدّة، ج٥، ص٨٢.
(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص٨٢.
(٤) المصدر نفسه، ج٥، ص٨٢.
(٥) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤١.
(٦) عليّ الخاقاني، شعراء بغداد، ج١، ص٨٤.
(٧) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٧، ص٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السّواد والبياض[١] وغيرها. وقد وردت المقابلة بين الكثير والقليل عند إبراهيم بن المهدي لإفادة الشّمول، يقول:

مَجْـرَى جَمِيـــع الْخَلْــق فِيهَــا وَاحِــدٌ وَكَثِيــرُها وقَلِيلُهـــا سَيَّـــانُ[٢]

وجاءت المقابلة بين ألفاظ الزّمن عنده لإفادة الشّمول كذلك. ومـن ذلـك مقابلتـه بيـن اليـوم والغـد. يقول:

وَإِنْ خَلَــطَ الدَّهْــرُ فَاصْبِــرْ عَلَــى تَلَـوُّنِــهِ فَمَــعَ الْيَــوْمِ غَــدْ[٣]

وقد ورد عند إبراهيم نوع من المقابلـة، وهـو أن يـأتي الشّـاعر بلفظيـن متشـابهين غـير أن اللّفظ الثّاني يرد منفيًا[٤]. ومن أمثلة هذه المقابلات قوله:

كَذَاكَ تَجِــيءُ صَــرُوفُ الزَّمَــا نِ عَلَــى مَــا أَرَدْتَ وَمَــا لَــمْ تُــرِدْ[٥]

وقد قابل الشاعر بين "أردت" و "لم ترد" ليظهر عدم مقدرة الإنسان في التّحكّم بقضائـه وظروفـه. فهو طوُع لها. وقد جاءت أغلب مقابلات هذا النوع لإثبات تحقّق الطّرف المقابل الثّاني. والأمثلـة على هذا النّوع متعدّدة وكثيرة عند إبراهيم.

ممّا سبق يظهر أنّ المقابلة عنده قد جمعت بين شيئين يتناقضان في الظّاهر، لكنّهمـا يفيـدان في الباطن. ومن شأن هذا التّقابل أن يعمّق الدّلالة الّتي يرمي إليها الشّـاعر، فعَنْ طريـق المقابلـة وجدنا إبراهيم يصل إلى معنى الشّمول والعموم، وعن طريقهـا وجدنـاه يصـل إلـى معنـى التّمييز والتّفريـق بيـن أحـوال متعـدّدة، وعـن طريقهـا أوصـل المعـاني المتضـادّة إلـى التّكـامُل والتّوحُّـد. فمقابلاتـه كما مرّ بنا سابقاً جاءت في أغلبها مُفْرَغَةً من مضمونها التّضادي لتفيد مقصداً دلاليًا ما.

وقد تعدّدت محاور التّقابل عند إبراهيم، وتركّزت أغلـب هـذه المحـاور علـى المقابلـة بيـن أحوال نفسيّة أو معيشيّة محدّدة. كما اشتملت هذه المحاور على تقابلات مكانيّة وزمانيّة.

والملاحظ أنّ أغلب هذه المقابلات قد تركّزت فـي موضوعـات الغـزل والشكوى والتّحسُّر وهي موضوعات تقتضي حديثاً عن أحوال النّفس المتعدّدة، وتُجري تقابلاً بينها.

---

(١) ابن خلّكان، وفيات الأعيان، مج١، ص٤١.

(٢) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٠.

(٤) انظر: العلوي، كتاب الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢، ص٣١٣ .

(٥) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- الأثر الإسلامي:

كان للإسلام أثر واضح في الحياة البشرية في مجالات شتى. ولعلَّ الشّعر العربيّ قد تأثّر بشكل أو بآخر بهذا المدّ الإسلامي، ومن نظرتنا لشعر إبراهيم نلمح تأثّراً واضحاً به في مستويات عدّة، كالتأثّر بالألفاظ والتّراكيب، أو المعاني والصّور، حتى تجاوز ذلك إلى الأسلوب.

وقد لاحظت ورود ألفاظ وتراكيب عديدة كانت - بمضمونها وشكلها - إسلامية، وقد جاء استخدامها مترافقاً للموضوع، فهو يلجأ إلى الاستغفار عند الضيق، يقول:

وَأَستَغْفِرُ اللّهَ مِنْ زَلّتِي فَإِنِّيَ مِنْ جُرْمِها واجِمُ[١]

حتى أنه يستثمر علاقته مع خالقه في تثبيت الحبّ في قلبه، فنراه يقول:

هَذا مُحِبُّكَ مَطْوِيٌّ على كَمَدِهِ صَبٌّ مَدامِعُهُ تَجْرِي على جَسَدِهِ
لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ الرَّحْمنَ راحَتَهُ مِمّا بِهِ، ويَدٌ أُخْرَى على كَبِدِهِ[٢]

ولعلَّ المعاني الإسلاميّة التي شاعت في أشعاره، نتجت عن خلفية إسلامية واضحة، فلا نستغرب ذلك، فأولاد الخلفاء يُربّون تربية شمولية مع تركيز على العلوم الإسلامية، ففي مجال المدح مثلاً نراه يأتي بالمعاني الإسلامية لرفع مقام ممدوحه، فيقول مادحاً المأمون:

إنَّ الّذِي قَسَمَ الْفَضائِلَ حازَها فِي صُلْبِ آدَمَ لِلإمامِ السّابِعِ[٣]

وهو نفسه المؤهّل لقيادة المسلمين بعد الرّسول ﷺ يقول:

يا خَيْرَ مَنْ ذَمَلَتْ يَمانِيَةٌ بِهِ بَعْدَ الرّسُولِ لآيِسٍ أَوْ طامِعِ[٤]

إن العلاقة المتشابكة بين إبراهيم والمأمون، جعلت شاعرنا يتمحور حول ثلاثة أغراض: هجاء، واعتذار، ومدح. ولعلنا إذا نظرنا إلى شعره الاعتذاري، فإننا نلمح صوراً إسلامية جسدت سمو مقام الممدوح، وجسدت النفسية التي يعيشها الشاعر. فهو يستلهم قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وتشبيه المأمون بيوسف لأنه صاحب القرار وصاحب العفو، يقول:

---

(١) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢١.
(٢) التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، ص٦٠.
(٣) الطبريّ، تاريخ الطبري، مج٥، ص١٦٩.
(٤) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنْ أكُنْ مُذْنِباً فَحَظِّيَ أَخْطَأْ ... تُ فَدَعْ عَنْكَ كَثْرَةَ التَّأْنِيبِ
قُلْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِبَنِي يَعْـ ... ـقُوبَ لَمَّا أَتَوْهُ لا تَثْرِيبِ[١]

وهو في سجنه يتذكر يوسف أيضاً، ولكنّه هذه المرّة يستثمر الشّخصيّة لنفسه، يقول:

وَعَسَى الَّذِي أَهْوِي لِيُوسُفَ أَهَّلَهُ ... وَأَعَزَّهُ فِي السِّجْنِ وَهُوَ أَسِيرُ
أَنْ يَسْتَجِيبَ لَنَا فَيَجْمَعَ شَمْلَنَا ... وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدِيرُ[٢]

ونراه ينوّع في استلهام الصور لخدمة غرضه الأساسي، وهو الاعتذار والاعتراف بالذنب، فلم يجد أفضل من توبة آدم عليه السلام، فيقول:

عَصَيْتُ وَتُبْتُ كَمَا قَدْ عَصَى ... وَتَابَ إِلَى رَبِّهِ آدَمُ[٣]

وعندما ننظر إلى شعر إبراهيم، نقف عند ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن معظم الصور والمعاني الإسلاميّة، قد برزت في جانب الحكمة والوعظ الممزوج بالشكوى، فهو على يقين بأن الرزق بيد الله، وهذه نظرة إيمانية بحتة، فنراه يقول:

قَدْ يُرْزَقُ الْمَرْءُ لَمْ تَتْعَبْ رَوَاحِلُهُ ... وَيُحْرَمُ الرِّزْقَ مَنْ لَمْ يُؤْتَ مِنْ تَعَبِ[٤]

ولعل التجربة القاسية التي مرّ بها إبراهيم بن المهدي جعلته ينطق الحكمة بأبيات غُلّفت بإطار إسلامي كي يكون تأثيرها قوياً في النفوس، فهو يتحدث عن الحِلْم بقوله:

وَلَيْسَ يَتِمُّ الْحِلْمُ لِلْمَرْءِ رَاضِياً ... إِذَا كَانَ عِنْدَ السُّخْطِ لا يَتَحَلَّمُ[٥]

وهو يتحدّث عن ضرورة أن يعمل الإنسان ويتيقن قضاء اللّه، يقول:

عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَسْعَى وَيَبْذُلَ جُهْدَهُ ... وَيَقْضِي إِلَهُ الْخَلْقِ مَا كَانَ قَاضِيا[٦]

وشاعرنا عندما يكون في حالة نفسية صعبة، يحاول قدر المستطاع أن يسرّي عن نفسه من خلال حكمه في الفرج والصبر، فهو يتفكر ويستلهم قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [٧] إذ يقول:

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٤٥.
(٢) التنوخي، المستجاد، ص٧٦.
(٣) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢١.
(٤) القرطبيّ، بهجة المجالس، مج١، ص١٩٣.
(٥) ابن وادران، تاريخ العباسيين، ص٤١٣.
(٦) الثعالبيّ، التمثيل والمحاضرات، ص١٢.
(٧) آية (٤) من سورة الانشراح.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنَّ الّـذِي عَقَـدَ الّـذي انْعقَـدَتْ بـِهِ عَقْـدُ الْمكـارِهِ فِيـكَ يُحْسِـنُ حَلَّهـا
فَاصْبُـرْ فَـإنَ اللّـهَ يَعقِـبُ راحَـةً فَلَعَلَّهـا أنْ تَنْجَلِـي ولَعَلَّهـا[١]

وهذه الحالة النّفسيّة الّتي تنتابه تُعمّق مفهوم الإيمان في قلبه، وكأنّني ألمح فيه شخصيتين تتصارعان، الشّخصيّة الدّاخليّة التي تدعو للصّبر والإيمان، والخارجيّة الّتي تدعو لليأس، فهو يقول:

وَلا تَيْـأَسْ فَـإنَّ الْيَـأْسَ كُفْـرٌ لَعَـلَّ اللّـهَ يغنِـي عَـنْ قَلِيـل
وَلا تَظُنَّـنْ برَبِّـكَ غَيْـرَ خَيْـر فَإنَّ اللّـهَ أوْلَـى بالْجَمِيـل[٢]

وهو عندما ينطق بالحكمة فإنّه يستنبطها من الواقع الّذي عاشه، فالأيّام بنظره دُوَلٌ، تُسِرُّ وتبكي، يقول:

دَعِ الْمَقـاديرَ تَجْـري فِـي أعِنَّتِهـا وَلا تَبِيتَـنَّ إلاَّ نـاعِمَ الْبـالِ
مـا بَيْنَ طَـرْفَةِ عَيْـن وانْتِباهَتِهـا يُغَيِّـرُ اللّـهُ مِـنْ حالٍ إلى حال[٣]

أما التأثير الإسلامي في أسلوب إبراهيم، فإننا نلمحه من إثراء شعره بالأساليب الترغيبية والترهيبية التي توافرت بين إضاءات كلمات القرآن الكريم، فنرى هذا الأسلوب الوعظي في قوله:

يـا وَيْـحَ ذِي السِّـنِ الضَّعِيـفِ أمـا لَـهُ؟ عَـنْ غَيِّـهِ قَبْـلَ الْمَمـاتِ تَنـاهِ
وَكُلْـتَ بالدُّنْيـا تُبَكِّيهـا وتَنْـ ـدُبُهـا وَأَنْـتَ عَـنِ الْقِيامَـةِ لاهِـي[٤]

وعلى الرغم من الترف الذي كان يعيشه إبراهيم فإنّ ملامح الموروث الثّقافي الدّيني ما زال راسخاً في نفسيّته، ويظهر هذا الموروث بشكل واضح عندما يتعرّض شاعرنا للمصاعب والمحن، شأنه في ذلك شأن جميع البشر، يلجأون إلى القوى الرّوحيّة العليا عندما يتعرّضون للمحن، فإبراهيم يستذكر هذا الضعف عبر مناجاةٍ وعظيّةٍ، يقول:

عَجِبْـتُ لِغَفْلَـةِ الإنْسـان قَطَـعَ الْحَيـاةَ بِغِـرَّةٍ وَتَـوان
فَكَّـرْتُ فِـي الدُّنْيـا فَكـانَتْ مَـنْزِلاً عِنْـدِي كَبَعْـضِ مَنـازِلِ الرُّكْبـان
أَبْغِـي الْكَثِيـرَ إلـى الْكَثِيـرِ مُضاعَفـًا وَلَـوِ اقْتَصَـرْتُ عَلـى الْقَلِيـلِ كَفانِي[٥]

---

(١) ابن وادران، تاريخ العباسيين، ص٤١٣.
(٢) التنوخي، المستجاد من فعل الأجواد، ص٧٧.
(٣) القرطبيّ، بهجة المجالس، مج١، ص١٩٣.
(٤) الأصفهانيّ، الأغاني، ج٤، ص١٠٦.
(٥) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلَّ لامية إبراهيم مثال بارز على ظهور التأثير الإسلامي في أسلوبه، حيث يضمّن فيها رؤيته الجادّة نحو الحياة وكيفيّة التّعامل مع معطياتها، ولعلَّ هذه اللاميّة تضمّ معجماً وافراً بالألفاظ والمعاني والأفكار الإسلاميّة، فنراه يقول:

سُبْحانَ مُقْتَدِرٍ مُلْكِ السَّماء لَهُ ... وَالأَرْضَ يَمْلِكُ أَعْلاها وَأَسْفَلَها
يَخْتَصُّ مِنْ نِعَمٍ مَنْ شاءَ مِنْ بَشَرٍ ... بِما يَشاءُ وَعَمَّنْ شاءَ حَوَّلَها
أَضْحَتْ حَياتُكَ فِي بُؤْسٍ تُكابِدُهُ ... بَعْدَ النَّعِيمِ كَذاكَ الدَّهْرُ بَدَّلَها
عُدِمْتَ باقِي حَياةٍ قَدْ شُجِيتَ بِها ... فَما عَلى الْجُهْدِ أَبْقاها وَأَطْوَلَها
فِي فَتْرَةٍ مِنْ مَدِيدِ الْعَيْشِ مُفْظِعَةٍ ... قَدْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ رَيْبَ الدَّهْرِ أَجْهَلَها
حَتَّى إِذا هِيَ حَلَّتْ بِيَ اعْتَرَضْتُ لَها ... صَبْراً عَلَيْها فَإِنِّي لَسْتُ أَحْفَلَها
مُسْتَنْظِراً نِعْمَةً لا شَيءَ يَحْجُبُها ... عَنِ الْعِبادِ إِذا الرَّحْمنُ أَرْسَلَها
فَرُبَّ مُسْهَلَةٍ فِي الأَرْضِ صَعَّبَها ... وَصَعْبَةٍ مِنْهُ وَلَّتْ حِينَ سَهَّلَها
لَكِنَّ فِي ثَنِيها تَأْتِي حَوادِثُ لَوْ ... لا اللّهُ مِنْها لَفاضَتْ مُهْجَتِي وَلَها[1]

ولقد ظهر عند إبراهيم أسلوب تأثّر فيه بالمعجم القرآني، وهو أسلوب القسم، فهو عندما يتحدّث عن علاقته مع الآخرين وبلومهم، فإنّه يستخدم هذا القسم كقوله:

فَواللّهِ ما أَدْرِي إِذا ما ذَكَرْتُكُمْ ... أَأَعْقُو لَكُمْ عَنْ ذَنْبِكُمْ أَمْ أُعاقِبُ[2]

حتّى أنّ أسلوب القسم عنده دخل في باب التّحسُّر، فهو يقول:

آلَيْتُ ما أَشْرَبُ كَأْساً ... ما حَجَّ لِلّهِ رَكْبُ[3]

وما أجمل تلك المقطوعة والمناجاة الروحية التي يناجي بها إبراهيم محبوبته واستخدم لذلك أسلوب الدّعاء، فهو يبثّ أشواقه ومحبّته بغلاف إيماني، يقول:

إِلى اللّهِ أَشْكُو بُخْلَها وَسَماحَتي ... لَها عَسَلٌ مِنِّي وَتَبْذُلُ عَلْقَما
إِلى اللّهِ أَشْكُو أَنَّها مادِرِيَّةٌ ... وَأَنِّي لَها بِالْوُدِّ ما عِشْتُ مُكْرِما[4]

ولعلَّ هذه هي أبرز الظّواهر الّتي وجدناها في شعر إبراهيم بن المهديّ، هذا فضلاً عن بعض الملامح التّراثيّة التي استخدمها في شعره، إلاّ أنّها لم تشكل ظاهرةً قائمةً بذاتها، ومن ذلك توظيفه لقصة داحس والغبراء في قوله:

---

(١) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٥، ص٨٢-٨٣.
(٢) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٨.
(٣) ابن وادران، تاريخ العباسين، ص٢٣٥.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يَشِيـــمُ بَنِـــي كَعْـبٍ وَمَـــا أَنْتَ مِنْهُـــمُ كَمَـــا شامَـــتْ الْغَبْراءُ قَيْســـاً وداحِسُ[١]

* * * * *

ومن السّمات الأسلوبية التي تبرز في شعر شاعرنا إبراهيم بن المهديّ المباشرة والخطابية. إن استخدام الضّمائر وارد في أيّ نصّ مكتوب، غير أنّ وفرة استخدام ضمير ما في أحد النّصوص، يعدّ ظاهرةً ينبغي الوقوف عليها، والبحث في وظائفها وغايات وجودها. وهذا ما لمحناه في شعر إبراهيم بن المهديّ. فقد برزت في بعض مقطوعاته الشّعريّة ضمائر المخاطَب. ولعلّ ربط الضّمائر بالأغراض الشّعريّة الّتي برزت فيها، يوضّح وظيفة هذه الضّمائر، وغايات الشّاعر من استخدامها. والملاحظ ظهور ضمير المخاطَب في شعر الوعظ والنّصح عنده، ولعلّ قيام الوعظ على المباشرة والخطابة والطلب من المتعظ القيام بأعمال ما، وحضوره في ذهن الواعظ هو الّذي يُمْلِي وفرة استخدام ضمائر المخاطَب في هذا الغرض الشّعريّ. ونمثّل على وفرة الضّمائر للمخاطَب بالأبيات الآتية:

إذَا مَـــا الزَّمَـــانُ بأَخْلاَقِـــهِ طَـــوَاكَ كَطَـــيِّ الثِّيَـــابِ الْجُـــدُدْ
يُفِيـــضُ عَلَيْـــكَ قِـــدَاحَ الـــرَّدَى لِتَـــأْخُذَ مِنْهَـــا بِقِـــدْحٍ نَكِـــدْ
فَمَـــا أَنْـــتَ إلاَّ أَسِـــيرٌ لَـــهُ وَإِنْ أَمْكَـــنَ الْحَيْـــدُ عنـــه فَحِـــدْ
هَـــبِ الدَّهْـــرَ لَـــمْ يَتَحَـــامَلْ عَلَـــى سِـــوَاكَ فَهَـــلْ لَـــكَ مِنْـــهُ الْقَـــوَدْ
وَإِنْ يَسْـــقِكَ الْيَـــوْمَ مِـــنْ آجِـــنٍ صَـــرِىً لا يُـــذَاقُ وَلا يُـــزْدَرَدْ
فَقَـــدْ كَـــانَ يَسْـــقِيكَ مِـــنْ صَفْـــوِهِ نِطَـــافَ الْغَـــوَادِي بِـــذَوْبِ الشَّـــهَدْ
كَذَاكَ تَجِـــيءُ صُـــرُوفُ الزَّمَـــا نِ عَلَـــى مَـــا أَرَدْتَ وَمَـــا لَـــمْ تُرِدْ[٢]

ونجد ضمائر المخاطَب مستخدمةً في شعر الحكمة واللّوم والاعتذار. والأغراض كما تظهر تقوم على المباشرة والمواجهة والمشافهة. وهذا ما يقتضي وفرةً في استخدام ضمائر المخاطَب.

* * * * *

ومن الظّواهر الأسلوبيّة الأخرى الّتي يلمسها القارىء في شعر إبراهيم بن المهديّ أنّه قد كان للفعل دور بارز في إحكام ترابط القصيدة الشّعريّة عنده، فقد شكّل الفعل رابطاً لفظيًّا ربط

---

(١) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٩-٤٠. القداح مفردها القِدْح وهو من الآنية التي يُشْرَبُ بها، ٥٥٤/٢ (قدح). الردى: الهلاك والموت، ٣١٦/١٤ (ردي). النكد هو الشُّؤْمُ واللؤم. وصاحبه أَنْكَدُ ونَكِدٌ أي شديد. وكل شيء جرّ على صاحبه شرًّا فهو نَكَدٌ، ٤٢٧/٣ (نكد). الحيد عن الشيء: الابتعاد عنه، ١٥٩/٣ (حيد).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين أحداث المقطوعة وأجزائها. والظّاهر في قصائده استخدام تتابع فعليّ منتظم. وممّا يَجْدُرُ ذكره أنّ هذا التّتابع الفعليّ يمنح القصيدة حركيّةً واستمراريّةً متنامية. وهذا ما يجعل قصيدته متّصفةً بالحركة وعدم السّكون. إذ إنّ استخدام الأفعال يشير إلى الجانب المتحرّك المحسوس من اللّغة لا السّاكن. ويساعد الأفعال في إحكام التّرابط ما يسبقها من أدوات تركيبيّة رابطة تزيد من إحكام القصيدة وترابطها. ونمثّل على دور الأفعال، وما تمليه على القصيدة من التّرابط بقوله:

يَفُـــزُّ الْحَلِيـــمُ ويَكْبُـــوا الجَـــوا ... دُ وَيَنْبُـــو لَـــدَى الضَّرْبَـــةِ الصّـــارِمُ
عَصَيْـــتُ وتُبْـــتُ كَمَـــا قَـــدْ عَصَى ... وتَـــــابَ إلَـــــى رَبِّـــــهِ آدَمُ[١]

إذ يُلْحَظ ما خلّفه تتابع الأفعال (يفز، يكبو، ينبو، عصيت، تبت، عصى، تاب) من حركة في القصيدة. وهذه الحركة المستمرّة تنسجم وتتلاءم مع طبيعة الموقف الّذي تنقله المقطوعة السّابقة. فهو موقف حركيّ. ولا يَخْفَى ما تضفي عليه الأفعال السّابقة من التّسلسل المنتظم مما يسهم في إحكام بنية القصيدة.

وقد برز استخدام أفعال الأمر بشكل لافت في شعر الوعظ والنّصح عنده، ولعلّ ما يُنْبِئُ به فعل الأمر من استحضار لعلاقة المخاطبِ بالمخاطَب، وما يوجبه ذلك من قيام بعمل ما، أو تركه هو الدافع لوفرة هذا الفعل في شعر الوعظ والنّصح، ومن ذلك قوله عن الدنيا:

فَـــاجْعِلْ لِنَفْسِـــكَ دُونَهَـــا شُـــغْلاً وَلا ... تَتَجَـــاهَلَنَّ لَهَـــا فَـــإِنَّكَ واهِـــي
أَصْلِـــحْ فَسَـــاداً مِـــنْ سَرِيرَتِكَ الَّتِـــي ... تَلْهُـــو بِهَـــا وَارْهَـــبْ مَقَـــامَ اللّـــهِ[٢]

وقد يستخدم فعل الأمر في استنهاض الهمم، ومن ذلك قوله:

صُونُـــوا جِيادَكُـــمُ واجْلِـــوا سِلاحَكُـــمُ ... وَشَمِّـــرُوا فإنَّهَـــا أَيّـــامُ مَـــنْ غَلَبا[٣]

وبرز استخدام الأمر فيما كان ينظمه إبراهيم من أشعار يعتذر فيها للمأمون، ومن ذلك قوله:

فَـــإِنْ كُنْـــتَ تُنْكِـــرُ شَـــيْباً جَـــرَى ... فَهَـــبْ لِلْعُمُومَـــةِ مَـــا قَـــدْ سَـــلَفْ
فَجُـــدْ لِـــيَ بِالصَّفْـــحِ عَـــنْ زَلَّتِـــي ... فَبِالْفَضْـــلِ يَأْخُـــذُ أَهْـــلُ الشَّـــرَفْ[٤]

---

(١) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٧.

(٣) التنوخيّ، الفرج بعد الشدّة، ج٣، ص٣٤٨. صون الجياد: ادّخارها لأوان الحاجة إليها، ٢٥١/١٣ (صون).

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الضروري أن نشير إلى أنّ الأمر في الأمثلة الّتي سُقْنَاها سابقاً، لم يكن موجّهاً لمعناه الحقيقيّ، وهو طلب تحقيق شيء، بل خرج عن معناه الحقيقيّ لإفادة التّذكير والتّنبيه - كما في المثال الأوّل - والحثّ والاستنهاض - كما في الثّاني - والاسترحام - كما في المثال الثالث - بذلك فهو خارج عن غرضه الحقيقيّ.

* * * * *

ورد في أشعار إبراهيم كثير من التّراكيب ذات الدّلالات المخصوصة، كالنّداء والاستفهام والشّرط وغيرها. وقد ارتبطت هذه التّراكيب بأغراض ودلالات محدّدة. وسوف نعرض لهذه التّراكيب عنده.

برز النداء في أشعار إبراهيم بن المهدي، والملاحظ أنّ تراكيب النّداء في شعر إبراهيم لم تأتِ لإفادة المعنى الحقيقيّ للنّداء، وهو طلب الإقبال وحثّ السّامع على إجابة المنادي[١]، بل أفادت أغراضاً عديدةً، فأفادت التّودّد والتّقرُّب من المنادى والتّلطُّف إليه، ومن ذلك قوله:

يَـــا غَـــزَالاً لِـــي إلَيْـــهِ شَافِـــعٌ مِـــنْ مُقْلَتَيْـــهِ[٢]

وأفادت التّحبُّب وإظهار الودّ لفقيد فقده الشاعر، ومن ذلك قوله:

سَأَبْكِيـــكَ مـــا أَبْقَـــتْ دُمُوعِي والْبُـكَـا بِعَيْنَـــيَّ مـــاءٌ يا بُنَـــيَّ يُجِيـــبُ[٣]

وجاء في كثير من المواضع لرفع قيمة المخاطَب، والإعلاء من شأنه، ومن ذلك قوله مادحاً المأمون:

يـا خَيْرَ مَـــنْ ذَمَلَـــتْ يَمَانِيَـــةٌ بِـــهِ بَعْـدَ الرَّسُـــولِ لآيِـــسٍ أَوْ طَامِـــعِ[٤]

ومنه مادحاً أيضاً:

أَعْنِيـكَ يَـا خَيْـرَ مَـــنْ تُعْنَـــى بِمُؤْتَلَفٍ مِنَ الثَّنَـــاءِ ائْـــتِلافَ الدُّرِّ فِـــي النِّظْمِ[٥]

وتأتي هذه التراكيب في شعر إبراهيم لزيادة التّقرُّب من المُنادَى. وهذا المعنى يَظْهَرُ كثيراً في الشّعر الّذي يعظ فيه إبراهيم الآخرين وينصحهم، ومن ذلك قوله:

---

(١) انظر: عبدالسلام هارون، الأساليب الإنشائيّة في النحو العربي، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٧٨م، ص٢٧.

(٢) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٢٠.

(٣) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٧.

(٤) ابن الجرّاح، الورقة، ص٢٠.

(٥) التنوخي، الفرج بعد الشدّة، ج٣، ص٣٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يـا ثابـتَ الْعَقْـلِ كَـمْ عايَنْـتَ ذا حُمُـق اَلرِّزقُ أَولَى بِـهِ مِـنْ لازِمِ الْجَـرَبِ[١]

وقد جاءت تراكيب النداء في أشعاره للتّقريع والتّوبيخ، ومن ذلك قوله هاجيا:

يا وَيْحَ ذا الْبَشَـرِ الضَّعِيـفِ أَما لَـهُ عَـنْ غَيِّـهِ قَبْـلَ الْمَمـاتِ تَناهي[٢]

وجاء النّداء عنده لإفادة اللّوم والعتاب، ومن ذلك قوله:

يـا عائِبِـي عِنْـدَ أَعْـدائي لِيُرضِيَهُـمْ وَبائِعِـي بِيَسِيـرِ مَـا لَـهُ خَطَـرُ[٣]

وقد جاء تركيب النّداء ليفيد التّعظيم والرّفع من شأن المنادَى، ومن ذلك قوله:

يا غارَةَ اللّـهِ قَـدْ عايَنْـتِ فَانْتَهِكِـي هَتْكَ النِّسـاءِ وَمـا مِنْهُـنَّ يُرتَكَـبُ[٤]

* * * * *

وظهر استخدام أسلوب الشرط كثيراً في شعر إبراهيم. والملاحظ في استخدامه أنّه يستخدم بشكل وافر في شعر الحكمة. فأكثر ما ورد كان منتظماً للحِكَم التي نظمها، ومن استخداماته في شعر الحكمة قوله:

إذا صَدَّ عَنْكَ الدَّهْـرُ يومـاً بِوَجْهِـهِ تَقاضاكَ مِنْ إحْسانِـهِ سالِـفُ الْقَـرضِ[٥]

ومنه قوله في الحكمة أيضاً:

لَـوْ ساوَرَتْنِـي الأُسْـدُ ضارِيَـةً لَسَلِمْتُ مـا لَـمْ يَأْتِنِـي الْوَقْـتُ[٦]

ومنه قوله:

إنْ كـانَ يُعْجِبُـكَ السُّكُـوتُ فَإنَّـهُ قَـدْ كـانَ يُعْجِـبُ قَبْلَـكَ الأَخْيـارا[٧]

---

(١) القرطبيّ، بهجة المَجالس وأُنسُ المُجالس، مج١، ص٩٣. عاينت: عاينه معاينة عياناً ورآه عياناً: لم يشكّ في رؤيته إياه. ورأيت فلاناً عياناً أي مواجهةً، ١٣/٣٠٢ (عين).

(٢) المصدر نفسه، مج١، ص٤٧.

(٣) المصدر نفسه، مج١، ص٤٧.

(٤) الثعالبي، ثمار القلوب، ص١٦. غارة اللّه: قوة اللّه وعون اللّه، ٥/٣٦ (غور). انتهك: أضنى وأتعب وأجهد، ١٠/٤٩٩ (نهك). هتك النّساء: خرق السّتر عمّا وراءه، ١٠/٥٠٢ (هتك).

(٥) التنوخي، الفرج بعد الشدّة، ج٢، ص١٥٥.

(٦) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٢٣٠.

(٧) الطيّب الوشاء، الموشّى، ص٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ ما يقوم به هذا الأسلوب من تقرير وإثبات حقائق، يفسّر كثرة استخدامه عند إبراهيم بن المهديّ في شعر الحكمة. إذ الحكمة تقتضي مثل هذا التّقرير.

ومن مظاهر استخدامات جملة الشّرط عنده طول الجملة الشّرطيّة حتّى إنّها تستغرق بيتين، ليتمّ جوابها في الشّطر الثّاني من البيت الثّاني، ومن ذلك قوله:

إذا الْحادِثـــاتُ بَلَغْـــنَ النُّهَـــى ... وكـــادَتْ تُذَوِّبُـــنَّ مِنْهـــا الْمُهَـــجْ
وَهَـــلَّ الْبَـــلاءُ وَقَـــلَّ الْعَـــزاءُ ... فَعِنْـــدَ التَّنـــاهي يَكُـــونُ الْفَـــرَجْ[1]

وقد ورد استخدام هذا الأسلوب في أشعار الوعظ والاعتذار والنّصح. وهي موضوعات تستدعي تقريراً كذلك الّذي تحتاجه الحكمة. وهذا ما يفسّر استخدام الشّرط في هذه الأغراض. وما ذكرناه من الأمثلة عند دراستنا للأغراض الشّعريّة يمكن أن يدلّل على ما ذكرناه سابقاً.

* * * * *

وشاع في أشعار إبراهيم تكرار تراكيب بأكملها. وهذه الظّاهرة شملت معظم أغراضه الشّعريّة، ولم تقتصر على غرض ما. وقد تعدّدت مظاهر هذا التّكرار، فمنه ما كان قائماً على تكرار تركيب بألفاظه كاملة مرّتين. الأولى في بيت، والثّانية في بيت آخر يتلوه مباشرةً. ومن ذلك قوله يرثي ابنه:

وَمـــا زالَ إشْـــفاقِي عَلَيْـــكَ عَشِـــيَّةً ... هَـــوَى بِـــكَ بَعْـــدَ النَّعِيـــمِ قَلِيـــبُ
وَمـــا زالَ إشْفاقِـــي عَلَيْـــكَ عَشِيَّـــةً ... وِسـادُكَ فِيهـا جَنْـــدَلٌ وَجَنُـــوبُ[2]

ولعلّ تكرار التّركيب السّابق يوحي بالحسرة الّتي تنتابه، فالتّحسّر والتّلوّع على أمر ما يستدعي تكرار جملة وتركيب ما. ونجد كثيراً من التّراكيب مكرّرة في شعر الرّثاء عند إبراهيم، ولعلّ غرض الحسرة هو الدّافع لذلك.

وقد يأتي تركيب ما لتأكيد أمر يتناوله الشّاعر، ومن ذلك ما نجده في قوله يشكو محبوبته:

إلـى اللّـــهِ أَشْـــكُو بُخْلَهـــا وَسَـــماحَتي ... لَهـــا عَسَـــلٌ مِنِّـــي وَتَبْـــذُلُ عَلْقَمـــا
إلـى اللّـــهِ أَشْكُـــو أَنَّهـــا مادِرِيَّـــةٌ ... وَإِنِّي لَهـا بِالْـوُدِّ ما عِشْـتُ مُكْرِمـا[3]

وقد يكرّر تراكيب تتشابه في تقطيعاتها وقيمها الصوتيّة ومن ذلك قوله:

---

(١) ابن وادران، تاريخ العبّاسيين، ص٤١٣.

(٢) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٧. القَلِيب: البئر، ٦٨٩/١ (قلب).

(٣) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَلَيْسَ يَتِمُّ الْحِلْمُ لِلْمَرْءِ راضِياً إذا كانَ عَندَ السَّخْطِ لا يَتَحَلَّمُ
كَما لا يَتِمُّ الْجُودُ لِلْمَرْءِ مُوسِراً إذا كان عَندِ العُسْرِ لا يَتَجَشَّمُ[١]

إضافة إلى القيم الدّلاليّة الّتي يُؤدّيها تكرار التّراكيب، فإنّ لهذا التّكرار وظيفةً صوتيةً تتمثل بتقوية الإيقاع الدّاخليّ للقصيدة.

* * * * *

ويلاحظ أن إبراهيم بن المهديّ في قسم من أشعاره يقيم بيته على تقسيم منتظم. وقد أكثر من استخدام هذه الظّاهرة عند تعداد صفات موصوف ما، ومن ذلك قوله:

هُوَ الْحُرُّ أَخْلاقاً وَبِرًّا وَشِيمَةً وَعَقْلاً وَخَيْرُ الْقَوْمِ مَنْ أُوتِيَ الْعَقْلا[٢]

ونجد هذه الظّاهرة مستخدمة في شعر الوصف، وذلك عندما يقوم إبراهيم بتعداد مكوّنات موصوف ما. والأشعار الّتي ذكرناها في وصفه للّيل يمكن أن تمثّل ذلك[٣].

كما نجد التّقسيم داخل البيت الواحد مستخدماً عند تعداد مآثر مرثيٍّ يرثيه، ومن ذلك قوله:

وَرَيْحانُ صَدْرِي كانَ حِينَ أَشُمُّهُ وَمُؤْنِسُ قَصْرِي كانَ حِينَ أَغِيبُ[٤]

ونشير إلى أنّ التّقسيم يعزّز من القيم الموسيقيّة المتحقّقة داخل القصيدة. فإضافةً إلى الأثر المعنويّ الّذي يؤدّيه، فإنّ له أثراً صوتيًّا، تمثل بالموازنة الموجودة في هذا البيت.

ج - الصّور الشّعريّة:

وردت في أشعار إبراهيم كثير من الصّور الشّعريّة، وشأنه في ذلك شأن الشعراء يسعى إلى إكساب مقطوعاته الشعرية أو قصيدته أبعاداً جمالية. وكان إبراهيم بارعاً في الاستعانة بالعديد من الوسائل، لتشكيل الصورة الشعرية، ولعلّ أبرزها التشبيهات.

---

(١) شهاب الدّين العنابي، نزهة الأبصار في محاسن الأشعار، ص٦٢. يتجشم: يتكلف الأمر على المشقة، ١٢/١٠٠ (جشم).

(٢) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٣.

(٣) انظر: ص٧١ من هذا البحث.

(٤) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يخرج إبراهيم في تحقيق تشبيهاته عمّا اتفق عليه العرف الشعري العربي من استخدام أدوات محدّدة للتشبيه. ولاحظنا أنه نوّع في استخدام التشبيهات. وكان أبرز أداة للتّشبيه عنده الكاف، واستخدمها استخداماً واسعاً، ومن ذلك قوله:

فَرَحَمْتَ أَطْفالاً كَأَفْراخَ القَطا وَعَويلَ عانِسَةٍ كَقَوْسِ النّازِعِ[1]

ولعلّ إبراهيم قد تأثّر كثيراً بالصّورة الشعرية التي رسمها الحطيئة عند سجنه يستجدي فيها الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ حيث يقول:

ماذا تَقُولُ لأَفْراخٍ بِذِي فَرْخِ زُغْبُ الْحَواصِلُ لا ماءٌ ولا شَجَرُ[2]

فالشاعر يرسم صورة تجعل القلب منفطراً، وهي صورة توحي بالرقة والضعف. والصورة الجمالية هنا جاءت عن طريق التشبيه المستخدم في أداة الكاف. ومثل هذا استخدامه "كأن" في مواطن متعدّدة، ومن ذلك قوله:

كَأَنَّ سَنا بارِقٍ مُسْتَطِيرٍ بَيْنَ ذُوابَتِهِ وَالذُّبابِ[3]

وهذه الصورة التي رسمها إبراهيم تظهر براعته في استخدام الصّورة المادّيّة الحسّيّة، ونضجه في توظيفها، واستخدام مظاهر الطبيعة عبر التشبيه عامل مهم في إحداث الحركة في النص، وهذه الصورة الحركية المفعمة بالحيوية أوجدت نوعاً من المقابلة، إذ أفاد الشاعر من المتضادات، فجمع بين القوي والضعيف، والفقير والغنيّ، وقد شكلت هذه الثنائية صورة قربت إلى الأذهان مراد الشاعر حيث يقول:

إِذا شُدَّتْ بِها الأَنْساعُ أَصْغَتْ كَما أَصْغَى النَّجِيُّ إِلى النَّجِيِّ
وَراغِيَةٍ تَنَتْكَ عَنِ التَّصابِي كَما تَنَتِ الضَّعِيفَ يَدُ الْقَوِيِّ
هُناكَ شَكَوْتَ ما تَلْقَى إِلَيْها كَما يَشْكُو الْفَقِيرُ إِلى الْغَنِيِّ[4]

---

(١) ابن وادران، تاريخ العباسيين، ص٤٠٥.

(٢) ديوان الحطيئة، شرح ابن السكيت والسجستاني، تحقيق نعمان أمين طه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٨م، ص٢٠٧.

(٣) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٢. الراغية: الناقة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الأبيات تعطي صورة المجتمع الذي يتشكل من النّاقة والنّاس والحركة التي تكون وقت الليل بين الذين يسيرون، فالطبيعة المتحرّكة أوحت للشاعر بصورة جميلة استطاع أن يوظفها في شعره. ويستخدم إبراهيم كذلك الأداة "مثل"، ومن ذلك قوله:

وَإِنِّـــي وَوَاهِـــي مُلْكِكُـــمْ مِثْـــلَ سائِقٍ طَلِيحـــاً يُزَجِّيهـــا عَلـــى الأَيْنِ راكِبُ[١]

ونلمح شاعرنا يستخدم أكثر من أداة في تشبيهاته، ممزوجة بالألوان التي تضفي على الصورة الشعرية رونقاً وإنسانية في الشعور، ومن ذلك قوله في رثاء ابنه:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالْغُصْنِ في مَيْعَةِ الضُّحَى زَهـاهُ النَّـدَى فَاهْـتَزَّ وَهُـوَ رَطِيـبُ
كَـأَنْ لَـمْ يَكُـنْ كَالرُّمْـحِ يَعْـدِلُ صَـدْرَهُ غَـداةَ الطِّعـانِ لَهْـذَمٌ وَكُعُـوبُ[٢]

إذ نلاحظ المزج المتناسق بين اللون والحركة، فأثارت في النّفس الشّجون والقطاع. وهذه الصورة الشعرية المليئة بالبهج والفرح ظهرت في قوله مصوّراً باقة من النرجس، فنراه يقول:

ثَـــلاثُ عُيـــونٍ مِـــنَ الـــنَّرْجِسِ عَلَـــى قَـــائِمٍ أَخْضَـــرٍ أَمْلَـــسِ
يُذَكِّرْنَنِـــي طِيـــبَ رَيَّـــا الْحَبِيـــبِ فَيَمْتَعْنَنَـــي لَـــذَّةَ الْمَجْلِـــسِ[٣]

وهو يستغني عن أداة التشبيه كقوله:

أَعَنِّيـكَ يـا خَيْـرَ مَـنْ تُعْتَى بِمُؤْتَلَفٍ مِـنَ الثَّنـاءِ ائْتِلافَ الدُّرِّ فِي النَّظْـمِ[٤]

وفي هذا البيت يقلّل الشاعر المسافة بينه وبين ابنه لتعلّقه به تعلّقاً كبيراً. ومن التشبيهات الّتي برع فيها تشبيهه كلام حُسّاده وعواذله في محبوبته بلدغ السّوط عندما يقع على خاصرة البطيء، وهي مليئة بالحركة والحيوية، يقول:

ويَلْـدَغُ مُهْجَتِـي ذُو الْعَـذْلِ فِيهـا كَلَـذْعِ السَّـوْطِ خاصِـرَةَ الْمطِيءِ[٥]

---

(١) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٤. ميعة: ميعة الشيء أوّله ونشطه، ٣٤٥/٨ (ميع). الطعان: القتل بالرمح، ٢٦٧/٣ (طعن). هدم: لهذم: إهدار الدم يقال: دماؤهم بينهم هدم أي مهدورة، ٦٤/١٢ (هذم). كعوب: مفردها كعب وهو شرف، ٧١٨/٢ (كعب).
(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج١٠، ص١٤٢.
(٤) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص١٩.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الملاحظ أن الصور الشعرية التي رسمها إبراهيم تحوي بين ثناياها المقابلة والتضاد في اللفظ والمعنى، ويستثمر هذه المقابلة في إيجاد نوع من التشخيص، فالجمادات تشعر وتتحرك، فهو يريد أن يربط بين الصور الشعرية وبين قصر عمر ابنه، حيث يقول:

قَلِيلاً مِنَ الأَيّام لَمْ يُرْوَ ناظِرِي ... بِهَا مِنْهُ حتّى أَعْلَقَتْهُ شَعُوبُ
كَظِلِّ سَحابٍ لَمْ يُقِمْ غَيْرَ ساعَةٍ ... إِلَى أَنْ أَطاحَتْهُ فَطاحَ جَنُوبُ
أَوِ الشَّمْسِ لَمّا مِن غَمامٍ تَحَسَّرَتْ ... مَساءً وَقَدْ وَلَّتْ وَحانَ غُرُوبُ[١]

وهذه المقابلة نجدها في موقع آخر من رثاء ولده، فقد أكثر إبراهيم من التّشبيهات، ولعلّ هذا يبرز نزعةً في الميل إلى التّقريب بين ابنه وبين العناصر الطبيعية التي يلمحها الناس جميعاً، حتى يشركوه في الحب واللوعة، يقول:

تَوَلَّى وأَبْقَى بيننا طِيبَ ذِكْرِهِ ... كَما فِي ضِياءِ الشَّمْسِ حِينَ تَغِيبُ[٢]

ولا بد أنّ الشمس بكل معانيها الظاهرية والباطنية، من معاني النور، والعلم، والحياة، والأمل، قد استولت على تفكير الشاعر، فقد شبّه غَشَيَانَ الموت لابنه بالشّمس حين تَغْشَى الظّلام، ولعلّ هذا التشبيه يدلّ على أنّ موت ابن إبراهيم لم يكن موتاً طبيعيًّا مفاجئاً، بل كان نتيجة علّة ومرض، أيّ أنّ موته لم يكن سريعاً بل بطيئاً، يقول:

وَالْمَوْتُ يَغْشَى بَيَاضَ سِنَتِهِ ... كَالشَّمْسِ يَغْشَى ضِيَاءَهُ الدَّجَنُ[٣]

وتبدو الصورة الشعرية في شعر إبراهيم متأثرة بالقرآن الكريم أو الحديث الشريف، ومنها تشبيهه الدنيا بالمنازل للمسافرين، وهذه المنازل بقاؤها محدود، يقول:

فَكُنْتُ فِي الدُّنْيا فَكانَتْ مَنْزِلاً ... عِنْدِي كَبَعْضِ مَنازِلِ الرُّكْبانِ[٤]

ولعلّ إبراهيم يستلهم قول الرسول ﷺ : "كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل"[٥]. وظهر هذا التأثير في مكان آخر، إذ يشبّه الإنسان المقيم في هذه الدنيا بالإنسان الغافي. وفي هذا

---

(١) المبرّد، الكامل، مج٣، ص١٣٨٤. أعلقته: علق بالشيء عَلَقاً: أي نَشَبَ فيه ومَسَكَهُ، ٢٦١/١٠ (علق). شعوب: الشعوب: المنيّة، ٥٠١/٢ (شعب).

(٢) المصدر نفسه، مج٣، ص١٣٨٠.

(٣) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٨. الدجن: ظل الغيم في اليوم المطير، ١٤٧/١٣ (دجن).

(٤) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٧.

(٥) صحيح البخاري، شرح فتح الباري، كتاب الرقاق، باب٣، رقم الحديث٤٦١٦، ج١١، ص٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إشارة إلى سرعة رحيل الإنسان عن هذه الدنيا، فهو مجرّد ضيف فيها، وعمره أيّام معدودة، لأنّ الحياة زائلة لا محالة:

وَمـا الْمَـرْءُ فِي دُنْيـاهُ إلاّ كَهـاجِع ... رَأى فِـي غَرارِ النَّـومِ أَضْغـاثَ أَحْلامِ[١]

وهذه الصّورة الشّعريّة الممزوجة بروح الإسلام تظهر جليّة في حديثنا عن الأثر الإسلامي في شعر إبراهيم[٢]. وهو عندما يتحدّث عن الغزل، فإنّه يرسم صورة غزليّة متحرّكة ظاهريًا وصوتيًا، فهي حركة راقصة، فقد شبّه لين كلام محبوبته وبعدها عنه بالخيزران الذي يصعب كسره، ولكنّه يُرَى ليّناً مِطواعاً في كفّ الإنسان الذي يلويه، يقول:

وَقَـدْ تَلِيـنُ بِبَعْـضِ الْقَـوْلِ تَبْذُلُـهُ ... وَالْوَصْـلُ فِـي جَبَـلِ صَعْـبٍ مُراقِيـهِ
كَالْخَيْـزُرانِ مَنِيعـاً مِنْـكَ مَكْسِـرُهُ ... وَقَـدْ يُـرَى لَيِّنـاً فِي كَـفِّ لاوِيـهِ[٣]

ومن تشبيهاته تشبيهه شُعاع الكأس الذي يُصَبُّ فيه الخمر بالقَبَس الذي يكون مُطِلاً من شُرْفَةٍ عالية، يقول:

كَـأْسٌ كَـأَنَّ شُعَاعَهَـا ... قَبَـسٌ عَلَـى شَـرَفٍ مُطِـلّ[٤]

ويميل إبراهيم بن المهديّ في تشبيهاته إلى التقريب بين المتشابهَيْنِ، فيورد المشبَّه به في صورة جملة كاملة. ونراه يلجأ إلى التشبيه ليبيّن شدّة اقتراب المشبَّهين معاً. ومن ذلك لجوؤه إلى التشبيه ليُظهر توحُّده وشدّة قربه من أحد أصدقائه، يقول:

أبـا قاسِـمٍ إنِّـي أَراكَ صَبابَـةً ... كَـأَنَّـكَ مِـن لَحْمِـي خُلِقْتَ وَمِنْ دَمِي[٥]

ولجأ إلى التشبيه ليُظْهِرَ تأصّلَ خُلُقٍ ما في ممدوح له، ومن ذلك تشبيه النّاس بعد عفو المأمون بأنّهم دون ذنوب، يقول:

أَمِيـرَ الْمُؤْمِنِيـنَ عَفَـوْتَ حَتَّـى ... كَـأَنَّ النّـاسَ لَيْـسَ لَهُـمْ ذُنُـوبُ[٦]

---

(١) الثعالبيّ، ثمار القلوب، ص٦٧١.
(٢) انظر: ص١١٨-١٢١ من هذا البحث.
(٣) الحصريّ، زهر الآداب وثمر الألباب، ج٢، ص١٠١٠.
(٤) ابن الجراح، الورقة، ص٢٢.
(٥) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٠.
(٦) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أنّ غاية التشبيه هنا إبراز صفة العفو عند المأمون، وجعلها متمكّنةً فيه.

ويميل في بعض تشبيهاته إلى التّفصيل في صورة المشبّه به، فيتحدّث عمّا يتّصف به، وعن حالاته التي يكون فيها، ومن ذلك تشبيهاته التي لجأ إليها عند رثاء ابنه، يقول:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالْغُصْنِ فِي مَيْعَةِ الضُّحى ... زَهَاهُ النَّدَى فَاهْتَزَّ وَهُوَ رَطِيبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالدُّرِّ يَلْمَعُ نُورُهُ ... بِأَصْدافِهِ لَمَّا تَشِنْهُ ثُقُوبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ زَيْنَ الْفِناءِ وَمَعْقِلَ النَّـ ... ـسَاءِ إِذا يَوْمٌ يَكُونُ عَصِيبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالصَّقْرِ أَوْفَى بِشامِخِ الـ ... ـذُّرَى وَهُوَ يَقْظانُ الْفُؤادِ طَلُوبُ[1]

فهو يعتمد على عامل الحركة والمزج اللوني الجميل في ربط الماضي بالحاضر، فهو يصف المحاسن التي تجسّدت في ولده بأوصاف شعرية تدعو إلى مشاركة الناس في حزنه.

ممّا سبق يظهر أنّ إبراهيم قد أحكم تشبيهاته، واستمدّ عناصرها من بيئته المحيطة به، فجاءت تشبيهاته مألوفةً بعيدةً عن المبالغة والغلوّ. وقد نوّع في الأدوات المستخدمة للتشبيه، ولجأ إلى التشبيه للعديد من الغايات التي أشرنا إليها سابقاً. ولم يكن في تشبيهاته بعيداً عمّا طرقه شعراء العربية قبله. وقد حرص في تشبيهاته على أن يوفّر لها معظم الأركان المطلوبة للتّشبيه، فجاءت تشبيهاته مستوفيةً لأركان التّشبيه من مشبّه ومشبّه به وأداة التشبيه. وهذا يجعل تشبيهاته تسير في إطار من الوضوح والبساطة.

ولم يُوغِلْ إبراهيم في صوره الشّعريّة كثيراً، بل جاءت صوراً بسيطةً، عناصرها مأخوذة من محيطه الذي يعيش فيه. وظهر من صوره الشّعريّة أنّ خياله الشّعريّ لم يكن موغلاً في التحليق والعمق، بل جاء خيالاً بسيطاً بعيداً عن الغموض. ومن صوره الشّعريّة التي رسمها لنا، صورة يوم ماطر حيث الغيوم تفرض أجنحتها، باسطةً سواداً يَغْشَى أطراف السّماء، وهذه الغيوم المنتشرة تتساقط مطراً غزيراً، فكأنّها دلو تنزل منه المياه، يقول:

إِنْ كُنْتَ تَبْسُطُ لِلصَّبُوحِ فإِنَّهُ ... يَوْمٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ الأَطْرافِ
وَأَرَى الْغَمامَةَ كَالْعُقابِ مُحَلِّقاً ... مُسَوَّدَةَ الأَوْساطِ والأَكْنافِ
طَوْراً تَبُلُّكَ بِالرَّذاذِ وَتارَةً ... تَهْمِي عَلَيْكَ بِدَلْوِها الْغَرّافِ[2]

---

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٢، ص٢٨٧.

(٢) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسواد الغمامة في السّماء تعني أنها كثيرة المطر، وهذا يؤدي إلى الخصب. كما أنّ العقاب عندما يحلّق في السّماء يعني القوة. والخصب والقوة بمعنى العطاء الشّديد. وهذه الصورة من البيئة العربية آنذاك.

ورسم لنا صورة الليل، وقد بسط ظلمته على الأرض، وتلألأت من خلال هذا السواد كواكب الليل ونجومه، فظهرت في صورة بديعية، يقول:

إذَا اللَّيْـــلُ أَسْـــبَلَ سِـــرْبَالَهُ ... عَلَـــى الأَرْضِ وَاسْـــوَدَّ وَجْـــهُ الْبَلَـــدْ
رَعَيْـــتُ الْكَوَاكِـــبَ حَتَّـــى الصَّبَـــا ... حِ وَدَمْعِـــيَ كَـــاللُّؤْلُؤِ الْمُنْسَـــرِدْ
فَمِـــنْ طَالِعَـــاتٍ وَمِـــنْ غَـــائِرَاتٍ ... وَآخَـــرُ فِـــي حَـــيْرَةٍ قَـــدْ رَقَـــدْ
وَمِـــنْ ضَاجِعَـــاتٍ بِأُفْـــقِ الْمَغِيـــبِ ... يُرَاقِبُهَـــا كَارْتِقَـــابِ الرَّصَـــدْ[١]

فالصورة التي رسمها لنا الشاعر من خلال الاستعارة المكنية "رعيت الكواكب" بمعنى أني راقبتها طول الليل أي سهرت طويلاً، والدمع يرافقني غزيراً من شدة لوعة وهم. وهذا غاية في القلق والتفكير والألم.

ونراه يرسم صورةً شعريّة تُظهر شدّة ما كان يعانيه ويشكو منه. فربيع الزهر قد عادت له الحياة والبقاء من كثرة ما ذرف من دموع عينيه، وبما انهلّ من عينيه من عبرات، يقول:

كَـأَنَّ رَبِيـــعَ الزَّهْـــرِ بيـــن مَدَامِـــعي ... بِمـــا انْهَـــلَّ مِنْهـا قَدْ حَيـــا وتَصَبَّبـا[٢]

وهناك صورة شعرية وُجدت بكثرة عند إبراهيم، وهي استثمار صورة السيل الجارف الذي لعب دوراً كبيراً في تصوير الحركة البصرية والسمعية، وتصوير قوة الحدث. والسيل بمفهومه لا يرتبط بالخير، فهو بكل ما يحمل من طياته وإيحاءاته نجده عند إبراهيم عندما يرسم صورة الإنسان الذي يَنُمُّ في النّاس، ولا يراعي صديقاً أو أخاً، فنميمته مثل السيل الجارف يأتي الإنسان من حيث لا يحتسب، يقول:

مَـنْ نَـمَّ فِـي النّـاسِ لَـمْ تُوْمَـنْ عقاربُـهُ ... عَـنِ الصَّدِيـقِ وَلَـمْ تُوْمَـنْ أَفاعِيـهِ
كَالسَّيْـلِ يَجْـرِي وَلا يَـدْرِي بِـهِ أَحَـدٌ ... مِـنْ أَيْـنَ جـاءَ وَلا مِـنْ أَيْـنَ يأتِيـهِ[٣]

---

(١) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٣٩.
(٢) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٧٧.
(٣) الصوليّ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالصّورة هنا تنفر من النمّام ومن سوء عمله، فهو كالعقارب والأفاعي في سمها القاتل، وهذه الصّورة منفرة من النم والفساد بين الناس، لأن النم والفساد من الأمراض الاجتماعية التي تداهم المجتمع وتقضي على رقيّه.

وقد استغلّ إبراهيم سرعة انتشار السّيل في رسم العديد من الصّور الشّعريّة، ومن ذلك ما يرسمه لسرعة انتشار الشّيب في رأس الإنسان، يقول:

إذا سالَ وادِي الشَّيْبِ في مَفْرِقِ الْفَتَى وقُنِّعَ مِنْهُ عَمَّةَ الْمُتَلَثِّمِ[١]

وتتبدى الصورة من خلال الاستعارة التي تتحدث عن شيوع الشيب في رأس الإنسان، وهذا الأمر يغتم به صاحبه، لأنه بديل الكبر والوهن والضعف. وقد استثمر إبراهيم صورة السّيل الجارف، فربطها بحالته النفسية المتعبة، فحاله كحال السّيل، يقول:

وكُنْتُ بِهِ فِي النائِبات إذا عَرَتْ وَظَهْرِي مُمَتَّدُ الْقَنَاةِ صَلِيبُ
كَحالِ الَّذِي يَجْتاحُهُ السَّيْلُ بَغْتَةً فَيَفْتَقِدُ الأَدْنَيْنَ وَهُوَ حَرِيبُ[٢]

ويرسم صورة تتابع الموت على أبنائه بصورة تتابع البُدْنِ واقترابها من المنحر حيث الموت، يقول:

ولِي حَبِيباً يَتْلُو أَخاه كَما يَوْماً تُدْنَى لِلْمَنْحَرِ الْبُدْنُ[٣]

ونراه يرسم صورةً جميلة لابنته التي فارقته، يقول:

وَحَيِدَةَ الْحُسْنِ ما لِي مِنْكِ مُذْ كَلِفَتْ نَفْسِي بِحُبِّكِ إلاَّ الْهَمُّ وَالْحزنُ
نُورٌ تَوَلَّدَ مِنْ شَمْسٍ ومِن قَمَرٍ حَتَّى تَكامَلَ فِيهِ الرُّوحُ والْبَدَنُ[٤]

فهو هنا يستخدم الألوان البديعية من التشبيه والاستعارة في تصوير ابنته بالنور، وزوجته بالشمس، وهو بالقمر كي يعطي للشخص (الابنة، والزوجة، والشاعر) القيمة التي يستحقونها.

---

(١) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٠.

(٢) المبرّد، التعازي، ص١٧٣. عرت: اشتدت، ٥٩/٢ (عرا). الأدنين: الأقربين، ٢٧١/١٤ (دنا). حريب: هو الذي سُلِبَ ماله، ٣٠٤/٢ (حرب).

(٣) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٨. البدن: مفردها البدنة وهي الناقة أو البقرة. وسُميت بذلك لأن أصحابها كانوا يسمّنونها لذبحها بمكة، ٤٨/١٣ (بدن).

(٤) ابن شاكر الكتبي، فيات الوفيات، مج٣، ص١٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما سبق يظهر أن إبراهيم قد استثمر قدرة التّشبيهات في التّقريب بين الشّيئين في تشكيل العديد من صوره الشّعريّة، وكثيراً ما كان يبْني صوره الشّعريّة على تتابعٍ في التّشبيهات.

وقد اعتمد في تشكيل صوره الشّعريّة على الاستعارات في كثيرٍ من المواطن، ومن ذلك ما نجده في هذا البيت الذي قاله في رثاء أحد أبنائه، يقول:

وَخانَنـــي الصَّبْـــرُ إذْ فُجِعْـتُ بـــه ... ولَيْـــسَ عنـــدي لِواعِـــظٍ أُذُنُ[1]

ومن الصّور الشّعرية السّابقة نلمح الزّخم الشّعري في إحداث التّشخيص أو الزّخـم اللّونـي، حيث إن صوره مستنبطة من البيئة، وهي صور ماديّة، فقد ظهرت العناصر الماديّة بشكل بارز في صوره، وخاصّةً تلك التي رسمها عندما كان يصف شيئاً مـا كوصـف أحد الأيّام، أو وصـف يوم ماطر، أو وصف نبات ما، وغيرها.

وقد اهتمّ إبراهيم في صوره الشّعريّة بذكر تفاصيل هذه الصّور، واهتـمّ بدقائقها وأجزائها المكوّنة، وربط العناصر المؤلّفة لها ربطاً مُحكَماً. وهذا ما ظهر في العديد من الصّور الّتي رسمها. ومنها صورة اللّيل الّتي مرّت بنا سابقاً، فقد فصّل صورة اللّيل تفصيلاً واسعاً.

د- البحور والقوافي:

نجد إبراهيم بن المهديّ في أشعاره ملتزماً ببحور الشّعر العربيّ المعروفة، فنظم على البحر الطّويل، والبسيط، والكامل وغيرها من البحور الشّعريّة. ونلاحظ أنه قد التزم بعمود الشّعر العربيّ.

ولم يلجأ إبراهيم بن المهديّ في شعره إلى المراوحة بين البحور الشّعريّة، كأن ينظم على بحر وينتقل إلى بحر آخر في القصيدة نفسها، فقد التزم بحراً واحداً أجرى القصيدة كلّها عليه.

وظهر ميله في بعض الأحيان إلى البحور الشّعريّة المجزوءة والسريعة، وقد مال إلـى هذه البحور في كثير من الأغراض الشّعريّة، منها الغزل، ومن ذلك قوله:

بـــأبي وَجْهُـــكَ مـــا ... أكْـــثَرَ حُســـادِي عَلَيْـــهِ
أنـــا ضَيْـــفٌ وجَـــزاءُ الـــ ... ـضيـــفِ إحْســـانٌ إلَيْـــهِ
وَالَّـــذِي يَقْتُلُنِـــي ظلـــ ... ـماً وَلا يُعْـــدَى عَلَيْـــهِ[2]

---

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٢، ص٢٨٨.

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد نظم على البحور المجزوءة في شعر الغزل مقطوعات متعدّدة. ولعلّ نظمه الغزل على البحور المجزوءة راجع إلى طبيعة الغرض الّذي ينظم فيه إبراهيم - وهو الغزل - فهذا الغرض يستدعي من الشّاعر الرّقّة واللّيونة والإيجاز، وهذا ما تحققه البحور المجزوءة لاعتمادها على التّقصير والإيجاز. ونلاحظ ميله إلى البحور المجزوءة في أغراض اللّوم والاعتذار والهجاء. ولعلّ طبيعة هذه الأغراض هي الّتي تفرض عليه النّظم على المجزوء من البحور. ففي شعر الهجاء مثلاً نجد الموقف قائماً على التّشاتُم بين شاعرين، وقد يكون موقفًا شفاهيًا يحرص الشّاعر فيه على الإيجاز في القول ما يريد ضدّ الآخر بيسرٍ وسهولة. وربما يكون الحال كذلك في شعر الاعتذار، فإبراهيم عندما كان يقف معتذراً أمام الخليفة، فهو في موقف شفاهيّ يميل فيه إلى التّقصير والإيجاز. وهذا ما يتحقّق بوساطة البحور المجزوءة. ونمثّل على ذلك بأبيات قالها للخليفة المأمون، يقول:

هَـــــذا مَقـــــامُ مُشَـــــرِّدٍ خَرِبَـــــتْ مَنازِلُـــــهُ وَدُورُهُ
نَمَّـــــتْ عَلَيْـــــهِ عُداتُـــــهُ كَذِبـــــًا فَعاقَبَـــــهُ أميـــــرُهُ[1]

حتى في مدحه مال إلى الأوزان المجزوءة في بعض أشعاره، لذلك نراه يمدح المأمون بأبيات يقول فيها:

يـــــا أمـــــيرَ الْمُؤْمِنِيـــــنَ الْحَمْـــــدُ لِلّـــــهِ كَثِـــــيرا
هَكـــــذا النَّصْـــــرُ فـــــلا زا ل لَـــــكَ اللّـــــهُ نَصَـــــيرا
وَعَلـــــى الأَعْـــــداءِ أُعطِيـــــ ـتَ مِـــــنَ اللّـــــهِ ظَهِيـــــرا[2]

ومن الضّروريّ أن نشير إلى أنّ شاعرنا لم يقتصر في الأغراض الشّعريّة الّتي ذكرناها سابقاً على البحور المجزوءة، بل وجدنا البحور المجزوءة فيها مستخدمةً بشكل بارز مقارنةً مع الأغراض الأخرى.

* * * * *

ومن مقتضيات الشّعر العربيّ التزام الشّاعر بقافية واحدة يؤسّس عليها موسيقيّة قصيدته عن طريق تكرار القافية نفسها في القصيدة. ونجده يلتزم بقافية واحدة يجري عليها قصيدته، فلم نلحظ عنده تعدُّداً في قوافي القصيدة الواحدة باستثناء مواطن قليلة نراه يُشْبِعُ حركة القافية، ومن ذلك ما نجده في قوله:

---

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٧٦.

(٢) المسعوديّ، مروج الذهب، ج٤، ص٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَخــانَنِي الصَّــبْرُ إِذْ فُجِعْــتُ بِــهِ ... وَلَيْــسَ عِنْــدِي لِواعِــظٍ أَذُنُ
تَرَكَتْنِــي ســاهِداً إِذَا هَجَــعَ النَّــا ... سُ أَخــا لَوْعَــةٍ إِذا سَــكَنوا
لِلَّــهِ مــا أَهْــدَتِ الرِّجــالُ إِلَــى الْقَبْــ ... ــرِ وَمــا شَــدُّوا وَمــا دَفَنُــوا
مَــنْ يَسَــلْ شَيْتــاً فَــإِنَّ لَوْعَتَــهُ ... لَيْــسَ يُعْفِــي آثارَهَــا الزَّمَــنُ[1]

ويلاحظ أنّه كان يميل إلى القوافي السّهلة اللّينة المفردة. ولعلّ اختيار القافية عند إبراهيم مرتبط في بعض الأحيان بالغرض الشّعريّ الّذي ينظمه، وبالحالة النّفسيّة الّتي يكون عليها، فنراه يختار الهاء قافيةً لإحدى قصائده الغزليّة، وقد جاءت هذه القافية معبِّرة عمّا يدور في نفسه من رقّة ولين وعطف على المحبوبة الّتي يتحدّث عنها. وقد دعّم إبراهيم الهاء الخارجيّة بأخرى داخليّة قَوَّتْ من إيحاء الرّقّة واللّيونة، يقول:

يَــا غَــزَالاً لِــي إِلَيْــهِ ... شَــافِعٌ مِــن مُقْلَتَيْــهِ
بِــأَبِي مَــنْ أَنَــا مَأْسُــورٌ ... بِــلاَ أَسْــرٍ لَدَيْــهِ
وَالَّــذِي أَجْلَلْــتُ خَــدَّيْـ ... ــهِ فَقَبَّلْــتُ يَدَيْــهِ[2]

وقد جاء اختيار قافية الهاء في موطن آخر من شعره ليوحي بمشاعر الحزن والشّجن الّتي تسيطر عليه نتيجة إعراض محبوبته عنه، يقول شاكياً منها:

هَــذا مُحِبُّــكِ مَطْــوِيٌّ عَلَــى كَمَــدِهِ ... صَــبٌّ مَدامِعُــهُ تَجْــرِي عَلَــى جَسَــدِهِ
لَــهُ يَــدٌ تَسْــأَلُ الرَّحْمــنَ راحَتَــهُ ... مِمَّــا بِــهِ، وَيَــدٌ أُخْرَى عَلَــى كَبِدِهِ[3]

ولعلّ طبيعة الهاء الصّوتيّة هي الّتي تمكّنها من الإيحاء بالمشاعر الّتي أشرنا إليها سابقاً.

وبالتزامه لبحر شعريّ واحد في القصيدة، وبقافية واحدة فيها، وعدم المراوحة بين البحور أو القوافي، فإنّه يكون بذلك قد التزم بالوسائل المألوفة لتحقيق الموسيقى الخارجيّة في القصيدة العربيّة. ومن أبرز هذه الوسائل: البحر والقافية. ويُعَدُّ التزام إبراهيم بالبحر والقافية ملْمَحاً من ملامح المحافظة على القواعد العربيّة المألوفة في نظم الشّعر.

---

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٨٨. فجع: فجعته المصيبة: أوْجَعته. والفواجع: المصائب التي تُفْجِعُ الإنسان بما يعزّ عليه من مال أو حميم، ٢٤٥/٨ (فجع). ساهداً: سهد يسهده أي لم ينم. والسّاهد: من ذهب عنه النوم، ٢٢٤/٣ (سهد). يَعْفي: يَمْحُو ويُزيل، ٧٢/١٥ (عفا).

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، ج١٠، ص١٦٨.

(٣) المسعوديّ، مروج الذهب، ج٤، ص١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

من خلال دراستي لإبراهيم بن المهديّ، فإنّي ألاحظ الأمور التّالية:

أوّلاً- إنّ إبراهيم بن المهديّ عاش حياتين، حياة الخلفاء المترفة، وحياة السّياسيّ المطارد، وبذلك فقد عاش نفسيتين متقابلتين.

ثانياً- قضيّة الخلافة لعبت دوراً مهمّاً في صوغ شخصيّته الشّاعريّة، فكثيراً ما مازج بين السّياسة والشّعر، خاصّةً في شعر الشّكوى والهجاء.

ثالثاً- لقد كوّن إبراهيم بن المهديّ بنفسه مدرسةً غنائيةً، لها ملامحها ومريدوها ومجالسها، وهذه مدرسة تجديدية، نافس مدرسة التّقليد الّتي تزعّمها إسحاق الموصليّ.

رابعاً- لقد استفاد إبرهيم بن المهديّ كثيراً من شاعريّته في صقل موهبته الموسيقيّة، فاختار الأشعار الّتي تلائم مدرسته ولحنه.

خامساً- لقد ضمّن إبراهيم في شعره نظرته إلى الحياة بكلّ معطياتها، فجاء شعره تصويراً لما يعيشه في قلبه وفكره.

سادساً- من نظرتنا للدّراسة الفنّيّة لشعره، نلمح عوامل التّأثّر والتّأثير عنده، فقد عمل على تثبيت الأوزان الخفيفة، خدمةً لغرضه الموسيقيّ، فضلاً عن تأثّره بالأساليب القرآنيّة، وتأثّره بالمعاني والصّور والألفاظ والتّراكيب القرآنيّة.

سابعاً- لقد خرج إبراهيم بصور شعرية تعبر عمّا كان يجيش في نفسه، فقد لمحنا الصّور المستمدّة من البيئة، والمتحرّكة فضلاً عن الصّور الممزوجة بالطّبيعة.

ثامناً- لقد انتشر بين ثنايا أشعاره كثير من التّراكيب البلاغيّة والنّحويّة، كالتّكرار، والقسم، والمقابلة، وأهمّيّة الفعل، وأسلوب الشّرط...

تاسعاً- إنّ الكتب من مصادر ومراجع، والّتي أرّخت وترجمت لإبراهيم بن المهديّ، رأت فيه شاعراً، ومغنّياً مجيداً، نافس أقرانه ومدارسهم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم.**

٢- **الحديث الشريف.**

٣- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الملقّب بعزّ الدين (ت٦٣٠هـ)، **الكامل في التاريخ**، تصحيح محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٤- ابن الأثير الحلبي، نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي (ت٧٣٧هـ)، **جوهرة الكنز**، تحقيق محمد زغلول سلام، دار المعارف بالاسكندرية، (د.ت).

٥- الأحوص الأنصاري، **شرح شعره** ، تحقيق عادل سليمان جمال، تقديم: شوقي ضيف، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.

٦- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن حسين القرشي الأموي الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، **الأغاني**، شرح عبدعلي مهنّا، وسمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.

٧- بدري محمد فهد، **الخليفة المغتَى (إبراهيم بن المهدي)**، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧م.

٨- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٩- التنوخي، القاضي أبو علي المحسّن بن علي التنوخي (ت٣٨٤هـ)، **الفرج بعد الشدة**، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.

١٠- التنوخي، **المستجاد من فعلات الأجواد**، تحقيق محمد كرد علي، دار صادر، بيروت،١٩٧٠م.

١١- التوحيدي، أبو حيان التوحيدي (ت٣٨٠هـ)، **البصائر والذخائر**، تحقيق أحمد أمين، والسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣م.

١٢- الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، **التوفيق للتلفيق**، تحقيق إبراهيم صالح، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٣م.

١٣- الثعالبي،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٥م.

١٤- الثعالبي،

لطائف اللطف، تحقيق عمر الأسعد، دار المسيرة، بيروت، (د.ت).

١٥- الثعالبي،

أحسن ما سمعت، شرح وتعليق أحمد عبدالفتاح، وسيد عاصم، مؤسسة الكتب الثقافية، (د.ت).

١٦- الثعالبي،

خاص الخاص، عُني بتصحيحه محمود السمكري، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٨٠٩م.

١٧- الثعالبي،

الإعجاز والإيجاز، المطبعة العمومية، ١٨٩٧م.

١٨- الثعالبي،

من غاب عنه المطرب، شرح محمد سليم اللبابيدي، المطبعة الأدبية، (د.ت).

١٩- الثعالبي،

التمثيل والمحاضرات، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م.

٢٠- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن عمر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)،

التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي، المطبعة الأميرية، ١٩١٤م، (منسوب).

٢١- ابن الجراح، أبو عبدالله محمد بن داود بن الجراح (ت٢٩٦هـ)،

الورقة، تحقيق عبدالوهاب عزام، وعبدالستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م.

٢٢- الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني المشهور بالقاضي (ت٣٩٢هـ)،

الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط٤، (د.ت).

٢٣- الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري (ت٣٣١هـ)،

كتاب الوزراء والكتّاب، تحقيق حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٤- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت٣٩٢هـ)،

الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، مطبعة الهلال، مصر، ١٩١٣م.

٢٥- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت٥٩٧هـ)،

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

٢٦- ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ)،

شرح نهج البلاغة، تحقيق حسن تميم، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٤م.

٢٧- حسن إبراهيم حسن،

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م-١٩٦٢م.

٢٨- حسين علي محفوظ،

معجم الموسيقي العربية، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٤م.

٢٩- الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت٤٥٣هـ)،

زهر الآداب وثمر الألباب، شرح علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٣م.

٣٠- الحطيئة،

ديوانه، شرح ابن السكيت السكري والسجستاني، تحقيق نعمان أمين طه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٨م.

٣١- الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي الرومي البغدادي (ت٦٣٠هـ)،

معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٣٢- الحنفي، تقي الدين أبو بكر علي بن محمد بن حجة الحموي (ت٨٩١هـ)،

ثمرات الأوراق في المحاضرات، شرح مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

٣٣- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي البغدادي (ت٤٦٣هـ)،

تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

٣٤- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت٨٠٨هـ)،

تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتد والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٣٥- ابن خلدون

المقدّمة، مطبعة مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦١م.

٣٦- ابن خلّكان، أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان(ت٦٨١هـ)،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، (د.ن).

٣٧- خليل مردم بك،

جمهرة المغنين، تعليق عدنان مردم بك وأحمد الجندي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٦٤م.

٣٨- ابن خيّاط (ت٢٤٠هـ)،

تاريخ خليفة بن خيّاط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٧٧م.

٣٩- خير الدين الزركلي،

الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت).

٤٠- دعبل الخزاعي، أبو جعفر الحسن عبدالرحمن محمد بن علي الخزاعي (ت٢٢٠هـ)،

ديوانه، تحقيق محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤م.

٤١- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)،

سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

٤٢- الذهبي،

العبر في خبر من غبر، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٤٣- الذهبي،

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٤٤- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد بن الرّاغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)،

محاضرات الأدباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م.

٤٥- الرقام البصري، أبو الحسن محمد بن عمران العبدي المعروف بالرقام البصري،

كتاب العفو والاعتذار، تحقيق عبدالقدوس أبو صالح، دار البشير، ط٣، ١٩٩٣م.

٤٦- السمعاني، أبو مسعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت٥٦٢هـ)،

الأنساب، تحقيق عبدالرحمن بن يحيى اليماني، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٤٧- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)،

تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، المطبعة أمير- قم، ط١، ١٩٩١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٨- ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ)،
فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر. بيروت، (د.ت).
٤٩- شكري محمد عياد،
اللغة والإبداع، مبادىء علم الأسلوب العربي، دار انترناشونال، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.
٥٠- شكري محمد عياد،
مدخل إلى علم الأسلوب، دار العلوم، الرياض، ط١، ١٩٨٢م.
٥١- شهاب الدين العنابي، شهاب الدين أبو العبّاس العنابي أحمد بن محمد (ت٧٧٦هـ)،
نزهة الأبصار في محاسن الأشعار، تحقيق مصطفى السنوسي وعبداللطيف لطف الله، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٦م.
٥٢- شوقي ضيف،
العصر العبّاسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨م.
٥٣- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ)،
الوافي بالوفيات، تحقيق إبراهيم بن سهل، وأحمد بن طولون، باعتناء مس. دَيْدرينغ، دار النشر فرانز شتايز شتوتغارت، ط٣، ١٩٩١م.
٥٤- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت٣٥٥هـ)،
أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، عُني بنشره ج. هيورث - دن، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
٥٥- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)،
تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، (د.ت).
٥٦- ابن الطقطقى، محمد بن علي بن طباطبا الطقطقى (ت٧٠٩هـ)،
الفخري في الآداب السلطانية، عُني بنشره إبراهيم زيدان، المطبعة الرحانية، مصر، ١٩٢١م.
٥٧- ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب (ت٢٨٠هـ)،
كتاب بغداد، تصحيح محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عُني بنشره عزت العطّار الحسني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢ ١٩٩٤م.
٥٨- ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد بن عبدربّه الأندلسي (ت٣٢٨هـ)،
العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، وعبدالمجيد الترصيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.
٥٩- عبدالعزيز الحلفي،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدباء السجون، دار الكاتب العربي، (د.ت).

٦٠- أبو العتاهية،

ديوانه، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.

٦١- ابن عساكر، ثقة الله أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي (ت٥٧٢هـ)،

تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ترتيب عبدالقادر بدران، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.

٦٢- العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)،

لسان الميزان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط١، (د.ت).

٦٣- العلوي، يحيى بن حمزة العلوي (ت٤٧٩هـ)،

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

٦٤- علي الخاقاني،

شعراء بغداد، منشورات دار البيان، مطبعة أسعد، بغداد، (د.ت).

٦٥- ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين الفلاح عبدالحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي (ت١٠٨٩هـ)،

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٨٨م.

٦٦- عمر بن أبي ربيعة،

ديوانه، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٦٧- عمر بن كلثوم،

معلّقته، شرح أبي الحسن بن كيسان، تحقيق محمد إبراهيم البنّا، دار الاعتصام، (د.ت).

٦٨- ابن أبي عون، أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن المنجم الأنباري (ت٣٢٢هـ)،

التشبيهات، عني بتصحيحه محمد عبدالمعيد خان، مطبعة كمبرج، ١٩٥٠م.

٦٩- فؤاد سزكيس،

تاريخ التراث العربي، جامعة الإمام محمد بن سعيد الإسلامية، الرياض، ١٩٩١م.

٧٠- ابن الفوطي،

مجمع الآداب في معجم الألباب، تحقيق مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٩٣م.

٧١- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)،

المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط٤، (د.ت).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٢- ابن قتيبة،
عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥-١٩٣٠.
٧٣- القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النحوي القرطبي (ت٤٦٣هـ)،
بهجة المَجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تحقيق محمد فرس الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.
٧٤- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)،
البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.
٧٥- كثير عزّة،
ديوانه، شرح قدري مايو، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
٧٦- ليلى فياض،
موسوعة أعلام الموسيقى العرب والأجانب، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
٧٧- ابن ماكولا، أبو نصر علي بن هبة الله (ت٤٤٧هـ)،
الإكمال في رفع الارتياب على المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب.
٧٨- المبرِّد، أبو العبّاس محمد بن يزيد المبرِّد (ت٢٨٥هـ)،
الكامل في اللغة والأدب والنحو والصرف، تحقيق محمد أحمد الدّالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
٧٩- المبرِّد،
التعازي والمراثي، تحقيق محمد الديباجي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٧٦م.
٨٠- ابن محمد العبدلكاني، أبو محمد عبدالله بن محمد العبدالمكاني الزوزوني (ت٤٣١هـ)،
حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء، تحقيق محمد حبّار المعيبد، مكتبة استانبول، (د.ت).
٨١- محمود أحمد الحفني،
إسحاق الموصلي الموسيقار النديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.
٨٢- المرتضى، علي بن حسين الموسوي العلوي (ت٤٣٦هـ)،
أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٤م.
٨٣- المرزباني، أبو عبدالله محمد بن عمران بن يوسف المرزباني (ت٣٨٤هـ)،
الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدّة أنواع من صناعة الشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة، (د.ت).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٤- مروان بن أبي حفصة،

شعر مروان بن أبي حفصة، تحقيق حسين عطوان، دار المعارف، مصر، (د.ت).

٨٥- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ)،

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العرية، بيروت.

٨٦- ابن منظور، أبو فضل جمال الدين محمد بن مكرَّم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ)،

مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق إبراهيم صالح، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.

٨٧- ابن منظور،

لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.

٨٨- ابن منظور،

مختار الأغاني، ط١، ١٩٦٤م.

٨٩- النابغة الذبياني،

ديوانه، شرح محمد بن إبراهيم الحضرمي، تحقيق علي الهروط، المكتبة الوطنية، ١٩٩٢م.

٩٠- ابن النديم، محمد بن إسحاق بن النديم (ت٢٣٥هـ)،

الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

٩١- ابن النديم،

الفهرست، تحقيق رضا تجدد، مكتبة الأسدي، طهران، (د.ت).

٩٢- أبو نواس،

شرح ديوانه، شرح إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط١، ١٩٨٣م.

٩٣- ابن وادران،

تاريخ العباسيين، تحقيق المنجي الكعبي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م.

٩٥- الوشّاء، أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشّاء (ت٣٢٥هـ)،

الموشّى أو الظرف والظرفاء، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م.

٩٦- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت٢٩٢هـ)،

تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

SUMMARY

Ibrahim Bin Al-Mahdi poetry (779 - 839)

By

Wu Xiao Qing

Supervisor

Prof. Abed Al-jaleel Abed Al-Mahdi

This study has handled the question of Ibrahim Bin Al-Mahdi in three chapters, in which there was concentration upon the singing and poetry sides. The political features has appeared within these chapters separately, or mixed with singing and poetry. This study aims to reveal the obscure life of this man of literature. So this thesis discusses the dialectician relation between Ibrahim Bin Al-Mahdi and his rivals on throne such as Arrasheed and Al-Ma'amoon, and his rivals in singing such as Isaaq Al-Moosili. It also discusses the lyrical talent of Ibrahim and the strong competition between him and Isaaq Al-Moosili, and the lyrical schools of these two distinguished men which descended to their students.

We also notice the poetic talent of Ibrahim Bin Al-Mahdi through his handling most of the poetic subjects, and through the features of affection and effect, and so he has formed a special poetic taste for himself. We have also noticed the Quran vocabulary in this artistic structure, in which features, such as those we have mentioned in our discussion of the artistic structure of Ibrahim Bin Al-Mahdi poetry, have come out.

In this study we have tried to get help from a number of sources and references which included a lot of news about Ibrahim Bin Al-Mahdi, and a lot of his poetry. At the head of these sources comes Al-Agani book for Abi Al-Faraj Al-Asfahani, which has specialised a long biography for our poet. In addition to

٤٨١٢٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

this book there are other sources such as "The poetry of the Coliphs Sons" for Assooli. We also should not forget the recent sources especially the valuable study "The Singer Coliph" for Badri Mohammad Fahd.

We have come to an important conclusion, that we have a gifted poet and singer, not less in importance than other poets and singers regarding their talents and skills.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit